
الرباط في سبيل الله
مفهومه -فضله- أحكامه- أبواب متعلقة به
إعداد
حمد التميمي
بيت المقدس



1442 هـ 2021 م

Baytalmaqdiss44@gmail.com

بيت المقدس



مفهومه - فضله - أحكامه - أبواب متعلقة به

إعداد

حمد التميمي

بيت المقدس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

الرباط في سبيل الله من أهم أعمال الجهاد، وشعبة من شعبه، وغالبا ما يقوم الجهاد على ساق الرباط، وقد جاء فيه من النصوص والفضائل والأحكام ما لم يأت في كثير من شعب الجهاد وأعماله، وذاك لما يحويه من الأهمية، ومن أجل هذا وذاك جمعت هذه الرسالة في الرباط حثا لنفسي أولا ولإخواني المجاهدين الثابتين في الثغور على احتساب النية وإخلاص الطوية وبعث عبادة الرجاء في القلوب، والله أسأل أن ينفع بها المسلمين ويجعلها خالصة لوجهه الكريم.

تنبيه: سترى أني أنقل عن علماء المالكية في بعض مسائل الرباط دون غيرهم، وذلك لأنهم عالجوا كثيرا من المسائل المتعلقة بالرباط أكثر من غيرهم من المذاهب، بحكم أن كثيرا من بلدانهم من في الساحل الافريقي إضافة إلى الاندلس كانت ثغورا وخطا ساخنا في مواجهة الأعداء وتوالي الهجمات الصليبية.

مفهوم الرباط

إذا أتينا إلى تعريف الرباط، فالمشهور عند الفقهاء وأهل الاصطلاح وفي بعض كتب اللغة أن الرباط: هو ملازمة الثغر الذي يكون بين المسلمين والكفار والمكوث فيه وحبس النفس على ذلك.

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس (478/2): " (ربط) الراء والباء والطاء أصل واحد يدل على شد وثبات، من ذلك ربطت الشيء أربطه ربطا، والذي يشد به رباط.

ومن الباب الرباط: ملازمة ثغر العدو، كأنهم قد ربطوا هناك فثبتوا به ولازموه. ورجل رابط الجأش، أي شديد القلب والنفس" انتهى.

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي (667/1): "ربطه يربطه ويربطه: شده، فهو مربوط وربيط.

والرباط: ما ربط به، ج: ربط، والفؤاد، والمواظبة على الأمر، وملازمة ثغر العدو، كالمرابطة، والخيل، أو الخمس منها فما فوقها، وواحد الرباطات المبنية.

أو المرابطة: أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره، وكل معد لصاحبه، فسمي المقام في الثغر رباطا، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾ أو معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة، لقوله صلى الله عليه واله وسلم: «**فذلكم الرباط**».

والمربط، كمنبر: ما ربط به الدابة، كالمربطة. وكمقعد ومنزل: موضعه..." انتهى.

قال القرطبي في تفسيره (324/4) " فإن المرابطة عند العرب: العقد على الشيء حتى لا ينحل، فيعود إلى ما كان صبر عنه، فيحبس القلب على النية الحسنة والجسم على فعل الطاعة" انتهى.

قال القرطبي في المفهم (135/3)" وقوله: " فذلكم الرباط " ؛ أصله: الحبس على الشيء " انتهى.

جاء في مطالع الأنوار (108/3) " قوله: "وَكانَ جَارًا ورَرِبيطًا" أي: ملازمًا" انتهى.

وقال ابن العربي المالكي في المسالك في شرح موطأ مالك (18/5) " الرباط يكون على وجهين:

1 – الأول: رباط الخيل، وهو ما تقدم.

والأصل في ذلك: قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...**﴾ الآية.

2 – والثاني: رباط الرجل نفسه لحفظ الثغور على من جاورها من العدو.

والأصل في ذلك: قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾ الآية.

وما روي عن سهل بن سعد ﷺ أن النبي – صلى الله عليه واله وسلم – قال: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**» انتهى.

وقال النووي في شرح مسلم (66/7) " الرباط وهو حبس الرجل نفسه في الثغر، وإعداده الأهبة لذلك" انتهى.

قال ابن رشد في المقدمات الممهدات (364/1) في بيان اشتقاق الرباط أنه من ربط النفس" وهو ملازمة الثغور لحراسة من بها من المسلمين، وهو مأخوذ من الربط لأنه إذا لازم الثغر فكأنه قد ربط نفسه به".

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (121/1) " قوله (الرباط) أي ملازمة الثغر للجهاد وأصله الحبس كأن المرابط حبس نفسه على هذه الطاعة" انتهى.

وقال في تعريف الرباط (85/6): " ملازمة المكان الذي بين المسلمين والكفار لحراسة المسلمين منهم" انتهى.

ويقول موفق الدين ابن قدامة المقدسي في كتابه المغني (203/9) " معنى الرباط: الإقامة بالثغر مقويا للمسلمين على الكفار، والثغر كل مكان يخيف أهْله العدو ويخيفهم، وأصل الرباط من رباط الخيل، لأن هؤلاء يربطون خيولهم، وهؤلاء يربطون خيولهم، كلٌّ يعد لصاحبه، فسمي المقام بالثغر رباطا وإن لم يكن فيه خيل " انتهى.

مفهوم الثغر

وبالنسبة لمصطلح الثغر وتفسيره، فقد جاء في اللسان (103/4) " ثغر: الثغر والثغرة: كل فرجة في جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك؛ وقال طلق بن عدي يصف ظليما ورئاله:

صعل لجوج ولها ملج بهن كل ثغرة يشج كأنه قدامهن برج

ابن سيده: الثغر كل جوبة منفتحة أو عورة. غيره: والثغرة الثلمة، يقال: ثغرناهم أي سددنا عليهم ثلم الجبل؛ قال ابن مقبل:

وهم ثغروا أقرانهم بمضرس وعضب وحازوا القوم حتى تزحزحوا

وهذه مدينة فيها ثغر وثلم، والثغر: ما يلي دار الحرب. والثغر: موضع المخافة من فروج البلدان. وفي الحديث: «فلما مر الأجل قفل أهل ذلك الثغر»؛ قال: الثغر الموضع الذي يكون حدا فاصلا بين بلاد المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد. وفي حديث فتح قيسارية: «وقد ثغروا منها ثغرة واحدة» الثغرة: الثلمة" انتهى.

وجاء في جمهرة اللغة (421/1) "والثغر: موضع المخافة بين العدو والمسلمين".

وجاء في تعريف الثغر من المصباح المنير (81) " الثغر من البلاد: الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو، فهو كالثلمة في الحائط يخاف هجوم السارق منها، والجمع: ثغور مثل فلس فلوس" انتهى.

وفي أسنى المطالب (475/2) لزكريا الانصاري "وهو الطرف الملاصق من بلادنا بلاد الكفار" انتهى.

وأفضل تعريف للثغر ما قاله ابن قدامة في المغني (203/9) " والثغر كل مكان يخيف أهُله العدو ويخيفهم" انتهى.

وقد جاءت لفظة الثغر في عهد النبي صلى الله عليه واله وسلم، فعن جابر بن عبد الله قال: «خرجنا مع رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – في غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصاب رجل من المسلمين امرأة رجل من المشركين، فلما انصرف رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – قافلا، أتى زوجها وكان غائبا، فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب مُحَّد دما، فخرج يتبع أثر رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم –، فنزل رسول الله منزلا، فقال: «**من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟**» فانتدب رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله. قال: «**فكونا بفم الشعب**» قال: وكان رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – وأصحابه قد نزلوا إلى الشعب من الوادي، فلما أن خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه، أوله أو آخره؟ قال: بل اكفني أوله. قال: فاضطجع المهاجري، فنام. وقام الأنصاري يصلي. قال: وأتى زوج المرأة فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم. قال: فرماه بسهم فوضعه فيه. قال: فنزعه فوضعه وثبت قائما يصلي. ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، قال: فنزعه فوضعه وثبت قائما يصلي، ثم عاد له الثالثة فوضعه فيه فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد، ثم أهب صاحبه، فقال: اجلس فقد أثبت. فوثب فلما رآهما الرجل عرف أنه قد نذر به، فهرب. فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله أفلا أهببتني أول ما رماك؟ قال كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفدها، فلما تابع علي الرمي ركعت فأذنتك، وايم الله لولا أن **أضيع ثغرا** أمرني رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفدها» رواه ابن خزيمة في صحيحه (36).

***

هل يختص الرباط بالثغور

تجد في جل التعريفات السابقة تقييد تعريف الرباط بالثغر أو الثغور، وتجد في التعريفات اللغوية ما يدل على أن من مفاهيم الرباط هو المواظبة على الأمر والمداومة والثبات عليه وملازمته وحبس النفس عليه، ولكن في الحقيقة أن مفهوم الرباط أوسع من تقييده بالثغور، فيشمل كل ملازمة وإقامة وحبس للنفس في سبيل الله لأجل العدو، سواء كان هذا في الثغر – وهو الغالب – أو في غيره، فالثغر ليس ركنا في التعريف، بل ركنه الملازمة وحبس النفس وربطها على أمر، والذي يحدد هيئة هذه الملازمة هو الصراع وحاجته، فقيد الثغر في التعريف هو قيد أغلبي كما قال تعالى ﴿**وَرَبَائِبُكُمُ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ**﴾ فتقييد الربائب بكونهن في الحجور هو قيد أغلبي غير مؤثر في الحكم.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز (560/1) " القول الصحيح: أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله، أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور المسلمين مرابطا فارسا كان أو راجلا " انتهى.

قال ابن الاثير في النهاية (185/2) " الرباط في الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها، والمرابطة أن يربط الفريقان خيولهم في ثغر كل منهما معد لصاحبه، فسمى المقام في الثغور رباطا " انتهى.

قال الواحدي في تفسيره (537/1) " وقال زيد بن أسلم: ﴿**اصْبِرُوا**﴾ على الجهاد، و﴿**صَابِرُوا**﴾ عدوكم، فلا يكون أصبر منكم، و﴿**رَابِطُوا**﴾ أقيموا على جهاد عدوكم بالحرب، وأصله من مرابطة الخيل، وهو ارتباطها بإزاء العدو في بعض الثغور، ثم سمي ملازمة الجهاد رباطا ومرابطة، هذا قول أكثر المفسرين" انتهى.

قال القرطبي في التذكرة (418) " مسألة الرباط: هو الملازمة في سبيل الله، مأخوذ من ربط الخيل ثم سمي ملازم لثغر من ثغور المسلمين: مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الرباط، وقول النبي صلى الله عليه واله وسلم في منتظري الصلاة: «**فذلكم الرباط**» إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله، والرباط اللغوي هو الأول، وهو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما" انتهى.

وقال ابن مرزوق التلمساني في المسند الصحيح الحسن "والرباط في اصطلاح الفقهاء عبارة عن احتباس النفس في الجهاد والحراسة" انتهى.

واحتباس النفس للجهاد هو كقوله تعالى ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ وذلك على قول بعض المفسرين أنها فيمن احتبس نفسه للجهاد وحصرها عليه.

وقد روى ابن المبارك في كتاب الجهاد (3) عن مجاهد قال: «نزل قوله: ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾ في نفر من الأنصار منهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت، فلما نزل فيهم، فقال ابن رواحة: لا أزال حبيسا في سبيل الله حتى أموت، فقتل شهيدا» وفيه انقطاع.

وقد روي أن بلالا جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: «يا خليفة رسول الله، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول: «**إن أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله**» وقد أردت أن أربط نفسي في سبيل الله حتى أموت...» رواه الطبراني في الكبير (1013) بإسناد ضعيف.

وفي شرح الصدور للسيوطي (151) عند كلامه على الحكمة من كون المرابط لا يفتن في قبره "وقال الحكيم الترمذي في توجيه حديث المرابط: إنه قد ربط نفسه وسجنها وصيرها حبيسا لله في سبيله لمحاربة أعدائه، فإذا مات على هذا فقد ظهر صدق ما في ضميره فوقي فتنة القبر" انتهى.

وللكلام على علة تقييد الفقهاء تعريف الرباط بالثغر كقيد أغلبي وليس تحديدي، أو لنقُل: كقيد يناسب واقعهم، فإننا لو رجعنا إلى الوراء ورأينا كيف كان الجهاد في ذاك الزمان، لرأينا أن الجهاد في أغلبه كان معركة تقام في مدة زمنية قليلة ثم ينتهي الجهاد بانتهائها ويعود الناس إلى بيوتهم إما بالنصر أو الهزيمة، وكانت دار الإسلام دار أمان لا خوف فيها ولا داعي للرباط فيها، وإنما يكون الخوف من عدوها من خارج أراضيها، فلهذا كان الرباط في الأطراف والحواشي، وكانت الثغور كما سيأتي هي مركز اجتماع من أراد الغزو والجهاد من متطوعة المسلمين ومن حبس نفسه على الجهاد في سبيل الله، كما أنها مركز انطلاق في غالب الأحيان لصوائف وشواتي المسلمين وهجماتهم في أرض العدو، فمن أراد الجهاد من عامة المسلمين انطلق إلى تلك الثغور، وقعد فيها حابسا لنفسه منتظرا لأي فرصة تحين لكي يجاهد الكفار، سواء أكان ذلك جهاد دفاع

بهجوم الكفار على تلك الثغور لقربها منهم، أو كان جهاد طلب عبر الصوائف والشواتي والتوغل في أرض العدو، ومن هنا جاء هذا المفهوم عند الفقهاء مناسبا للظروف التي يعيشونها، وأما اليوم فإن العدو بعدده وعدته وخيله ورجله بين الأمة وفي داخلها وعلى أراضيها، ولهذا اشترط الحنفية كون الرباط في موضع لا يكون وراءه إسلام؛ لأن ما دونه لو كان رباطا فكل المسلمين في بلادهم مرابطون، وذلك بناء على واقعهم كقول ابن نجيم في البحر الرائق (77/5) " واختلف في محله، فإنه لا يتحقق في كل مكان، والمختار أن يكون في موضع لا يكون وراءه إسلام" انتهى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (9271) عن أبي عمران الجوني قال: «الرباط في كتاب الله تعالى ﴿**وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾».

فالقعود للمشركين والترصد لهم (ومن أنواعه في زماننا الكمين) وحبس النفس على ذلك في المكان وملازمته لانتظارهم ونحو ذلك يكون من الرباط، وظاهر هذه الآية في جهاد الطلب.

ومما يدل أيضا ما جاء عن شرحبيل بن السمط، أنه كان نازلا على حصن من حصون فارس مرابطا قد أصابتهم خصاصة، فمر بهم سلمان الفارسي ﷺ، فقال: «ألا أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله وعليه وسلم يكون عونا لكم على منزلكم هذا ؟ قالوا: بلى، يا أبا عبد الله، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول «**رباط يوم في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطا في سبيل الله أجرى الله له أجر مجاهد إلى يوم القيامة**»» رواه ابن عساكر في معجمه (270) وأصله في مسلم مختصرا.

وفي رواية عبد الرزاق (9617) عن مكحول قال: «مر سلمان الفارسي بشرحبيل بن السمط وهو مرابط على قلعة بأرض فارس فقال له سلمان: ألا أحدثك حديثا لعله أن يكون عونا لك على ما أنت فيه؟... وذكر الحديث».

فأفادت هذه الرواية أن ملازمة الحصن لفتحه من الرباط، وهذا يكون في جهاد الطلب، وعلى ذلك فكل ملازمة في الجهاد سواء أكانت على الثغر أم غيره فإنه من الرباط، مثل ملازمة مكان ما من أجل الكمون للعدو وانتظاره وترقبه، وكذا ملازمة حصن ما لفتحه، وكذا الإقامة في مكان انتظارا لزوال عائق كثلوج

وغيرها من أجل جهاد العدو، وكذا المقام في بعض الأراضي الإسلامية اليوم من أجل قتال العدو كما يحصل في هذه الأزمان، فهذه الأراضي هي ثغور للمسلمين، وقد مضى في تعريف الثغر في كلام ابن قدامة كل مكان يخيف أهُله العدو ويخيفهم، وهذا متحقق في هذه الأراضي، فمن أقام فيها مدافعا عمن فيها المسلمين، حارسا لهم إن حصل لهم طارئ يخيف العدو ويخيفونه، فقد أصبح مرابطا.

وعليه فإن المجاهد في سبيل الله اليوم عليه أن يحتسب أنه كما أنه في أرض جهاد وقتال عليه أن يحتسب أنه في رباط كذلك، ولا إشكال في الجمع بين الاثنين شرعا، وذلك كمن رابط في ثغر من ثغور المسلمين وداهمه العدو فقاتله وجاهده، فقد جمع بين فضيلتي الجهاد والرباط، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولا يختص الرباط بالمقام بالثغر لأجل حراسة المسلمين فقط، فهذا قيد أغلبي أيضا، فغالب من كان يقوم بالرباط في الثغور كان نيتهم الحراسة، ولكن هناك من كان يقوم بالرباط لتحين فرصة الجهاد، وقد سبق أن الثغر كما يشمل الخوف من العدو فهو يشمل إخافتهم، وهذا يكون عن طريق الجهاد غالبا، وسيأتي الكلام عن كيفية الرباط في الثغور في الزمان الماضي، وأن من وظائف تلك الثغور هو إقامة الصوائف والشواتي في أراضي العدو، وأن من المرابطين من يأتون إلى الثغور ويحبسون أنفسهم هناك لأجل الخروج في تلك الغزوات وتقوية المسلمين وإعانتهم.

قال السرخسي في شرح السير الكبير (7) " والمرابطة المذكورة في الحديث عبارة عن المقام في ثغر العدو لإعزاز الدين، ودفع شر المشركين عن المسلمين. وأصل الكلمة من ربط الخيل. قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ فالمسلم يربط خيله حيث يسكن من الثغر ليرهب العدو به. وكذلك يفعل عدوه. ولهذا سمي مرابطة، لأن ما كان على ميزان المفاعلة يجري بين اثنين غالبا " انتهى.

وقال ابن النحاس في مشارع الأشواق (392/1): " الرباط المطلوب عبارة عن ربط الإنسان نفسه في ثغر يتوّقع فيه نزول العدو بنية الجهاد أو الحراسة، أو تكثير سواد من فيه من المسلمين، وكلما كان الخوف أشد في مكان كان الرباط فيه أفضل والثواب أجزل، وسواء كان ذلك المكان ساحل بحرٍ أو غيره" انتهى.

ونقل السيوطي في شرح الصدور (148) عن القرطبي قوله "والرباط هو ملازمة ثغور المسلمين مدة على نية الجهاد فارسا كان أو راجلا" انتهى.

وقال الصنعاني في التنوير (558/6) "(والمرابط) أي الملازم للثغر لنكاية العدو" انتهى.

وعلى ذلك أيضا فمفهوم الرباط للمجاهدين يتسع لكل ملازمة في أرض الجهاد من أجل الجهاد، ولو لم تكن في جبهة في نحر العدو، وإن كان الأجر يتفاوت بحسب الخطر والخوف كما تقدم وفضل الله واسع.

***

مصطلح العواصم

هناك مصطلح يتعلق بالثغور، وهو مصطلح العواصم وهي عبارة عن منطقة تشتمل على مدن، تكون خلف الثغور يعتصم بها المسلمون وتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر، ويعتبر هارون بن المهدي الخليفة أول من أنشأها.

جاء في بغية الطلب في تاريخ حلب (108/1) " وذكر البلاذري قال: ولم تزل قنسّرين وانطاكية ومنبج وذواتها جندا، فلما استخلف هارون بن المهدي أفرد قنسّرين بكورها فصير ذلك جندا واحدا، وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين، وسماها العواصم، لأن المسلمين يعتصمون بها، فتعصمهم وتمنعهم إذا انصرفوا من عدوهم وخرجوا من الثغور، وجعل مدينة العواصم منبج، فسكنها عبد الملك بن صالح ابن علي في سنة ثلاث وسبعين ومائه، وبنى بها أبنيته" انتهى.

***

هل كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رباط؟

عرفنا الرباط سابقا بالمفهوم الأعم وهو الملازمة في الجهاد في سبيل الله، وبالمفهوم الأخص وهو ملازمة الثغور بين المسلمين والكفار، فهل كان في زمن النبي صلى الله عليه واله وسلم رباط سواء بالمفهوم الاعم أو المفهوم الأخص؟

روى ابن المبارك في الزهد (408) عن داود بن صالح قال: قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن: «يا ابن أخي، هل تدري في أي شيء أنزلت هذه الآية: ﴿**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا**﴾ ؟ قال: قلت: لا، قال: «إنه لم يكن يا ابن أخي على عهد رسول الله صلى الله عليه واله وسلم غزو يرابط فيه، ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة»» وهذا الأثر فيه ضعف فيه مصعب بن ثابت وليس بالقوي ولم يرو إلا من طريقه.

ولكن من ينظر في السيرة يجد نموذجا للرباط بالمعنى الأخص المستلزم للمعنى الأعم، ففي غزوة الأحزاب كان النبي صلى الله عليه واله وسلم وأصحابه ملازمين للخندق – وهو ثغرة – لئلا يسمحوا لهم باقتحامه والدخول إلى المدينة، وهذا رباط لا شك فيه، يقول ابن إسحاق في السيرة في تلك الغزوة «فأقام رسول الله صلى الله عليه واله وسلم مرابطا وأقام المشركون يحاصرونه بضعا وعشرين ليلة، قريبا من شهر، ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل..... » نقله ابن كثير في السيرة (201/2).

وقد نقل ابن عاشور رحمه الله في التحرير والتنوير (208/4) أن المرابطة كانت معروفة في الجاهلية فقال " وكانت المرابطة معروفة في الجاهلية، وهي ربط الفرس للحراسة في الثغور أي الجهات التي يستطيع العدو الوصول منها إلى الحي مثل الشعاب بين الجبال، وما رأيت من وصف ذلك مثل لبيد في معلقته إذ قال:

ولقد حميت الحي تحمل شكتي ... فرط وشاحي إذ غدوت لجامها

فعلوت مرتقبا على ذي هبوة ... حرج إلى إعلامهن قتامها

حتى إذا ألقت يدا في كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها

فذكر أنه حرس الحي على مكان مرتقب، أي عال بربط فرسه في الثغر" انتهى.

وقال المثقب العبدي وهو من شعراء الجاهلية:

ونحمي عن الثغر المخوف ويتقى بغارتنـا كيـد العـدى وضـيوفها

وقال قراد بن حنش يمدح شيبان بن عمرو بن جابر الفزاري:

إذا بادروه المجـــد أربى علـــيهم يسجل حتى استفرغ المجد مترعا
هـم النـازلون الثغـر قـدام قـرمهم يعــدون للأعــداء سمــاً مســلعا

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (418/28) أن النبي صلى الله عليه واله وسلم وأصحابه كانوا في المدينة في مقام رباط فقال " ولهذا كان النبي صلى الله عليه واله وسلم وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة؛ لمعان منها أنهم كانوا مرابطين بالمدينة، فإن الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط والأعمال بالنيات" انتهى.

روى ابن المبارك في الجهاد (151) عن سهيل بن أبي صالح قال: «لما خرج النبي صلى الله عليه واله وسلم يوم أحد قال: «**من ينتدب لسد هذه الثغرة الليلة؟**» أو كما قال. قال: فقام رجل من الأنصار من بني زريق يقال له ذكوان بن عبد قيس أبو السبع، فقال: أنا. فقال: «**من أنت ؟**» قال: ابن عبد قيس. قال: «**اجلس**». ثم دعا، فقالها، فقام ذكوان، فقال: «**من أنت ؟**» فقال: أنا أبو السبع. فقال: «**كونوا مكان كذا وكذا**». فقال ذكوان: يا رسول الله، ما هو إلا أنا، ولم نأمن أن يكون للمشركين عين، فقال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: «**من أحب أن ينظر إلى رجل يطأ خضرة الجنة بقدميه غدا، فلينظر إلى هذا**». فانطلق ذكوان إلى أهله يودعهن، فأخذت نساؤه بثيابه، وقلن: يا أبا السبع، تدعنا وتذهب فاستل ثوبه حتى إذا جاوزهن، أقبل عليهن، فقال: موعدكن يوم القيامة. ثم قتل» وإسناده ضعيف على إرساله.

وروى البزار (كشف الأستار 1806) عن عائشة ﵂ قالت: «كنت مع رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وهو بالخندق، فكان رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يتعاهد ثغرة من الجبل يخاف منها، فيأتي فيضطجع، في حجري، ثم يقوم فيتسمع، فسمع حس إنسان عليه الحديد، فانسل في الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: «**من هذا؟**» فقال: أنا سعد، جئتك لتأمرني بأمرك، فأمره رسول الله صلى الله

عليه واله وسلم أن يثبت في تلك الثغرة، فقالت عائشة: فنام رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في حجري حتى سمعت غطيطه، فقالت عائشة: لا أنساها لسعد» والحديث إسناده ضعيف جدا فيه عبد الله بن شبيب وإسماعيل بن داود متكلم فيهما.

***

الفرق بين الحراسة والرباط

ذكر الحافظ في الفتح (85/6) أن بين المرابطة والحراسة عموم وخصوص وجهي، ومقصوده - والله أعلم - أنهما يجتمعان في صورة ويفترقان في صور أخرى، فيجتمع الرباط مع الحراسة في صورة عندما يكون في الثغر حارسا لمن وراءه من المسلمين، ويفترقان عندما يكون الرباط لغير الحراسة، أو تكون الحراسة ليس فيها رباط.

وفي هذه الصورة التي يجتمع فيها الحراسة مع الرباط يقول ابن النحاس في المشارع (363/1) " واعلم: أن الحراسة في سبيل الله تعالى من أعظم القربات وأعلى الطاعات، وهي أفضل أنواع الرباط، وكل من حرس المسلمين في موضع يخشى عليهم فيه من العدو، فهو مرابط ولا ينعكس، فللحارس في سبيل الله أجر المرابط، وفضائل أخر كثيرة: منها: أن النار لا تمس عينا حرست في سبيل الله أبدا" انتهى.

وهذا التفريق من العلماء يدل على ما ذكرنا سابقا أن الرباط لا يختص بالثغر، إذ من المعلوم أن الرباط في الثغر يجتمع مع الحراسة، وهنا أفادوا بأن الرباط أعم من ذلك، وأن هناك صورا لا يجتمع فيها الرباط مع الحراسة.

***

وصف الرباط في الزمان الماضي

كانت الثغور في الزمن الماضي على ثلاثة أنواع يصفها لنا أبو الفرج البغدادي في كتابه الخراج وصناعة الكتابة (185) فيقول " إن هذه الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر، ومنها ما يجتمع فيه الأمران وتقع المغازي من أهله في البر والبحر والثغور البحرية على الاطلاق بسواحل الشام ومصر كلها، والمجتمع فيه الأمران غزو البر والبحر" انتهى.

ويقوم الرباط في هذه الثغور على شكلين:

الشكل الأول: رباط المدينة: وهو أن يجتمع الناس في مدينة في الثغور بين المسلمين والكفار من أجل الرباط والدفاع عما وراءهم من أمصار ومدن المسلمين، وكذلك الاستعداد للجهاد في حال تيسره، وكذا الدفاع عن المدينة التي يقطنونها، لأن العدو في الغالب لن يتجاوزها إلى غيرها من المدن حتى يهاجمها، حتى يؤمن ظهره فلا يحاصر، فتكون هذه المدن عقبة بين العدو وبين اقتحامه بلاد المسلمين.

فيكونون في مدينة محصنة ويعيشون فيها حياة المدن، وهذا ذكر في التاريخ في بعض ثغور المسلمين كطرسوس والمصيصة وغيرها.

ويدخل في هذا ما لو اقتحم عدو بلدا إسلاميا ليس في الحدود المتاخمة بين المسلمين والكفار، وحاصر مدينة من مدن المسلمين ورابط أهل المدينة على حصنها لئلا يقتحمه العدو.

الشكل الثاني: وهو الرباط في غير المدينة في الخطوط الأمامية قِبل الأعداء في القلاع والحصون الصغيرة المعدة لذلك، أو المواقع الحصينة كالجبال ونحوها التي تكون كالمرقب للإبلاغ عن وجود عدو أو تحركه عن طريق إشعال النيران على رؤوس القلاع أو الجبال ونحوها ليراها من خلفهم فيحذروا، وهو ما يسمى في اللغة بالمسالح، جمع مسلحة، وقد تسمى في بعض البلدان بالمحارس جمع محرس.

جاء في لسان العرب (487/2) " والمسلحة: كالثغر والمرقب. وفي الحديث: "كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العذيب"

قال بشر:

بكـل قيـاد مسـنفة عنـود   أضـر بهـا المسـالح والغـوار

ابن شميل: مسلحة الجند خطاطيف لهم بين أيديهم ينفضون لهم الطريق، ويتجسسون خبر العدو ويعلمون علمهم، لئلا يهجم عليهم، ولا يدعون واحدا من العدو يدخل بلاد المسلمين، وإن جاء جيش أنذروا المسلمين؛ وفي حديث الدعاء: "بعث الله له مسلحة يحفظونه من الشيطان" ؛ المسلحة: القوم الذين يحفظون الثغور من العدو، سموا مسلحة لأنهم يكونون ذوي سلاح، أو لأنهم يسكنون المسلحة، وهي كالثغر والمرقب يكون فيه أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له. والمسالح: مواضع المخافة؛ قال الشماخ:

تـذكرتها وهنـا وقـد حـال دونهـا   قرى أذربيجان المسالح والجال

" انتهى.

وفي هذا جاء حديث النبي صلى الله عليه واله وسلم «**يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة، حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح**» رواه أبو داود في سننه (4250) وسلاح موضع قريب من خيبر.

وهذا الشكل من الرباط يكثر في السواحل، حيث تقام المدن بعيدا عن الساحل خوفا من أن يطرقها العدو بشكل مفاجئ، وتقام مواضع وقلاع للرباط على الساحل مباشرة للإخبار عن وجود العدو.

وللمرابطين على ذلك وظائف:

منها الدفاع في حال هجوم العدو على الثغر أو على بلدان الإسلام، وذلك عبر التحصن بالمدن وعدم تسليمها له، أو النفير إليه ومناجزته، فإن العدو في الغالب لن يتقدم الثغر ويخترق بلاد الإسلام حتى يؤمن ظهره ومن أن يؤتى من خلفه من تلك الثغور، وعليه فإنه يبدأ بالثغر فيسقطه ثم يتقدم لاختراق بلاد الإسلام.

كما جاء في فتوح البلدان للبلاذري (171) " وحدثني أَحْمَد بْن الحارث الواسطي عن مُحَمَّد بْن سَعْد عَنِ الواقدي، قَالَ: لما كانت سنة ثمانين ومائة أمر الرشيد بابتناء مدينة عين زربة وتحصينها وندب إليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم، فأقطعهم بها المنازل، ثُمَّ لما كانت سنة ثلاث وثمانين ومائة أمر ببناء الهارونية، فبنيت وشحنت أيضا بالمقاتلة ومن نزح إليها منَ المطوعة ونسبت إليه، ويقال أنه بناها في خلافة المهدى ثم أتمت في خلافته، قَالُوا: وكانت الكنيسة السوداء من حجارة سود بناها الروم عَلَى وجه الدهر، ولها حصن قديم أخرب فيما أخرب فأمر الرشيد ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب إليها المقاتلة في زيادة العطاء.

وأخبرني بعض أهل الثغر عزون بْن سَعْد: أن الروم أغارت عليها والْقَاسِم بْن الرشيد مقيم بدابق فاستاقوا مواشي أهلها وأسروا عدة منهم، فنفر إليهم أهل المصيصة ومطوعتها فاستنقذوا جميع ما صار إليهم وقتلوا منهم بشرا، ورجع الباقون منكوبين مفلولين، فوجه القاسم من حصن المدينة وزمها وزاد في شحنتها، وقد كان المعتصم بالله نقل إِلَى عين زربة ونواحيها بشرا منَ الزط الَّذِينَ قَدْ كانوا غلبوا عَلَى البطائح بَيْنَ واسط والبصرة فانتفع أهلها بهم" انتهى.

ومنها مراقبة تحركات العدو وتحذير من وراءهم من المسلمين بتلك التحركات، وهذا غالبا ما يكون في المسالح والمراقب والمحارس لأنه يقل فيها عدد المرابطين، فلا يقدرون على المواجهة، وتكمن مهمتهم في المراقبة.

جاء في كتاب المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق التلمساني عن الأمير أبي الحسن المريني " أنشأ هذا المولى ﷺ من المحارس والمناظر ما لم يعهد مثله في عصر من الاعصار، وحسبك أن مدينة آسفي – وهي آخر المعمورة إلى بلد الجزائر جزائر بني مزغنان آخر وسطي الغرب وأول بلاد أفريقية – محارس ومناظر إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل المسلمين إلا والتنيير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم، فأمنت السواحل في أيامه السعيدة ما كان يستمر فيها من أسر أهل البوادي وتصبيحهم والاستيلاء على كثير من أهل العمود الذين يأوون إلى البلاد الشطية والسواحل" انتهى.

ومنها الهجوم على العدو سواء عبر ما يعرف بغزوات الصوائف والشواتي والتي كانت غالبا تنطلق من تلك الثغور، فكانت تلك الثغور نقاط انطلاق لجيوش وسرايا الصوائف – وهي الغزوات الصيفية – والشواتي –

وهي الغزوات الشتوية – وفي حال انطلق تلك الجيوش من عمق بلاد الإسلام، فإنها لابد وأن تمر على تلك الثغور في مسيرتها فيخرج المرابطون والمطوعة – وهم من حبسوا أنفسهم على الجهاد – معها لمساندتها والتقدم باتجاه أراضي العدو وغزوهم، وكذلك الغزوات الكبرى التي ينادى فيها بالنفير ويخرج فيها الخلفاء وتخرج من عمق بلاد الإسلام، فإنها تمر على الثغر ويساندها المرابطون.

فليس كل المرابطون إنما قدموا للدفاع، بل هناك مرابطون حبسوا أنفسهم على الجهاد، بحيث أنهم لزموا الثغور من أجل تحين فرصة الجهاد وقتال العدو، لأن ذلك المكان هو مظنة للجهاد والتمكن منه وكل ذلك من أجل الظفر بأجر الجهاد والفوز بالشهادة، كما وصفهم النبي صلى الله عليه واله وسلم «**من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة، أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه**» رواه مسلم (1889).

قال السمعاني في الأنساب (317/12) " المطوعي: بضم الميم وتشديد الطاء المهملة وفتحها وكسر الواو وفي آخرها العين المهملة، هذه النسبة إلى المطوعة، وهم جماعة فرغوا أنفسهم للغزو والجهاد، ورابطوا في الثغور، وتطوعوا بالغزو فقصدوا الغزو في بلاد الكفر لا إذا وجب عليهم وحضر إلى بلدهم" انتهى.

وقال السيوطي في لب اللباب في تحرير الانساب (247) " المطوعي: بالضم وفتح الطاء المشددة وكسر الواو ومهملة إلى المطوعة وهم الذين أرصدوا أنفسهم للجهاد" انتهى.

ومن وظائفهم أيضا مرافقة القوافل لحراستها من العدو، فقد جاء في مسائل الامام احمد لابنه عبد الله (252) " سألت أبي عمن يقصر في الرباط، ثم يخرج في البدرقة فيكون في البدرقة ذاهب وجائي يوم وليلة يقصر أو يتم – يعني الصلاة – ؟ قال: لا يقصر حتى يكون غاية ما يزيد على أربعة برد" انتهى.

والبدرقة كما جاء في المغرب في ترتيب المعرب (37) "الجماعة التي تتقدم القافلة وتكون معها تحرسها وتمنعها العدو وهي مولدة" انتهى.

وكانت الثغور وإقامتها وحمايتها ودعمها يكلف الدولة الإسلامية الكثير من الأموال، بحكم أن تلك الثغور ليس لها موارد خاصة لتغطي نفقاتها، نعم قد تحصل لهم شيء من المغانم ولكنها لا تقوم بنفقات الثغر وسد احتياجاته ودفع مرتبات المرابطين والجند فيها، وما يصرف على بناء الحصور والأسوار وشحنها بالجند

وتزويدهم بالسلاح والمؤن الكافية وإرسال حملات الاستطلاع ونحوها وإقامة غزوات الصائفة والشاتية وغير ذلك.

وأنقل هنا كلاما باختصار لأحد الباحثين المعاصرين جمع فيه كيفية أحوال الرباط والثغور في الأندلس، ويقاس عليه بقية أحوال الثغور والرباطات في البلدان الأخرى في الجملة، إذ الأحوال في تلك العصور بالنسبة للرباطات والثغور لمن اطلع على التاريخ تتشابه إلى حد كبير، فجاء في رسالة الدور الجهادي للعلماء في الاندلس " لقد زودت هذه المرابطات سواء البرية منها أو البحرية بتحصينات عسكرية تسمى الحصون، وغالبا ما تبنى هذه الحصون حول المرابطات لتساعد على تدعيم النظام الدفاعي، وهي مليئة بالمؤمن والسلاح، ولها فائدة عظيمة يستفيد منها المرابطون إذا ما تعرضوا للحصار الطويل، لدرجة أن بعض الحصون يبقى محاصرا من العدو ما يقارب عشرين سنة صامدا، لكثرة ما تم تخزينه من عدة وعتاد، ويفضل بناء الحصون المبنية فوق منطقة عالية لكشف العدو القادم من بعيد، وإبلاغ الجموع المرابطة بأخذ الحيطة والاحتياط، وتبنى بداخلها عدد من الأبراج لمراقبة العدو والإنذار بهجومه، وفي حالة رصد العدو من بعيد كان يتم إيقاد النيران فوق منطقة عالية لكشف العدو القادم من بعيد، وإبلاغ الجموع المرابطة بأخذ الحيطة والاحتياط، وتبنى بداخلها عدد من الأبراج لمراقبة العدو والإنذار بهجومه، وفي حالة رصد العدو من بعيد كان يتم إيقاد النيران فوق الأبراج، ولا تخلو الرباطات من السراديب يمتنع المرابطون بها من العدو، كما يمكنهم الخروج من تحت الأرض إلى الخارج، وأكثر مدن الأندلس مسور من أجل الاستعداد للعدو، وكانت هذه المرابطات تغص بكميات كبيرة من المرابطين، حيث إن أهل الأندلس كانوا شديدي التحمس للرباط والجهاد ضد أعداء الإسلام، وكانت الحراسة تعد صفة أساسية من صفات المرابطة، وقد عرف الحراس الليليون باسم السمار، وكانت هذه المرابطات عامرة بالسكان آهلة بالأسر الكاملة المكونة من الآباء والأجداد والأطفال، وكان لهذه الأسر دور إيجابي في الدفاع عن مدنهم حين تتعرض لهجمات خارجية، وهؤلاء السكان المحليون لم يكونوا في نظر أهل الأندلس مرابطين، وإنما المرابط من خرج من منزله معتقدا الرباط في موضع الخوف، وكان المرابطون محل أنس وطمأنينة للسكان المحليين، ومن الحرف التي كثر امتهانها من السكان صناعة الأسلحة خاصة السيوف، ولقد اهتم السكان المحليون بتربية الخيول وتدريبها واهتموا

بسلامتها وتغطية أجسامها بدروع، وكانت الدولة تفرض عليهم في أوقات الأزمات تقديم عدد من الخيول للمساهمة في الجهاد.

أما عن حياة المرابطين خلال مدة المرابطة، فقد كان المرابطون يلزمون العبادة بمختلف أشكالها من صيام وتلاوة للقرآن وقيام الليل ودراسة العلوم الدينية، كما كان هناك منهج تربوي خاص يخضع له المرابطون في الثغور وهي كتب الجهاد بمواضيعها المختلفة والنظيم الإسلامية الحربية، وكان للمرابطين بعض النشاطات اليومية التي هي أشبه بالطقوس حيث كانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير في المرابطات بحضرة العدو أو بغير حضرته، وكان يتقدمهم مرابط بالتكبير أو التهليل ثم يجيبه الآخرون بنحو كلامه جمعا غفيرا، وكانوا يفعلون هذه العادة دبر كل صلاة، وفي أوقات أخرى غير دبر كل صلاة، وفي رباطات أخرى كانوا يكبرون ثلاثا عقب كل صلاة عشاء وفجر في المرابطات.

وكان المرابطون أحيانا ينتقلون من رباط إلى آخر طلبا للأجر، حيث أن الأجر في الرباط على قدر الخوف وحاجة أهله إلى حراستهم، فإذا ما وجدوا قدرا من الأمان في ثغر ما انتقلوا إلى آخر أشد خطورة وأكثر عرضة للأخطار لحماية السكان من تلك الأخطار.

أما عن كيفية حضور الراغبين في المرابطة، فكانوا إما فرادى أو على شكل جماعات، ولعل السبب في حضورهم على شكل جماعات هو سبب نفسي، وذلك لتشجيع الأفراد بعضهم بعضا، وإما أن تكون هذه الجماعات جاءت نتيجة استجابة لنداء العلماء الذين تكررت دعواتهم لمسلمي الأندلس على الجهاد وهم في طريقهم للمرابطة، ومن ثم ينطلقون سوية، وكانت الأيام التي يرابط بها المرابطون غالبا أربعين ليلة، لما روي أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال «**تمام الرباط أربعون ليلة**» هذا على صعيد المتطوعين، أما الجنود المكلفين بحماية الثغور فينتمون إلى جيش الثغور، وهو تشكيل عسكري كان يرابط باستمرار في المناطق الحدودية المتاخمة للممالك النصرانية، وكان يعهد بقيادة هذه الفرقة إلى شخصية عسكرية قوية تتولى إمارة الثغر، وتدافع عنه، وقد كان المرابطون المتطوعون يخضعون لإدارة قيادة جيش الثغور التي وقعت على عاتقها مسؤولية الاهتمام بشؤون المرابطات وتجهيزها، بحيث تكون على مستوى عال من الحصانة والمتانة، لهذا تكررت الزيارات الميدانية لرموز الدولة الإسلامية في الأندلس، بدءا من الخلفاء والحكام والقواد والوزراء لتفقد الثغور، وهذا يدخل من باب الزيارات التفقدية لمراقبة أحوال الثغور والمرابطات الحدودية والاطلاع عليها،

وفي أثناء الزيارات كان الحكام يبدون إعجابهم وتقديرهم للمتطوعين المرابطين، كما كانوا يطلبون المزيد من دعائهم للحكام بالمغفرة والتوفيق، وفي حال انشغال الحكام بشئون الحكم الداخلية أو الخارجية كانوا يرسلون من ينوب عنهم للإشراف عليها، وللإعلام بمصالحها والبنيان لحصونها وترتيب مغازيها وإدخال جيوشها إلى الحرب، ولم يكن الحكام يرسلون إلا من يثقون بهم وبقدراتهم العسكرية والإدارية من الوزراء والقواد والقضاة.

وكما أن الحكام وقعت عليهم مسؤولية الإعداد العسكري من أسلحة وحصون ومؤن، فإن العلماء وقعت عليهم مسؤولية الإعداد النفسي والمعنوي للمقاتلين المرابطين، فقد كان العلماء يتجولون في الثغور، والرباطات بهدف التعبئة النفسية وتحريض المرابطين على الصبر والثبات وغرس القيم العسكرية كالشجاعة والإقدام، بهدف تقوية العزائم وإلهاب روح الشجاعة في النفوس.

ومن نتائج وجود العلماء في الرباطات – فضلا عن رفع الروح المعنوية للمرابطين أيضا – زيادة النسبة العددية للراغبين في الرباط خاصة من طلبة العلم، حيث أن وجود العلماء المرابطين يعوضهم عما فقدوه من الإقامة في المدن للتعلم، لكن وجود العلماء في المرابطات يعطي الفرصة للمرابطين للعلم والرباط، ولم يكن العلماء المرابطون من شريحة اجتماعية واحدة بل من مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية، فكان منهم المحدثون والشعراء والنحاة والأدباء والمختصون بالعلوم الدينية والقضاة والوزراء والأمراء والحكام، وكما تفاوت المرابطون في أوضاعهم الاجتماعية فإنهم تفاوتوا من حيث جنسياتهم، فلم يكن الرباط محصورا على علماء الاندلس، فحسب بل وفدت الجموع الراغبة في الرباط من العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولم يكن يدفعهم للسفر إلى الاندلس سوى الرغبة في الرباط ليجسدوا على الواقع الحديث الشريف «**من مات مرابطا مات شهيدا، ووقي من فتان القبر، وغدي عليه وريح برزقه من الجنة، وجرى له عمله**» ومن هذا الباب طلب الخليفة الموحدي يعقوب بن يوسف المنصور حينما شعر بدنو أجله أن ينقلوه إلى الأندلس ليموت مرابطا فيها، وكان بعض العلماء يتكرر حضورهم للرباط بحيث كانوا يفدون عليها في حقب متعددة.

وكان عدد من سكان الثغور السكان المحليون يصنعون طعاما كثيرا للمرابطين يحدوهم الأمل في أن يكونوا ممن جهزوا غازيا، فقد ورد في الحديث الشريف «**من جهز غازيا فقد غزا**» وكان المرابطون في كثير من الأحيان يقومون بإصلاحات طرق ومساجد وحصون الرباطات، وفي حالة تعرض هؤلاء المرابطين لخطر

داهم فإنهم كانوا يتصدون له لإبعاده، وفي بعض الأحيان يضطرون للاحتماء بالحصون ويقاتلون العدو من داخله، حتى ينفد صبر الأعداء وتنفد ذخيرتهم وطعامهم، وفي حالات عديدة كانت مجموعة من المرابطين يقومون بعمل فدائي فيه ضرب من الشجاعة والجسارة، حين تخرج مجموعة من المجاهدين من الحصن بأعداد قليلة ويباغتون العدو الذي يحاصرهم مدة طويلة فيظفرون بقتل عدد من أعدائهم ويعودون محملين بالجنود والفرسان والأسرى، وفي مثل هذه الحالة كانت الغنائم تقسم على جميع المقاتلين في الحصن لكون من لم يقاتل منهم ردءا عن من قاتل وعونا لهم على الغنيمة، لأن نفوسهم تقوى بوقوفهم وتزيد من جرأتهم على العدو والعدو يرهبهم، وجميع هذه الأعمال والتحركات تكون صادرة عن الهيئة القيادية العسكرية لمتابعتها، ولا يسمح القيام بأي نشاط حربي دون أخذ الإذن من القيادة الميدانية إلا إذا داهم النصارى ثغور المرابطين وكان القائد بعيدا عنهم، فعندئذ يجب عليهم قتال العدو، ولم تكن المرابطات ثكنات عسكرية بغرض الدفاع عن الدولة فحسب، بل كانت قواعد تنطلق منها الجيوش لحرب طويلة الأمد أو لغارات سريعة وقصيرة.

وقد جرت العادة عندما يقترب الجيش من أرض العدو أن ينضم إليه قواد الثغور بجيوشهم وعتادهم، ثم يتقدم الجميع لملاقاة العدو، وكان يتقدم الجيش عيونه وجواسيسه لمعرفة أخبار العدو وعدد شجعانه وجنوده، وكانت مناطق الثغور مرتعا خصبا لأعمال التجسس وجمع المعلومات من كلا الجانبين" انتهى.

ويصف لنا أبو الفرج البغدادي ثغور العالم الإسلامي في وقته والأعداء المحيطين به، وكم يحتاج من النفقات ونحوها مما يرفع إلى السلطان ليبذله لهم، ننقله بطوله ليعلم حال تلك الثغور في تلك الأزمان، فيقول في كتاب الخراج وصفة الكتابة (185): " الباب السابع في ثغور الإسلام والأمم والأجيال المطيفة بها:

الأمم والأجيال المخالفة للإسلام مكتنفة له من جميع أطرافه ونهايات أعماله منهم، المتقارب من دار مملكته ومنهم المتباعد عنها، وكانت ملوك الطوائف الذين ملكهم ذو القرنين يؤدون الاتاوة الى ملك الروم خمسمائة وأحد عشرة سنة، إلى أن جمع أردشير بن بابك المملكة بعد مشقة، فينبغي أن يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذرا منهم للروم، وقد جاءت بذلك آيات ليظهر بها حقيقة ما قلته، والله الموفق للمصلحة بقدرته، فلما كانت الروم على ما وصفت وجب أن نقدم الكلام في الثغور المقابلة لبلدهم على الكلام في غيرها، فنقول: إن هذه الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه

من جهة البحر، ومنها ما يجتمع فيه الامران وتقع المغازي من أهله في البر والبحر والثغور البحرية على الاطلاق بسواحل الشام ومصر كلها، والمجتمع فيه الامران غزو البر والبحر.

الثغور المعروفة بالشامية، فلنبدأ بذكرها وهي: طرسوس وأذنة، والمصيصة، وعين زربة، والكنيسة، والهارونية، وبياس، ونقابلس، وارتفاعها (أي ما يرفع من نفقاتها) نحو المائة ألف دينار، ينفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها، وهي المراقب، والحرس، والفواثير، والركاضة، والموكلين بالدروب، والمخايض، والحصون، وغير ذلك مما جانسه من الامور والاحوال، ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك. وراتب مغازيها، الصوائف، والشواتي، في البر والبحر في السنة على التقريب مائتي ألف دينار وعلى المبالغة، وهي أن يتبع ثلثمائة ألف دينار، والذي يلقاها في بلاد العدو ويتصل بها، أما من جهة البر فالقبادق ويقرب منها الناطلوس، ومن جهة البحر سلوقية وعواصم هذه الثغور، وما وراءها الينا من بلدان الإسلام، وإنما سمي كل واحد منهما عاصما لأنه يعصم الثغر ويمده في أوقات النفير، ثم ينفر إليه من أهل انطاكية والجومة وقورس.

ثم يلي هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال منها الثغور المعروفة بالجزرية، وأول ما يحاد الثغور الشامية منها مرعش، ويليه ثغر الحدث وكان يلي هذه زبطرة، فخربت أيام المعتصم، وكان له عند النهوض الى بلاد العدو حتى فتح عمورية –الحدث المشهور– فلما انتهى إلى موضع زبطرة بنى مكانها وبالقرب منها حصونا لتقوم مقامه، وهي الحصون المعروفة بطبارجي، والحصن المعروف بالحسينية، والحصن المعروف ببني المؤمن، والحصن المعروف بابن رحوان، ثم يليهذه الحصون ثغر كيسوم، ثم ثغر حصن منصور، ثم ثغر شميشاط، ثم ثغر ملطية وهو الخارج في بلد العدو من جميع هذه الحصون، وكل واحد بينه وبين بلد العدو، درب وعقبة، وثغر ملطية مع بلد العدو في بقعة وأرض واحدة، وكان يواجه هذه الثغور، ويقابلها من بلد الروم خرشنة وعمل الخالدية، فحدث في هذا الوقت بينهم وبين الروم والأرمن الذين في جملة ميلح الأرمني في بلد كان يسكنه قوم يسمون السالفة، وهم من الروم إلا إنهم يخالفونهم في كثير من أديانهم، وكان هؤلاء مع المسلمين يعينونهم في غزواتهم، ويتوفر على المسلمين المعونة بهم، إلى أن رحلوا دفعة واحدة عن هذا الموضع، بإساءة أهل الثغور معاشرتهم وقلة إشراف المدبرين على أمرهم، فتفرقوا في البلاد وسكن مكانهم هؤلاء الأرمن.

وابتنوا الحصون المنيعة، ثم صارت لهم العدة الكثيفة والمعرة الشديدة، وارتفاع هذه الثغور مع ملطية سبعون ألف دينار يصرف منها في مصالحها أربعون ألف دينار، ويبقى ثلاثون ألف دينار. ويحتاج لنفقة الاولياء

والصعاليك على التجزئة، مائة ألف وعشرون ألف دينار، تضاف الى البقية وعلى المبالغة مائة وسبعون ألف دينار، تنضاف إليها تتمة مائتا ألف دينار سوى نفقات المغازي في أوقاتها، وهذه الثغور هي الواسطة ومنها كانت تقع المغازي فإن احتيج إلى الغزو منها كانت النفقة حسب الغزاة.

وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان، ومنبج، ويلي هذه الثغور عن يمينها أيضا وفي جهة الشمال، الثغور المسماة بالبكرية وهي: سميساط، وحاني، وملكين. وحصونها منها: جمح. ومنها حوران ومنها الكلس وغيرها.

ثم ثغر قاليقلا في جهة الشمال عن هذه الثغور زيادة، إلا إنه كالمنفرد لما بينه وبينها من المسافة البعيدة، والذي تقابله هذه الثغور من أعمال الروم على الأرمنياق، وبعض عمل الخالدية ويقرب منها عمل أفلاجونية المتصل ببلاد الخزر، وارتفاع هذه الثغور في السنة ألف ألف وثلثمائة ألف درهم، تحتاج نفقاتها في مصالحها وحصونها وأرزاق شحنها إلى هذا المقدار وزيادة ألف ألف وسبعمائة ألف تتمة ثلاثة آلاف ألف درهم.

أما الثغور البحرية وهي سواحل جند حمص، أنطرسوس وبلنياس، واللاذقية، وجبلة، والهرياذة، وسواحل جند دمشق، عرقة، وطرابلس، وجبيل، وبيروت، وصيدا، وحصن الصرفند، وعدنون.

وسواحل جند الاردن، صور، وعكا، وبصور صناعة المراكب وسواحل جند فلسطين قيسارية، وارسون، ويافا، وعسقلان، وغزة، وسواحل مصر، رفح، والفرما، والعريش، ومقدار ما يغزو في الغزاة من مراكب الثغور الشامية، ما يجتمع إليها من مراكب الشام ومصر من الثمانين إلى المائة، والغزاة إذا عزموا عليها في البحر كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك، والتأهب له يجتمع بجزيرة قبرص ويسمى ما يجتمع منها الاسطول، كما يسمى ما يجتمع من الجيش في البر المعسكر، والمدبر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية ومقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مائة ألف دينار.

وإذا قد ذكرنا أمر الثغور الرومية وأسبابها، فلا بأس أن نذكر أحوال الروم ما ينتفع بعلمها، فأول ذلك بترتيب جيوشهم وهو ان البطريق يكون رئيسا على عشرة آلاف مع كل بطريق، طرماخان، وكل طوماخ على خمسة آلاف، ومع كل طوماخ خمسة طربخارين كل طربخار على ألف ومع كل طربخار خمسة قمامسة

كل قومس على مائتين، ومع كل قومس خمسة قنطرخين كل قنطرخ على أربعين ومع كل قنطرخ أربعة داقرخين كل داقرخ على عشرة.

فأما عدة جيوشهم، فمنها بقسطنطينية وهي حضرة الملك أربعة وعشرون ألفا منهم الفرسان ستة عشر ألفا، والرجالة ثمانية آلاف، فينقسم الفرسان أربعة أقسام، أولها الاسخلارية، وصاحبهم الدمستق الكبير وهو صاحب فرض الفروض، والرئيس على الجماعة وعدتهم أربعة آلاف فارس.

والصنف الثاني الحسف وهم أربعة آلاف فارس. والصنف الثالث أوقومس، وهم للحرس وصاحبهم طريخان وعدتهم أربعة آلاف. والصنف الرابع، قيدار طين وهم يخرجون مع الملك اذا خرج في سفر وعدتهم أربعة [آلاف] وينقسم الرجالة قسمين فالاول منهما يسمون اتليمسا وعدتهم أربعة آلاف راجل. والباقي يسمون موبرة وعدتهم أربعة آلاف.

أما في سائر الاعمال، وهي أربعة عشر عملا منها، قدر الخليج القاطع لبلد الروم الذي ينصب نحو الشام، وقد تقدم ذكره ثلاثة أعمال أحدها، طافلا وهو البلد الذي فيه قسطنطينية وحده من جهة المشرق الخليج المقدم ذكره، ومن جهة الجنوب بحر الشام، ومن جهة الشمال بحر الخزر، ومن جهة المغرب سور ممدود من بحر الشام الى بحر الخزر، طوله مسيرة أربعة أيام، وهو من القسطنطينية على مرحلتين. ويعرف الذي يليه بتراقية، وحده من جهة المشرق السور المقدم ذكره، ومن الجنوب مقدونية، ومن الغرب بلاد البرجان، ومن الشمال بحر الخزر وطوله مسيرة أحد عشر يوما، وعرضه من بحر الخزر الى عمل مقدونية مسيرة ثلاثة أيام، والوالي عليه يعرف بالاصطرطيقوس وجنده خمسة آلاف رجل ودون الخليج أحد عشر عملا أحدها عمل افلاجونية وجنده عشرة آلاف رجل، ثم يليه نحو الغرب عمل الافطي ماطي، وتفسير هذه اللفظة بالعربية الاذن والعين لأن هذا العمل سرة بلاد الروم، وليس أهله أصحاب حرب لأنه لا يبلغ اليهم مغازي المسلمين ولا غيرهم، وحده الغربي الخليج والشمالي بحر الخزر والشرقي عمل افلاجونية والجنوبي الابسيق وجنده أربعة آلاف رجل، ثم يلي الافطي ماطي عمل الابسيق وحده الغربي الخليج والشمالي الافطي ماطي، والجنوبي عمل الناطلوس، والشرقي عمل الترقسيس، وجنده ستة آلاف رجلا، ثم يلي الابسيق عمل الترقسيس وحده من جهة الغرب، الخليج، ومن الشمال الابسيق، ومن المشرق الناطلوس، ومن الجنوب بحر الشام، وجنده ستة آلاف رجلا، ثم يليه عمل الناطلوس وتفسيره المشرقي، وهو أكبر أعمال الروم له حد إلى الابسيق في

الغرب ومن الجهة الجنوبية سلوقية عند بحر الشام، ومن جهة المشرق عمل القبادق، ومن الشمال البقلار، وجنده خمسة عشر ألف رجلا، وفيه مدينة عمورية التي فتحها المعتصم، ويليه عمل سلوقية ناحية بحر الشام وأحد حدوده من المغرب الناطلوس ومن الجنوب البحر، ومن الشمال الترقسيس ومن المشرق درب الطرسوس ناحية قلمية واللامس وجنده خمسة آلاف رجلا، ثم يليه عمل القبادق، وحده من جهة الجنوب طرسوس وأذنة والمصيصة، ومن جهة المغرب أعمال سلوقية ومن الشمال الناطلوس ومن المشرق أعمال خرشنة، وجنده أربعة آلاف رجلا، ثم يلي ذلك عمل خرشنة واحد حدوده وهو الجنوبي يلي القبادق وحديلي دروب ملطية وهو الشرقي وحد يلي عمل الارمينات وهو الشمالي وحد يلي عمل البقلار وهو الغربي وجنده أربعة آلاف رجلا، ثم يليه عمل البقلار، فحد منه عمل الناطلوس والافطي ماطي. والثاني القبادق. والثالث خرشنة.

والرابع الارميناق، وجنده ثمانية آلاف رجل، وعمل الارميناق فحد منه يلي الافلاجونية، والثاني عمل البقلار، والثالث عمل خرشنة، والرابع عمل الخالدية وبحر الخزر، أربعة آلاف رجلا، ثم الخالدية، وحد منه بلاد أرمينية، والثاني بحر الخزر، والثالث عمل ارميناق، والرابع أيضا من عمل الارميناق، وجنده أربعة آلاف رجلا، فجميع جيش الاحد عشر عملا التي مقابلتنا سوى من لا معول عليه، إنما هو من يحشر فارسا وراجلا، سبعون ألف رجلا.

ثم نتبع ذلك بوصف أحد أيام الغزوات ليكون علم ذلك محصلا محفوظا، فنقول إن أجهدها مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من ايار، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم، وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوما، وهي بقية ايار وعشرة من حزيران، فأنهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكنا، وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا، ثم يقفلون فيه فيقيمون الى خمسة وعشرين يوما، وهي بقية حزيران، وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة ثم يغزون لعشر تخلط من تموز، فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما.

فأما الشواتي فأني رأيتهم جميعا يقولون: «إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل وليكن مسيرة عشرين ليلة، بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وان يكون ذلك في آخر شباط، فيقيم

الغزاة الى أيام تمضي من آذار، فأنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفسا ودوابا، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون.

ولنبدأ بذكر ما يليها من الشمال، فنأخذ ذات اليمين حتى نأتي على أطراف المملكة ووراء الثغور، حتى نعود إلى حدود الروم من جهة الغرب، فنقول أن حد الخزر من أرمينية الى خوارزم من خراسان......ثم يلي هذا الموضع أيضا ذات اليمين ثغور الديلم، وجيلان، والببر، والطيلسان، وكان حصن قزوين يسمى بالفارسية كبشوم وتفسيره الحد المرموق وبينه وبين الديلم جبل، ولم يزل فيه للفرس مقاتلة من الاسوارية يرابطون فيه، ويدفعون الديلم اذا لم تكن بينهم هدنة ويحفظون تلك الجهة من متلصصتهم، وكانت دشتبى مقسومة بين الري وهمذان، فقسم منها يدعى الرازي وقسم يدعى الهمذاني، وكانت مغازي المسلمين في أول الاسلام، دشتبى، وأبهر، وهو حصن زعموا أن بعض الاكاسرة بناه على عيون وأحوال الديلم، لم تزل مذبذبة لأنه لا شريعة لهم محصلة ولا طاعة فيهم مستقرة لأنهم بعد فتحهم قد نقضوا، وكفروا غير مرة وكان منهم في هذا الوقت ما كان من الأمور المستفظعة، في قتل الأطفال والفجور في المساجد، وترك الصلاة، وفروض الإسلام.

ومن الثغور الكبار، ثغر الترك ولهم برية مما يلي بلاد جرجان ولبلاد جرجان يخرجون منها، وكان أهلها قد بنوا عليها حائطا من آجر تحصنا من غاراتهم الى أن غلبت عليهم الترك وملك أرضها ملك منهم يدعى (صول) ثم فتحها المسلمون، ومعظم الترك في الثغر الذي بخراسان ويسمى نوشجان وهو وراء سمرقند في المشرق بنحو ستين فرسخا نحو الشاس وفرغانة، وهو أوائل مسالح الخرلنجية الى حد كمياك، ومن هذا الثغر إلى مدينة التغزغز مسيرة أربعين يوما في براري فيها عيون وكلأ عشرون يوما، ثم ترى كبار خمسة وعشرون يوما، وأكثر أهل تلك القرى مجوس ومنهم زنادقة، ومن مدينة التغزغز بحيرة حولها قرى وعمارات، متصلة ولها اثنا عشر بابا من حديد، ويحفظها أتراك كلهم، والغالب عليهم الزندقة، وبين نوشجان الأعلى وبين بلد الشاش أربعون مرحلة للقوافل، ولمغذ السير ثلاثون يوما ونوشجان الأعلى أربع مدن كبار وخمس صغار، ومقاتلة نوشجان في مدينة واحدة على شط بحيرة، وهم: عشرون ألف رجلا بديوان وليس في الاتراك أشد منهم، وهم يحسبون عشرة بإزاء مائة من الخرلنجية، والبحيرة التي عليها مدينة التغزغز تحف بها الجبال.

فأما بلاد كيماك، فإنها من طراز مدينة نوشجان الأسفل التي قلنا إنها وراء سمرقند بخمسة وستين فرسخا، يسرة عنها، وفي جهة الشمال وبينها وبين طيراز مسيرة ثمانين يوما في صحارى وبراري واسعة كثيرة الكلأ والعيون وليس يكاد المسلمون يغزون الترك لقول النبي صلى الله عليه واله «**تاركوا الترك ما تركوكم**». وإنما ذكرنا بلدهم وأحوالهم لما تقدم من شرطنا أن نذكر الأمم المطيفة ببلاد الإسلام والأمم المخالفة لهم.

إذ قد أتينا على ذكر ثغور المشرق، فلنرجع الى ناحية الجنوب وبها ثغر البجة والنوبة، وهم مصالحون على ضريبة تسمى البقط، وليس بينهم وبين المسلمين محاربة واستقصاء، أمر صلحهم يكون في المنزلة السابعة، وهي التالية لهذا الباب إن شاء الله وبه القوة.

ثم نذكر بعد ذلك ثغور الغرب فنقول: ان أولها أفريقية وهي المسمى القيروان، ولم يزل مذ افتتح مدبرا من قبل ملك العراق بعد تولى بنى مروان إلى أن تغلب عليه في هذا الوقت صاحب المغرب، واستولى عليه وتعداه الى برقة، فتغلب عليه زيادة.

فأما وراء أفريقية فبلاد تاهرت، وبينها وبين أفريقية مسيرة ثلاثين يوما، وهي في يد صاحب الاباضية، وهم ضرب من الخوارج، ووراء تاهرت مسيرة أربعة وعشرين يوما بلد المعتزلة وعليهم رئيس عادل، وعدلهم فائض وسيرتهم حميدة، ودارهم طنجة ونواحيها والمستولي عليها في هذا الوقت، ولد مُحَمَّد بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن عليهم السلام، وكان مُحَمَّد ينزل مليلة وهي آخر مدائن طنجة، فمات بها فانتقل ولده الى فاس، وهم بها الى هذا الوقت، وراء ذلك بلاد الاندلس والمستولى عليها الاموي ومسكنه فيها في قرطبة والاندلس نهاية الغرب. وبها يجتمع البحرين الذين تقدم وصفنا لهما" انتهى كلامه باختصار.

ومن أشهر ثغور الإسلام في تاريخ المسلمين وأكثرها ذكرا ثغر طرسوس وكذلك الثغر الآخر بجانبها وهي المصيصة، وتقع مدينة طرسوس في تركيا اليوم، واسمها هو نفس الاسم، بجانب مدينة اضنة (سابقا اذنة)، وسترى ذكر هذا الثغر يتكرر في هذا الكتاب، وهذا ينبئ عن الأهمية التي كان يحتلها هذا الثغر من أهل الإسلام في الصدر الأول قال ياقوت الحموي في معجم البلدان (80/2) " ثم لم يزل هذا الثغر، وهو طرسوس وأذنة والمصيصة وما ينضاف إليها، بأيدي المسلمين، والخلفاء مهتمون بأمرها لا يولّونها إلا شجعان القوّاد والراغبين منهم في الجهاد والحروب بين أهلها والروم مستمرة، والأمور على مثل هذه الحال مستقرة، حتى ولي العواصم والثغور الأمير سيف الدولة علي بن أبي الهيجاء بن حمدان، فصمد للغزو وأمعن في

بلادهم، واتّفق أن قابله من الروم ملوك أجلاد ورجال أولو بأس وجلاد وبصيرة بالحرب والدين شداد، فكانت الحرب بينهم سجالا إلى أن كان من وقعة مغارة الكحل في سنة 349، ومن ظفر الروم بعسكر سيف الدولة ورجوعه إلى حلب في خمسة فرسان على ما قيل ثم تلا ذلك هجوم الروم على حلب في سنة 351 وقتل كل من قدروا عليه من أهلها، وكان أن عجز سيف الدولة وضعف، فترك الشام شاغرا ورجع إلى ميّافارقين والثغر من الحماة فارغا، فجاءهم نقفور الدمستق، فحاصر المصيصة ففتحها ثم طرسوس ثم سائر الثغور، وذلك في سنة 354 كما ذكرناه في طرسوس، فهو في أيديهم إلى هذه الغاية" انتهى.

ولمكانة هذا الثغر سأنقل كلام ابن العديم مختصرا عن هذا الثغر وأحواله وأحوال المجاهدين والمرابطين به، ليعلم كيف كانت تسير أحوال الثغور في ذلك الزمان، فقال في بغية الطلب (175/1) " باب في ذكر مدينة طرسوس

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي، وهي مدينة قديمة من بلاد الثغور الشامية عظيمة، وبها كان يقوم سوق الجهاد وينزلها الصالحون والعباد، ويقصدها الغزاة من سائر البلاد، وارتفاع الثغور بجميع جباياتها ووجوه الأموال بها مائة ألف دينار على أوسط الارتفاع، تنفق في المراقب والحرس والقوائين والركاضة والموكلين بالدروب والمخاض، وغير ذلك مما جانسه، وكانت تحتاج بعد ذلك لشحنتها من الجند وما يقوم للمماليك وراتب تعاريفها للصوائف والشواتي في البر والبحر وعمارة الصناعة على الاقتصاد الى مائة وخمسين ألف دينار، وعلى التوسعة الى ثلاثمائة ألف دينار".

ثم قال " فأما أهل هذه الثغور ومن كان يسكنها وأحوال البلاد ومقاديرها، فإن طرسوس كانت أجلها مدينة وأكثرها أهلا، وأغصها أسواقا، وليس على وجه الارض مدينة جليلة إلا ولبعض أهلها دار حبس عليها حبس نفيس وغلمان برسم تيك الدار بأحسن العدة وأكمل الآلة، يقوم بهم الحبس الذي عليهم، وكان أكثر ذلك لأهل بغداد، فإنه كان لهم بها ولغيرهم من وجوه أهل البلدان وذوي اليسار منهم جلة الغلمان، مقيمين عليهم الوقوف السنية، والأرزاق الدارة، ليس لهم عمل إلا ارتباط فرهة الخيل وتخريجها في الطراد والعمل عليها بسائر السلاح، يعملون ذلك في صدور أيامهم، ويتصرفون في أعجازها الى منازل فياحة فيها البساتين والمياه الجارية والعيش الرغد.

وكان أهل البلد في نفوسهم على هذه الصفة من ركوب الخيل والعمل بالسلاح ليس فيهم من يعجز عن ذلك، ولا يتخلف عنه حتى أن دور المتاجر الدنية والصنائع الوضيعة كانوا يلحقون بالطبقة العليا في الفروسية والشجاعة وارتباط الخيل، وإعداد السلاح، وكانت غزواتهم تتصل ومن الغنائم والمقاسم لهم معيشة لا تنقطع".

ثم قال " ذكر كيفية النفير بطرسوس، وكيف كان يجري أمره:

قرأت بخط أبي عمرو القاضي في كتابه قال: يركب المتولي لعمل الحسبة أي وقت وقع النفير من ليل أو نهار، ورجالته بين يديه ينادون بأعلى أصواتهم أجمع، صوتا واحدا، يقولون: النفير يا أصحاب الخيل والرجالة، النفير حملكم الله إلى باب الجهاد؛ وإن أراد إلى باب قلميه أو إلى باب الصاف أو إلى أي باب اتفق، وتغلق سائر أبواب المدينة، وتحصل مفاتيحها عند صاحب الشرطة، فلا تزال مغلقة حتى يعود السلطان من النفير، ويستقر في داره ثم تفتح الأبواب المغلقة كلها.

ويطوف المحتسب ورجالته الشوارع الجداد كلها، فإن كان ذلك نهارا انضاف إلى رجالته عدد كثير من الصبيان، وساعدوهم على النداء بالنفير، وربما احتاجوا إلى حشد الناس لشدة الأمر وصعوبة الحال، فأمر أهل الأسواق بالنفير وحضهم على المسير في أثر الأمير أين أخذ وكيف سار، ويكون مركز صاحب الشرطة إذا وقع النفير مع رجالته الموسومين به عند الباب الأول الذي يلي المدينة الذي يخرج منه الناس إلى النفير، وكذلك المحتسب، إلا أن المحتسب يتردد في الأسواق إذا طال أمر النفير، وتأخر خبره، ويبعث على اللحوق بمن سار مع الأمير وبمن توجه إلى النفير، فلا يزال الأمر على هذا حتى يعود السلطان إلى دار الإمارة.

ويخرج إلى النفير قواد الرجالة، معروفون متى عقد السلطان لقائد من الفرسان فبعثه للقاء من ورد من ذلك الوجه أضاف إليه قائدا من قواد الرجالة، وأتبعه من أجلاد الرجالة أهل القوة والنشاط والنية من المطوعة المسجدية، حتى إذا نزلوا أول منزل، تبتل شيخ، بل شيوخ من الصلحاء معروفون بحفظ من هناك من الغلمان المرموقين بالصباحة والوضاءة، فتنضاف طبقة طبقة إلى ذي معرفتهم وثقتهم وحصلوا تحت علمه ورايته، فلو هم أحدهم بالوضوء لصلاة لما أفرج عنه إلا برقيب ثقة أمين شيخ معروف، يمضي معه لحاجته، حتى إذا فرغ منها عاد إلى جملته.

وقد رأينا في آخر أيام طرسوس رجلا يعرف برؤبة يجتمع إليه الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم، يزيد عددهم على ألف صبي كلهم بالسلاح الذي يمكن مثله حمل مثله، وبمزاودهم وقد أعدوا فيها من صنوف أطعمة أمثالهم يطوف جميعهم بمطرد يحمله رؤبة، يسيرون بسيرة ويقفون بوقوفه، فلا يزال ذلك دأبهم حتى إذا عاد السلطان إلى مقر داره عند رجوعه من نفيره، دخل أولئك الصبيان أمامه على مراتبهم، يصفهم قائدهم الأمثل فالأمثل، رماتهم عن قسي الرجل التي قد عملت على مقاديرهم، ثم رماتهم عن القسي الفارسية، وربما كان فيه من أولاد اليمانية من يحمل القسي العربية بنبلها، فيدخلون فوجا فوجا صبيين صبيين، ثم من يحسن الثقاف، فيثاقف قرينه ومثله وخدينه وشكله حتى يدخل كل صنف منهم في مرتبته، ثم يتلوهم رؤبة قائدهم بمطرده وعلامته، حتى إذا خرج أحد أولئك الصبيان من حد الطفولة، واشتد عضده، وقارب حد البلوغ، أو بلغ، أو تجاوز البلوغ قليلا، انضاف إلى قائد من قواد الرجالة الذين ذكرت، وصحبه في نفيره وغزوه، وارتاد لنفسه الرفاق بحسب ما يختار تربه وجاره وقرينه، فإذا التحى، وخرج عن حد المرد دخل في جمهور الناس، حاذقا بما يحتاج إليه، ماهرا بصيرا بأمر جهاده وتدبير أمره، نافذا يقظا إن شاء الله.

وقع إلي قصيدة الأعلام، وهي أرجوزة نظمها أبو عمرو القاسم بن أبي داود الطرسوسي يذكر فيها رحلته من طرسوس، ويتشوقها، ويصف أوضاع المجاهدين فيها، وقد شرحنا في ترجمته من كتابنا هذا صورة القصيدة، قال فيها في وصف طرسوس:

يــذكر قــومي عــنهم ارتحــالي	وتــــرك داري جانبــــا ومــــالي
تركــي سجســتان مــن المعــالي	مــــالي ودار للغـــــواة مــــالي
لبــئس مــا بــدلتها مــرارا	زرنــج مــن طرســوس لا مختــارا
طرسـوس أرض الفضــل والجهـاد	ومنتهــــى الرغبــــة للعبــــاد
تيــك بــلادي وبهــا تــلادي	ومــا لفــي ومعــدن الرشــاد
ســكانها أهــل الــبلاء والجلــد	غلامهـم لـدى الحـروب كالأسـد
وكهلهــم في المعضــلات معتمــد	وشـيخهم لكــل خـير مسـتند
أهــل فضــيلات وأهــل سـنة	للعــــائفين والغريــــب جنــــة
حــب النــبي فــيهم مــا إنــه	هــــداهم الله طريــــق الجنــــة
قـد دوخـوا بالضـرب في الحقـائق	بكــل قطــاع مــن البــوارق

هـام العـدى والـوخز بالمـزارق والطعـن بالخطـي في الحمـالق
بالسـمهريات مـن الرمـاح يختطفـون شـكة الأرواح
وفي الـدجى يسـرون للتصـباح سـرية في الـروم لاجتيـاح
وللثـواب والغـنى والـريش يرجـون خلـدا في لذيـذ العـيش
ليسـوا بأطيـاش غـداة الهـيش إذا اغتـدوا كـانوا أمـام الجـيش
تـراهم صـبيحة المغـار كالأسـد في أشـبالها الضـواري
علـى الجيـاد العـرب والشـهاري كأنهـا العقبـان في الـبراري
من كل طرف مارح لدى العمل أغـر كالبـدر تـدلى مـا أفـل
محجـل أرجلـه جـم الكفـل مـا هـاب يومـا في الـوغى لمـح
فهـم يحلـون بهـا الـديارا الأسـل
ويسـتبون الخـرد الأبكـارا ويقتلـون عنـدها الكفـار
قـد صـفدوا في السـير في وثاق ويحتـوون المـال والأسـارى
لخشـية الفـرار والإباق وضـمت الأيـدي إلى التراقـي
يسـقن كالأغنـام في الشـغاف وتلكـم الجـوار في اسـتباق
حـوز الرعـاة الشـاء في الفيـافي يحـزن بالرمـاح والقـذاف
يمنعهـا مـن مشـيها سـحج الربـل كـم فـيهم مـن ظبيـة ذلاف
وأنهـا ذات دلال وخجـل وثقـل ردف مائـل لهـا عـدل
والقـس لـو أبصـرها لمـا صـبر لـو حسـها الراهـب يومـا لنـزل
تبكـي بعـين ذات غـنج وحـور وقبـل الـرجلين منهـا واعتـذر
أبـيض يعلـوه كلـون الخمـر وتلطـم الوجـه المنـير كـالقمر
باللكـم والخمـش ونتـف الشـعر نعـم وفي الصـدر الوضـيء تفـري
وكـل مـا يبـدو لهـا ملـيح من حالك قد حل عند الخصر
دع ذكرهـا فـذكرها قبـيح إذا احتواهـا المـرد يسـتريح
علـى الفـتى وخـذ بمـا تبـوح

ذكر زهاد طرسوس:

بهـا رجـال بعضـهم مـن بعـض — في الله قـاموا بحقـوق الفـرض

فيهـا يعيشـون بكـل خفـض — يحبـوهم ببركـات الأرض

يبـدون مـن يلقـون بالتسـليم — يعفـون عـن ذي القـدرة الظلـوم

نهـارهم صـوم بـلا تعتـيم — ولـيلهم عبـادة القيـوم

فتـارة يبكـون شـجوا دررا — خـوف الحسـاب والخطـايا حـذرا

وتارة يعتـبرون السـورا — مسـتغفرين علـه قـد غفـرا

وتارة يغـزون أرض الـروم — يرجـون قـتلا في هـوى الكـريم

يا ليتـني في الارض كـالرميم — عنـدهم فقصـري أو لـومي

هذا كان حال مدينة طرسوس والشرائع محفوظة، وأمور الجهاد ملحوظة، وأحوال البدع مرفوضة، والجفون عن الحرمات مغضوضة، فحين فسدت الأمور، وارتكبت الفجور، وقلت الخيرات، واشتغل أهل الجهاد باللذات، طمع العدو، ومنعه طلب الثأر الهدو، فقصد البلاد، وأكثر الأمداد، وهجم حلب وفتح أنطاكية، وقتل الأبطال، وسبى الذرية، ثم استولى على الديار، وقصد طرسوس، وألح عليها بالحصار، فجرى في أمرها العظيم ما ذكره عثمان بن عبد الله بن إبراهيم في مقدمة كتابه الموسوم بسير الثغور، ونقلته من خطه مع ما نقلته من حوادث الأمور.

قال بعد أن حمد الله على نعمه التي تظاهرت فما تحصى، وأياديه التي ترادفت فما تستقصى: نفذت سوابق أقضيته في عالم من بريته أسكنهم حينا من الدهر ثغرا بأطراف الشام، نوه به وبهم في معالم الإسلام، متعهم فيه مدة من المدد، وأعزه وأعزهم إلى غاية من الأمد، ظاهرين على أعدائهم، مظفرين في قلوب إخوانهم المسلمين، معظمين مبجلين، ضاقت بهم أرض الروم، ترأى نيرانهم، وتكافح فرسانهم، إن دنوا منهم هلكوا، وإن أمعنوا الهرب عنهم أدركوا، لا تحرزهم أرضهم وان اتسعت، ولا تحميهم معاقلهم وان امتنعت، تغزى بنودهم، وتهزم حشودهم، وتفل جنودهم، وتستباح حريمهم، ويستأصل كريمهم، وتروح أفنيتهم، وتهدم أبنيتهم، وتشن الغارات فيهم، زيادة على مائتي سنة، حتى نبغ من نقفور بن خاردس الفقاس من صمد نحوهم وعندهم، وأناخ بهم وقصدهم، وأجمع على استئصالهم واجتياحهم، وبوارهم، فغزاهم عاما بعد عام، ونازلهم في عقر ديارهم، يدوخ أطرافهم، ويسوق عواملهم، ويتردد إلى زروعهم أوان استحصادهم فيجتثها ويأتي

عليها، وتتوالى لأجل ذلك سنوات الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وضيق الأسعار، وتأخر المبر والامداد، وفناء الحماة من الرجال الكماة، وتلاشي الشجعان والفرسان، وانحلال الأحوال، واختلال الأبطال، وحلول الداء الذي لا دواء له، والعلة التي لا يرجى برؤها، وهو نبو السلاطين حينئذ عن نصرتهم، وتثاقلهم عن إجابة مستصرخهم، وتخلفهم حين دهمهم ما دهمهم عن معونتهم.

فالنائب بمصر وما ينسب إليها برا وبحرا من أقاصي الصعيد إلى حدود جوسيه راض بمدافعة الأيام وسلامة الشهور والأعوام من صولة ملك الغرب ومدبره، والرائب المشار إليه بأرض العراق وما يجري مجراها إلى حدود بحر الصين وباب الأبواب، يتشاغل بأساورة ديلمان وجيلان، وملك خراسان في كف غربه كما قال المساور بن هند العبسي:

وتشعبوا شعبا فكل جزيرة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

فحاق لذلك بأهل الثغر- جدده الله- من قراع الروم- وقمهم الله- على وفور عددهم وقوة عددهم، ووفاق أجناس الكفرة إياهم ما ثقل حده وعظم مرده، وامتنع مسده، بما وصفنا من خلف سلاطين الإسلام وأمرائه، وتفاوت كل منهم في شتات آرائه، وما خامر أفئدتهم من الوهل وران على قلوبهم من الرعب والوجل كما سبق لهم في علم الله العزيز وإرادته ألا يجعل لهم حظا في الآخرة.

فقد حدثني أبو العباس مُحَمَّد بن نصر بن مكرم، أحد عدول بغداد، في درب الريحان، أن أحمد بن بويه رحمه الله جلس بمكان أرانيه بباب داره المعزية، يعرض خيله متنزها بالنظر إليها، فقيد بين يديه من دار الدواب إلى ذلك المكان في مدة أربعة عشر يوما متصلة اثنا عشر ألف فرس، أغلاها ثمنا بمائة ألف درهم، وأدناها ثمنا بعشرة آلاف درهم، لم يطرح قط على فرس منها سرج في سبيل الله ولا في غير سبيل الله.

وحدثني أيضا كهل من أهل أذنه يعرف بابن الشعراني وقد سألته ببغداد عن منصرفه، فوصف إشرافا على قضيم حمير برسم فنا خسرو بن الحسن بن بويه رحمه الله عددها ستة آلاف حمار، قد رتبها لخدمة الكراع ينقل لها القصيل في حينه، والقضيم والعلوفات في سائر الاوقات، وسألته عن عدد هذا الكراع الذي قد رتبت هذه الحمير لخدمته، فذكر أن المشرف على قضيم جميع الكراع يستوفي كل ليلة قضيما لثمانين ألف رأس، من ذلك ثلاثون ألف جمل، وأربعة وعشرون ألف بغل وعشرون ألف فرس وستة آلاف حمار.

فهذان رجلان من أمراء الاسلام وصفنا ظاهر نعم الله عليهما، والجهاد معطل والثغر يباب لا أنيس به خاو من القرآن، خال من الأذان.

مـدارس آيات خلـت مـن تـلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

فمن قتيل أو جريح، وعفير من أهلها طريح، وهارب طامح، ومتحيز الى وطن نازح، ومفتون في دينه، ومغلوب على ملك يمينه، قد استبيحت منازلهم بجميع ما كانت تحويه الا ما نقله السائر عنها على ظهره بحسب قوته إن كان ذا طاقة لشيء من حمله، أو على ذي أربعة ان كان واحدا له أو أعوانه ان وجد عونا، فلكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، لا يعرج على سواه ولا يعود بعد الى مثواه بذلك سبق فيهم علم الله المكنون الغامض المصون ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾.

وقرأت بخط أبي عمرو في كتابه: وجرى من اعتياد الروم طرسوس ما اقتضت الصورة إخراج وفد الى مصر والعراق يستصرخون ويطلبون المدد، ورسم أبو الحسن ابن الفياض بوفادة مصر، ووفد أبو بكر الاصبهاني الاسكاف، وأبو علي ابن الأصبهاني خليفة القاضي العباس بن أحمد الخواتيمي على طرسوس الى بغداد، فندب للخطبة أبو صالح عبد الغفار بن الحراني الوراق عوضا منه فقام مقامه، وأقام أبو صالح عند خروج الناس بطرسوس لعلة منعته من الحركة بها توفي، وما زال أبو صالح يخطب مدة أيام منازلة نقفور إيانا، فلما انتهينا الى الأيام التي وادعناه فيها للخروج عن طرسوس اعتل أبو صالح علة حالت بينه وبين الصلاة، واحتاج الناس في آخر جمعة جمعوها بطرسوس إلى خطيب فسئل أبو الحسن بن الفياض الصلاة، وقد كان عاد من مصر معذرا لم ينل في الوفادة ما تمنى من أرسله لها، فأبى، وقال: ما أحب أن أكون آخر خطيب خطب بطرسوس، وحضرت الصلاة فصلى بالناس يومئذ أبو ذر، رجل من أبناء طرسوس، شيخ من أهل العلم كان سافر وغاب عن طرسوس عدة سنين، وعاد الينا في تلك الأيام، فهو آخر من خطب على منبر طرسوس يوم الجمعة العاشر من شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، لأن خروج الناس كان عنها في يوم الاربعاء النصف من هذا الشهر في هذه السنة، وأقام المؤذنون في ذلك اليوم وأخذوا في الأذان، فسهوا فأقاموا، فرد عليهم فأذنوا، وقام أبو ذر فخطب، فلما أتى الدعاء للسلطان خطب للمعتضد، ورد عليه، فتمم خطبته ونزل، فأقيمت الصلاة وكبر وقرأ في الركعة الاولى بفاتحة كتاب، وسورة والشمس وضحاها، وفي الركعة الثانية بسورة الحمد وسورة إذا زلزلت الأرض زلزالها.

فلما سلم قام أبو عبد الله الحسين بن مُحَمَّد الخواص قائما في قبلة المسجد، واستقبل الناس بوجهه وقال: يا معشر أهل طرسوس أقول فاسمعوا: هذا المقام الذي كان يتلى فيه كتاب الله العظيم، هذا المقام الذي كانت تعقد فيه المغازي الى الروم، هذا المقام الذي كان يصدر عنه أمر الثغور، هذا المقام الذي كانت تصلى فيه الجمع والأعياد، هذا المقام الذي يأوي إليه الملهوف بالدعوات، هذا المقام الذي يزدحم عليه أهل الستر والسداد، هذا المقام الذي كان يفد الى الله فيه الوافدون، هذا المقام الذي كان يعتكف فيه العابدون الزاهدون، وما يجرى مجرى هذا الكلام.

وقرأت في تاريخ أبي غالب همام بن الفضل المعري أن نقفور لما صالح أهل طرسوس، وخرجوا منها وتسلمها صعد على منبرها وقال: يا معشر الروم أين أنا؟ قالوا: على منبر طرسوس، فقال: لا بل أنا على منبر بيت المقدس، وهذه البلدة التي كانت تمنعكم من بيت المقدس.

وقرأت بخطه أيضا: حدثني مُحَمَّد بن أحمد أبو نصر بن الحمال قال: سمعت أحمد بن مضر؛ وهو أبو أبي العباس بن مضر مُحَمَّد بن أحمد يقول: كنا نسمع شيوخ الثغر قديما يقولون: لم يسكن طرسوس فيما مضى من الدهر والأزمنة في الكفر والاسلام الا أوطاء أهل زمانهم حتى أن قوما من اليونانية سكنوها، فكانوا أهل سداد وصلاح.

ونقلت من خطه: حدثنا أبو بكر مُحَمَّد بن سعيد بن الشفق البغدادي بطرسوس سنة خمس وأربعين وثلاثمائه قال: حدثنا أبو الطيب مُحَمَّد بن أحمد البغدادي بطرسوس سنة إحدى وتسعين ومائتين قال: حدثنا أبو الفضل جعفر بن مُحَمَّد بن نوح قال: سمعت مُحَمَّد بن عيسى قال: جاء رجل إلى ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن أريد أن أسكن الثغر، قال: اسكن أنطاكية، قال: أريد أن أتقدم، قال: أذنه، قال: أريد أن أتقدم، قال: أتريد أن تكون في الطلائع فعليك بطرسوس" انتهى.

***

حكم الرباط

حكم الرباط هو من فروض الكفايات التي إذا قام بها من يكفي سقط الإثم عن الباقين، وكان في حقهم مستحبا.

قال في البحر الرائق (77/5) " (قوله: فإن قام به قوم سقط عن الكل وإلا أثموا بتركه) بيان لحكم فرض الكفاية، وفي الولوالجية ولا ينبغي أن يخلو ثغر المسلمين ممن يقاوم الأعداء، فإن ضعف أهل الثغر من المقاومة وخيف عليهم فعلى من وراءهم من المسلمين أن يعينوهم بأنفسهم، والسلاح، والكراع ليكون الجهاد قائما، والدعاء إلى الإسلام دائما" انتهى.

وجاء في حاشية ابن عابدين (124/4) " ولا ينبغي للإمام أن يخلي ثغرا من الثغور من جماعة من المسلمين فيهم غناء وكفاية، لقتال العدو فإن قاموا به سقط عن الباقين، وإن ضعف أهل ثغر عن مقاومة الكفرة وخيف عليهم من العدو، فعلى من وراءهم من المسلمين الأقرب فالأقرب أن ينفروا إليهم، وأن يمدوهم بالسلاح والكراع والمال لما ذكرنا إنه فرض على الناس كلهم ممن هو من أهل الجهاد، ولكن سقط الفرض عنهم لحصول الكفاية بالبعض فما لم يحصل لا يسقط اهـ.

قلت: وحاصله أن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو " انتهى.

وفي كفاية الطالب الرباني (حاشية العدوي 406/2) " (والرباط) وهو الإقامة (في ثغور) أي الفرج التي تكون بين (المسلمين) والكفار (وسدها وحياطتها) أي حفظها (واجب) وجوب فرض الكفاية (يحمله من قام به) عن بقية المسلمين" انتهى.

وقد جاء في كلام بعض الفقهاء أن حكم الرباط هو السنية والاستحباب كقوله في نيل المآرب شرح دليل الطالب (321/1) " [حكم الرباط]:

(ويسن الرباط) في سبيل الله تعالى، (وهو لزوم الثَّغْر) والثغرُ كل مكان يخيفُ أهله العدو أو يخيفهم (للجهاد)."

وفي المحرر في الفقه للمجد ابن تيمية (170/2) " ويستحب الرباط بالثغور ولو ساعة" انتهى.

وتفسير هذا الكلام على ما ذكرنا في حال قامت الكفاية أما ما لم تقم الكفاية فإنه يتعين كما جاء في حاشية الخلوتي على منتهى الارادات (460/2) " قوله: (وسُن رباط)؛ أيْ: مع قيام من يكفي، وإلا فهو فرض كفاية كالجهاد، ولذلك اختلف في الأفضل منهما " انتهى.

ويفصل الماوردي في الحاوي الكبير (139/14) في تفصيل إقامة هذا الفرض الكفائي للثغور فيقول " (مسألة): قال الشافعي: " وأقل ما على الإمام أن لا يأتي عام إلا وله فيه غزو بنفسه أو بسراياه على حسن النظر للمسلمين حتى لا يكون الجهاد معطلا في عام إلا من عذر ".

قال الماوردي: وهذا صحيح، أن على الإمام بعد تحصين الثغور، بما قدمناه شيئان:

أحدهما: مراعاة كل ثغر في مقاومة من بإزائهم من الأعداء فإنهم لا يخلون من ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يكونوا أكفاءهم في المقاومة والمطاولة، فيقرهم على حالهم، فلا يمدهم ولا يستمدهم.

والحال الثانية: أن يكونوا أقل من أكفاء عدوهم، فليس له أن يستمدهم وعليه أن يمدهم بمن يصيروا معه أكفاء أعدائهم، إن طلبهم العدو امتنعوا منه وإن طلبوا العدو وقدروا عليه، وهذا هو الحد المقصود في تدبيرهم.

والحال الثالثة: أن يكونوا أكثر من أكفاء، عدوهم، فليس عليه أن يمدهم وله أن يستمدهم إذا احتاج، ولهم حالتان:

إحداهما: أن لا يحتملهم الثغر لكثرتهم فعليه أن ينقلهم إلى غيره.

والحال الثانية: أن يحتملهم الثغر فيقرهم فيه عدة لحاجته إليهم، ويفعل ذلك في كل عام، لأن أمور الثغور قد تنتقل من قوة إلى ضعف ومن ضعف إلى قوة ليكونوا أبدا قادرين على الامتناع والطلب." انتهى.

***

نذر الرباط

جاء في كفاية الطالب الرباني (حاشية العدوي 37/2) لأبي الحسن المالكي" (ومن نذر رباطا بموضع من الثغور) ولو كان من أهل مكة والمدينة (فذلك) المنذور واجب (عليه أن يأتيه) ؛ لأن الرباط قربة، ومن التزم قربة لزمته بلا خلاف والله أعلم" انتهى.

***

فضل الرباط في سبيل الله

جاء الأمر بالرباط في كتاب الله تعالى فقال سبحانه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

فأمر الله تعالى عباده في نهاية سورة آل عمران – التي نزلت في أعقاب غزوة أحد وما حدث فيها من إصابة الأعداء للمسلمين – بالصبر والمصابرة والمرابطة، فبدأ بالأعم ثم الأخص ثم الأخص فالمعنى الأعم هو الصبر ثم أخص من الصبر هو المصابرة وهو مصابرة العدو ومغالبته في الصبر، لأن وزن مفاعلة يقتضي فعل متبادل من طرفين، فكل مصابر للعدو فهو صابر، وليس كل صابر يكون مصابرا، ثم الأخص وهو المرابطة فكل مرابط فهو مصابر للعدو وصابر، وليس كل مصابر للعدو يكون مرابطا، فالمرابطة أيضا وزنها يقتضي طرفين، جاء في التفسير المظهري (207/2) " والمرابطة المغالبة في الرباط على من عداه يعنى أن الأعداء يربطون لمحاربتكم فأنتم غالبوهم في ذلك" انتهى.

ويقول موفق الدين ابن قدامة المقدسي في المغني (204/9): "وفضله عظيم وأجره كبير" انتهى.

قال ابن النحاس في المشارع (319/1) " واعلم أن الرباط أحد شعب الإيمان، وموجبات الغفران، وقد ورد في فضله أشياء عظيمة لم ترد في غيره من القربات" انتهى.

وله فضائل كثيرة وعظيمة منها:

الأولى: أن رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها:

عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**» رواه البخاري (2892).

والمراد بـ «**رباط يوم**» أي ثواب رباط يوم كما ذكره المناوي، والمقصود أن الثواب الحاصل برباط يوم خير من أن تحصل الدنيا جميعا بلذاتها وزهرتها وجميع ما فيها لشخص.

الثانية: أن المرابط يجري عليه عمله بعد موته ولا ينتهي أجره إلى يوم القيامة:

فالمرابط حين يموت يستمر أجره ولا ينقطع، وذلك يشمل أجر رباطه وكذلك أجر كل عمله الصالح الذي كان يعمله من صلاة وصيام وصدقة وغير ذلك، فكل يوم ترفع إليه أجور الأعمال التي كان يعملها إلى يوم القيامة.

فعن فضالة بن عبيد ﵁ أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال «**كل الميت يختم على عمله إلا المرابط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتان القبر**» رواه أبو داود (2500) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ورواه الحاكم (2417) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وعن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: «**من مات مرابطا في سبيل الله أجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع**» رواه ابن ماجه (2767) بإسناد صحيح كما قال المنذري في الترغيب (1902) وابن النحاس في المشارع (326/1) والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (157/1).

وعند الطبراني في الكبير (184) بسند لا بأس به - كما قال المنذري في الترغيب (135/1) والسخاوي - عن واثلة بن الأسقع ﵁ عن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال: «**من سن سنة حسنة فله أجرها ما عمل به في حياته وبعد مماته حتى يترك، ومن سن سنة سيئة فعليه إثمها حتى يترك، ومن مات مرابطا في سبيل الله جرى له أجر المرابط حتى يبعث يوم القيامة**» وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (135/1) حسن صحيح.

وأخرج الطبراني في الكبير (641) عن العرباض بن سارية ﵁ قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: «**كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمى له عمله ويجرى عليه رزقه إلى يوم القيامة**».

قال القرطبي في تفسيره (325/4) على حديث أبي هريرة وحديث فضالة رضي الله عنهما " وفي هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت، كما جاء في حديث أبي هريرة «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»

رواه مسلم، فإن الصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والولد الصالح الذي يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد، والرباط يضاعف أجره إلى يوم القيامة، لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة وهي غير موقوفة على سبب، فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة، وهذا لأن أعمال البر كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو، والتحرز منهم بحراسة بيضة الدين، وإقامة شعائر الإسلام " انتهى كلامه.

قال ابن النحاس في المشارع (321/1) " ومنها: أن كل ميت إذا مات ينقطع عمله إلا المرابط إذا مات في رباطه، فإنه يجري عليه أجر عمله الصالح من الرباط وغيره إلى يوم القيامة " انتهى.

وقال السيوطي في شرح مسلم (507/4) " قال القرطبي: يعني في حال الرباط جرى عليه عمله الذي كان يعمله في حال رباطه وأجر رباطه، قال النووي: وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد " انتهى.

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: «ليس من رجل يخرج نفسه إلا رأى منزله قبل أن يخرج نفسه غير المرابط يجري عليه أجره أو قال رزقه ما كان مرابطا» رواه ابن المبارك في الجهاد (178).

قال ابن النحاس في المشارع على هذا الأثر (325/1) " وهو معنى الأحاديث المرفوعة، فإن الميت ينتهي عمله ويختم عليه مع آخر نفس منه فيرى منزلته التي استوجبها بجملة عمله الذي صدر منه في مدة حياته، والمرابط لا يرى منزلته عند الله تعالى، لأنه لا ينتهي عمله بانتهاء حياته بل أجره يتضاعف ويتزايد بعد موته إلى يوم القيامة، ولا يعلم أحد ما ينتهي إليه أجره، وتبلغه منزلته إلا الله سبحانه، ولكن يرى عند الموت ما يستبشر به ويسر، ويرى منزلته وهي في عروج وصعود أبدا لا تبلغ منتهاها إلى يوم القيامة، جل من لا يحصى فضله " انتهى.

وهذا الفضل الذي ثبت للمرابط هو أيضا يحوي ميزة أخرى وفضيلة أخرى، وهو أن الأجر الذي يجري عليه من عمله الصالح يتضاعف ويتزايد، ولا يجري له نفس أجره فقط، والدليل عليه قوله في حديث فضالة بن عبيد السابق «فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة» فإن النماء يفيد الزيادة والمضاعفة، ولهذا قال القرطبي في تفسيره (325/4) " والرباط يضاعف أجره إلى يوم القيامة، لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة، وهي غير

موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة وهذا لان أعمال البر كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منه بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الاسلام وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الاعمال الصالحة " انتهى.

وقد مضى في كلام ابن النحاس السابق قوله عن المرابط " بل أجره يتضاعف ويتزايد بعد موته إلى يوم القيامة ولا يعلم أحد ما ينتهي إليه أجره، وتبلغه منزلته إلا الله سبحانه " انتهى.

وهنا لفتة أود أن أتطرق إليها، وهو أنه أخبرني أحد الإخوة عن بعض الإخوة الذين استشهدوا أنه كان يدعو الله تعالى بأن يرزقه الشهادة عاجلا غير آجل، فإذا قيل له بعد عمر في طاعة الله، قال: لا، لأني مرابط، والمرابط يجري عليه عمله بعد موته، فسواء بقيت أم قتلت فالأجر جار كما هو، فقلت: إن هذا الرجل نبيه، تنبه لأمر مهم في الرباط، ولكنه لم يتنبه لأمر وهو أن الأعمال التي يؤجر عليها في رباطه لو مات هي الأعمال التي كان يداوم عليها، ومات عليها، أما الأعمال الطارئة التي لا يداوم عليها، فلا يجري له أجرها، مثال ذلك لو كان يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم ساعة كل ليلة ويصلي الضحى ويداوم على ذلك، فإنه يؤجر عليه ويستمر أجره له، لكن العمليات الجهادية والغزوات الطارئة، فتلك ليست من العمل الذي يداوم عليه، بل هي بحسب الظروف والفرص، وأيضا بحسب حال الشخص، والدليل على أن ما يجري عليه من عمله هو ما يداوم عليه أن لفظ الحديث فيه «**وأجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل**» ولفظ " **كان** " يفيد الدوام والاستمرارية، قال ابن دقيق العيد في إحكام الإحكام (266/1) " قلت: لفظة كان ظاهرة في الدوام والأكثرية " انتهى.

وأيضا أجور الابتلاءات التي تصيب العبد في جهاده ورباطه هذه لا يكتب له منها إلا ما يصيبه، ولا يكتب أجره إلى يوم القيامة، بل بحسب المصائب التي تصيبه، فإنها ليست دائمة للعبد، بل طارئة.

وعلى ذلك فينبغي للأخ المرابط أن يستزيد من الأعمال الصالحة قدر الإمكان حتى تمشي له تلك الأجور العظيمة إلى يوم القيامة، وأن يصبر على ذلك خصوصا مع قرب الأجل بالنسبة للعبد المجاهد بكونه في مظنة الموت، فيصبر على عمل تلك الأعمال والمحافظة عليها، فما هي إلا أيام قلائل ثم يفضي إلى الله تعالى، فمثلا إذا كان لا يقوم الليل فعليه بالقيام، وإذا كان يقوم ساعة فعليه بالزيادة، وكذا يصوم يوما ويفطر يوما، وكذا يجعل له أوراد يومية من الأذكار يستمر عليها، وكذا صلاة الضحى والسنن وغير ذلك،

فيحافظ على هذه الأعمال حتى تجري عليه أجورها وهو في البرزخ إلى يوم القيامة، فأن يموت المرابط وهو يجري عليه أجر قيام الليل وأجر الأذكار وأجر الضحى وأجر كذا وكذا...إلى آخره أعظم درجة عند الله عز وجل من أن يموت بدون ذلك، فالعمل الذي سيجري عليك في برزخك أيها العبد المرابط أنت الذي ستختاره بنفسك، فمستقل ومستكثر.

الثالثة: أن المرابط يؤمن من فتنة القبر:

والمقصود من فتنة القبر هو سؤال الملكين للعبد من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فالمرابط آمن من تلك الفتنة والامتحان.

عن سلمان ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتان**» رواه مسلم (1913).

والفتان هنا المراد به فتنة القبر، ولهذا قال في رواية أبي داود السابقة «**ويؤمن من فتان القبر**».

قال السيوطي في شرح الصدور (151) " وقال الحكيم الترمذي في توجيه حديث المرابط إنه قد ربط نفسه وسجنها وصيرها حبيسا لله في سبيله لمحاربة أعدائه، فإذا مات على هذا فقد ظهر صدق ما في ضميره، فوقي فتنة القبر" انتهى.

الرابعة: أن المرابط يجري عليه رزقه من الجنة:

فكما يرزق الشهيد كذا يرزق المرابط في حياة البرزخ، وقد سبق في حديث سلمان «**وأجري عليه رزقه**».

قال القرطبي في المفهم (383/5) " وقوله: «**وأجري عليه رزقه**» يعني به – والله تعالى أعلم-: أنه يرزق في الجنة كما يرزق الشهداء ؛ الذين تكون أرواحهم في حواصل الطير، تأكل من ثمر الجنة، كما تقدَّم في الشهيد " انتهى.

قال القاري في المرقاة (2458/6) ناقلا عن الطيبي قوله "ولما كان قوله «**وأجرى عليه رزقه**» تلميحا إلى قوله تعالى ﴿**يُرْزَقُونَ**﴾ أجرى مجراه في البناء للمفعول " انتهى.

الخامسة: أن المرابط يأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة:

فيأمن من أهوال يوم القيامة والأحداث والمخاوف هناك، وقد مضى في حديث أبي هريرة «**وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع**».

وهذا فضل عظيم يعرفه من علم أهوال يوم القيامة وأفزاعها.

السادسة: أن رباط يوم في سبيل الله خير وأفضل من صيام شهر وقيامه في الأجر:

عن سلمان ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه**» رواه مسلم (1913).

وهذا فضل عظيم يدل على مضاعفة أجر الرباط على غيره من الأجور، وعلى أفضلية عمل الرباط على غيره من الأعمال، ولاحظ أنه قال في الحديث «**خير من صيام شهر وقيامه**» ولم يقل يعدل، فهذا يعني أن أجر رباط يوم أفضل من أجر صيام شهر وقيام، ولا يساويه، وعلى ذلك فأجر رباط شهر أفضل من صيام 900 يوم وقيامها أي قريبا من ثلاث سنوات بالعملية الحسابية، فكيف بمن رابط سنة أو سنوات كم يضاعف له من الأجر؟

وقد جاء عن أبي الدرداء ﷺ عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: «**رباط شهر خير من صيام دهر، ومن مات مرابطا في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر، وغدي عليه برزقه وريح من الجنة، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله عز وجل**» رواه الطبراني وقال المنذري في الترغيب (155/1) والهيثمي في المجمع (290/5): ورجاله ثقات، وصححه والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (66/2).

فإن كونه خير من صيام دهر يعني أنه أفضل من صيام دهر، وهذا لا يعارض أنه أفضل من صيام وقيام ثلاث سنوات تقريبا كما قدمنا، فالدهر هنا عام لم يتم تعيينه، قال الصنعاني في التنوير (222/6) " لم يعينه – صلى الله عليه واله وسلم – فيحتمل أن يقاس على رباط يوم وليلة خير من صيام شهر فيراد به ثلاثون شهراً" انتهى.

السابعة: أن رباط يوم في سبيل الله أفضل من ألف يوم فيما سواه من المنازل:

عن أبي صالح مولى عثمان بن عفان، قال: سمعت عثمان يقول على المنبر: أيها الناس، إني كتمتكم حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، كراهية تفرقكم عني، ثم بدا لي أن أحدثكموه ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**» رواه الإمام أحمد (470) والترمذي – وحسنه – (1667) والنسائي (3169)، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه على المسند (513/1)، والألباني في صحيح النسائي (240/7).

والمقصود بالمنازل أي منازل القرب لله تعالى، وقد جاء في رواية ابن ابي عاصم في الجهاد (299) من طريق ابن لهيعة على ضعفه «**رباط يوم في سبيل الله أفضل من ألف يوم فيما سواه من القربى، فليرابط امرؤ كيف شاء**».

فالمراد أن ألف يوم من أيام العابدين والمتقربين بالقرب لا تساوى يوما من أيام المرابط.

وقال البيهقي في الشعب (97/6) "القصد من هذه الأخبار والله أعلم: بيان تضعيف أجر الغزو على غيره، وذلك يختلف باختلاف الناس في نياتهم وإخلاصهم، ويختلف باختلاف الأوقات وموقع الجهاد في وقته" انتهى.

قال الصنعاني في التنوير (221/6) "«**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه**» في الأجر لا ينافيه من أنه خير من الدنيا وما عليها ومن أنه خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل لاحتمال اختلاف الزمان والعمل والعامل" انتهى.

قال الصنعاني في التنوير (222/6) "«**رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه**» أي من عبادة ألف يوم، «**من المنازل**» فيه أن حسنة الجهاد الرباط بألف حسنة" انتهى.

وذكر الحافظ في الفتح (86/6) عن ابن بزيزة من أوجه الجمع بين الحديثين أن يحمل حديث عثمان على زيادة الثواب يعني كأنه قال أنه أفضل أجر صيام شهر وقيامه ثم زاد الله تعالى في الفضل حتى بلغ أنه أفضل من الف يوم.

وقال ابن النحاس في المشارع (335/1) على الحديث " وفي حديث عثمان هذا دليل واضح على أن إقامة المرابط يوما واحدا بأرض الرباط أفضل من الإقامة ألف يوم في غيره من الأماكن، سواء كان مكة أو المدينة،

أو بيت المقدس ولهذا خاف عثمان رضي الله عنه أن يتفرق الناس عنه إذا أعلمهم بذلك رغبة في الرباط، والإقامة ببلاده، ولولا أنه يعلم أن ذلك يعم مكة والمدينة لما خاف تفرقهم وخروجهم من المدينة إلى بلاد الرباط" انتهى.

الثامنة: أن الرباط في موضع مخوف أفضل من قيام ليلة القدر:

روى ابن ابي شيبة في مصنفه (19334) بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ألا أنبئكم بليلة هي أفضل من ليلة القدر؟ حارس حرس في سبيل الله عز وجل في أرض خوف لعله ألا يئوب إلى أهله.

يئوب أي يرجع.

وذلك عندما يكون المرابط ملازما لثغر من الثغور حارسا لمن وراءه من المسلمين، ويكون ذلك الثغر مخوفا بحيث أنه يخاف ألا يرجع إلى أهله ويسلم.

فهذا يظهر لك الفرق بين كون الثغر الذي يرابط فيه المرابط مخوفا أو أقل خوفا.

التاسعة: أن موقف ساعة أثناء المواجهة في الرباط خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود:

روى ابن حبان في صحيحه (4603) عن مجاهد عن أبي هريرة ﷺ أنه كان في الرباط، ففزعوا إلى الساحل، ثم قيل: لا بأس، فانصرف الناس وأبو هريرة واقف، فمر به إنسان، فقال: ما يوقفك يا أبا هريرة؟، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود**» وصححه الألباني في الصحيحة (1068) وكذا صححه غيره.

جاء في مطالع الأنوار (524/5) "قوله: "من أشراط الساعة" سميت ساعة؛ لأنها كلمح البصر، ولم تعرف العرب في المدد أقصر من الساعة، وكانت عندهم عبارة عن أقصر جزءٍ من الزمان" انتهى، فالمراد بالساعة هنا ما هو أقل من الساعة بالمعنى المشهور الذي هو جزء من أربعة وعشرين جزءا في اليوم والليلة.

والمراد من هذا الفضل أنه عند حصول مواجهة مع الأعداء أثناء الرباط كما حصل مع أبي هريرة ﷺ في الأثر السابق، فإن موقف ساعة في هذه المواجهة خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود، وأما الفضائل

السابقة فهي في مجرد الرباط وملازمة الثغور بدون مواجهة فأقل ما ينال المرابط من الأجر هو أن يومه يعدل صيام شهر وقيامه أو يعدل ألف يوم، وأما أعلى ما ينال المرابط فهو حين تكون هناك مواجهة مع الأعداء فحينئذ تبلغ ساعة المرابط مئات السنين من الطاعات.

فلو أردنا حسابها فنقول أن ليلة القدر خير من ألف شهر أي ما يعادل 83 سنة تقريبا، وأن الصلاة في المسجد الحرام مضاعفة بمائة ألف صلاة أي أن من قام ليلة كاملة بالصلاة في المسجد أفضل من ممن قامه في خارج المسجد بمائة ألف ليلة لأن الصلاة الواحدة في المسجد الحرام عن مائة ألف صلاة فيما سواه من المساجد، ومائة ألف ليلة تعادل 277 سنة تقريبا، وإذا جمعنا العددين السابقين ظهر لنا أن موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام 360 سنة.

إذن فالأمر في ثواب الرباط فيه تدرج، فمجرد الرباط يكون عمل المرابط أفضل عبادة شهر صيامه وقيامه، أو يكون كألف يوم بحسب العامل وما يحيط بالعمل، وإذا كان الرباط في موضع مخوف وكان المرابط حارسا لمن وراءه تكون ليلة المرابط أفضل من ليلة القدر التي تعادل 83 عام تقريبا، وإذا كان في الرباط مواجهة فإن موقف ساعة فيه أفضل من عبادة 360 سنة تقريبا.

العاشرة: أن المرابط في سبيل الله إذا مات يموت شهيدا:

فإذا مات المرابط وهو في رباطه فإنه يعطى منزلة الشهادة، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال: «**من مات مرابطا، مات شهيدا، وقي فتان القبر، وغدي وريح برزقه من الجنة، وجرى عليه عمله**» رواه عبد الرزاق (9622) وهذا النوع من الشهادة جود طرقها الحافظ في الفتح.

وأيضا وردت أحاديث في المرابط تدل على أنه يعطى بعض خصال الشهادة، كالوقاية من الفتان، وأنه يرزق، وأنه يأمن الفزع الأكبر، وكل هذه من خصال الشهادة المعروفة.

قال ابن النحاس في المشارع (329/1): "جرت السنة في معاملة الله عبيده بفضله وكرمه، أن من توجه بصدق إلى شيء من القربات فمنعه منه القدر الإلهي مع شدة حرصه عليه، وتصميم قصده في طلبه، أن الله يعطيه يوم القيامة أجر تلك القربة، تفضلا منه وإحسانا، لحسن قصده ولإخلاص نيته وصدق طويته،

والدليل على ذلك أن من خرج مجاهدا فمات كان شهيدا، كما سيأتي في بابه إن شاء الله، وكذلك من حج فمات كتب حاجا.

وقد قال في المحرم الذي سقط عن بعيره فمات «**إنه يبعث يوم القيامة ملبيا**».

وكذلك قوله: «**من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عينه حتى أصبح كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه**» رواه النسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة في صحيحه من حديث أبي الدرداء، ورواه أبو داود، والنسائي – أيضا – من حديث عائشة.

وكذلك قوله في «**من توضأ فأحسن وضوءه ثم راح فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا**» رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.

وأشباه هذه الأحاديث كثيرة، والمرابط إنما رابط توقعا للشهادة، وتعرضا لبذل نفسه في نيلها، فلا جرم أنه إذا مات يبعث شهيدا، ويؤيد هذا ما وهبه الله من خصائص الشهداء، وهو إجراء الرزق عليه، والأمان من فتنة القبر، ومن الفزع الأكبر، ونحو ذلك، فلو لم يرد حديث مصرح بأنه يبعث شهيدا لكان مما يستنبط من هذه القاعدة، فكيف وقد روي في ذلك عدة أحاديث، وإن كانت لا تسلم من مقال، فهي تتعاضد وتقوى بكثرة الطرق، ويؤيدها القاعدة المذكورة، والله أعلم " انتهى كلامه.

لكن المرابط وإن حصل له رتبة الشهادة، فليس في الفضل كشهيد المعركة، فإن الذي يموت في سبيل الله – وإن كان شهيدا – أقل رتبة من الذي يقتل في المعركة في سبيل الله كما هو معلوم.

قال المناوي في الفيض (4/5): " وقد جاء في المرابط الذي هو أقل رتبة من الشهيد أنه لا يفتن " فهذا يدل على تفضيل الشهيد على المرابط.

الحادية عشر: أن المقام في أرض الرباط أفضل من المقام في مكة والمدينة وبيت المقدس:

جاء في المسائل التي حلف عليها الامام أحمد لابن أبي يعلى (49) " سئل أحمد: فقيل له: المقام بالثغر أفضل من المقام بمكة؟! فقال: إي والله" انتهى.

وجاء في مسائل أبي داود للإمام أحمد (309) " سمعت أحمد، قال: «صلاة في المسجد الحرام تجيء بمائة ألف صلاة فيما سواه».

قلت لأحمد: فالثغور، يدخل فيها؟ (أي أن الحديث السابق يعم حتى الصلاة في الثغر فالصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في الثغر) قال: نعم، قلت: إن بعضهم يحتج بقوله: «**مقام يوم في سبيل الله أفضل من مقام أحدكم ألف يوم**» قال: ذاك في المقام، فأما فضل الصلاة هذا شيء خاصة فضل لهذه المساجد" انتهى.

وجاء فيه أيضا (310) " سمعت أحمد، سئل: المقام بمكة أحب إليك أم الرباط؟ قال: الرباط أحب إلي " انتهى.

قال ابن النحاس في المشارع (337/1) " وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إجماع العلماء على أن إقامة الرجل بأرض الرباط مرابطا أفضل من إقامته بمكة والمدينة، وبيت المقدس.

وحكى ابن المنذر في الأوسط عن الإمام أحمد بن حنبل، أنه سئل: المقام بمكة أحب إليك أم الرباط؟ قال: الرباط أحب إلي.

وقال أحمد أيضا: ليس يعدل عندنا شيء من الأعمال الغزو والرباط، انتهى.

وقد سأل رجل الإمام مالكا رحمه الله: أيما أحب إليك أقيم بالمدينة الشريفة أو أقيم بالإسكندرية؟ فقال: بل أقم بالإسكندرية " انتهى كلامه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (418/28) " والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس حتى قال أبو هريرة ﷺ «لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود» فقد اختار الرباط ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه واله وسلم وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة؛ لمعان منها أنهم كانوا مرابطين بالمدينة. فإن الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو، فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط، والأعمال بالنيات، قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم «**رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**» رواه أهل السنن وصححوه، وفي صحيح مسلم عن سلمان أن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال: «**رباط**

يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطا أجري عليه عمله وأجري عليه رزقه من الجنة وأمن الفتان» يعني منكرا ونكيرا. فهذا في الرباط فكيف الجهاد" انتهى.

وقال أيضا في جامع المسائل (339/5) " مسألة في المرابطة بالثغور أفضل أم المجاورة بمكة شرفها الله تعالى؟

الجواب:

الحمد لله، المرابطة في ثغور المسلمين – وهو المقام فيها بنية الجهاد – أفضل من المجاورة في الحرمين باتفاق أئمة المسلمين أهل المذاهب الأربعة وغيرهم، وليست هذه المسألة من المشكلات عند من يعرف دين الإسلام؛ ولكن لكثرة ظهور البدع في العبادات وفساد النيات في الأعمال الشرعيات صار يخفى مثل هذه المسألة على كثير من الناس، حتى صاروا يعظمون الأماكن التي كان المسلمون يعظمونها لكونها ثغورا ظانين أن تعظيمها لأمور مبتدعة في دين الإسلام، فاستبدلوا بشريعة الإسلام بدعا ما أنزل الله بها من سلطان، فإنه يوجد في كلام السلف وحكاياتهم في ذكر غزة وعسقلان والإسكندرية وجبل لبنان وعكة وقزوين، ومن أمثال ذلك، ومن وجود الصالحين بها ما يوجب شرف هذه البقاع.

وإنما كان ذلك لكونها كانت ثغور المسلمين، فكان صالحو المسلمين يتناوبونها لأجل المرابطة بها، لا لأجل الاعتزال عن الناس وسكنى الغيران والكهوف، أو نحو ذلك مما يظنه الجهال أهل البدع والضلال....... فالثغور هي البلاد المتاخمة للعدو من المشركين وأهل الكتاب التي يخيف العدو أهلها ويخيف أهلها العدو، والمرابطة بها أفضل من المجاورة بالحرمين باتفاق المسلمين. كيف والمرابطة بها فرض على المسلمين إما على الأعيان وإما على الكفاية.

وأما المجاورة فليست واجبة باتفاق المسلمين، بل العلماء متنازعون هل هي مستحبة أم مكروهة؟ فاستحبها طائفة من العلماء من أصحاب مالك والشافعي، وكرهها آخرون كأبي حنيفة وغيره، قالوا: لأن المقام بها يفضي إلى الملك لها، وأنه لا يأمن من مواقعة المحظور؛ فيتضاعف عليه العذاب. ولأنه يضيق على أهل البلد. قالوا: وكان عمر يقول عقب المواسم: يا أهل الشام شامكم، يا أهل اليمن يمنكم، يا أهل العراق عراقكم" انتهى.

وقال أيضا في جامع المسائل (357/5) "حتى إن مالكا ﷺ -مع فرط تعظيمه المدينة وتفضيله لها على مكة وكراهية الانتقال منها- لما سئل عمن بدار وهو مقيم بالمدينة يأتي الثغور كالإسكندرية وغيره، أجاب: بأن عليه أن يأتي الثغور؛ لأن المرابطة بالثغور أفضل من مقامه بالمدينة. وما زال خيار المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعدهم من الأمراء والمشايخ يتناوبون الثغور لأجل الرباط، وكان هذا على عهد أبي بكر وعثمان أكثر، حتى كان عبد الله بن وغيره مرابطين.

وكان عمر من يسأله عن أفضل الأعمال إنما يدله على الرباط والجهاد، كما سأله عن ذلك من سأله، كالحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وأمثالهم، ثم كان بعد هؤلاء إلى خلافة بني أمية وبني العباس. ولهذا يذكر من فضائلهم وأخبارهم في الرباط أمور كثيرة" انتهى.

وقد جاء في النوادر والزيادات (16/3) " ومن العتبية: من سماع ابن القاسم، قيل لمالك: الحج والقفل (أي الرجوع إلى البلد بعد الحج) أحب إليك أم الحج والمقام للجوار؟ قال: ما كان الناس إلا على الحج والقفل، قيل: فالجهاد مثله، فإنه قد قيل ذلك؟ قال: لا، قد أقام غير واحد من الصحابة بالشام حين فتحت وهي بحال الحرب، منهم: معاذ وأبو هريرة وبلال وأبو أيوب، قال أشهب: قيل لمالك: أعلينا بأس في إقامتنا عندكم وتركنا أهليا بالإسكندرية، وما أدركنا قط عدواً نزل بها وإنهم ليخافون؟ قال: قد قلتم: إن الموضع مخوف ضائع وأهلها قليل ومحارسها خالية، فلحوقكم بأهليكم أحب إلي وتكونون من وراء المسلمين.

قيل: فنأثم في مقامنا ها هنا؟ قال: لا أدري ما الاثم وأنتم أعلم بموضع خوفكم، وكونكم معهم أحب إلي، قيل: فالمقام بأرض العدو أم الذهاب والرجوع؟ قال: كل حسن واسع" انتهى.

ولفضل الرباط هذا حرص كثير من الصالحين والعلماء والعباد على الرباط في الثغور وانتقلوا إليها، منهم من كان يتردد عليها من حين إلى آخر – وهذا كثير جدا – ومنهم من أقام بها إقامة دائمة حتى مات لينال الفضل الوارد في الرباط – وهذا كثير أيضا – ولو تصفحت كثيرا من كتب التراجم والتاريخ تجد في سير كثير من العلماء والصالحين أنه انتقل إلى ثغر كذا ومات مرابطا.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (52/27) " وفضائل الجهاد والرباط كثيرة، فلذلك كان صالحو المؤمنين يرابطون في الثغور: مثل ما كان الأوزاعي وأبو إسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين وإبراهيم بن أدهم

وعبد الله بن المبارك وحذيفة المرعشي ويوسف بن أسباط وغيرهم: يرابطون بالثغور الشامية...... ولهذا كثر ذكر " طرسوس " في كتب العلم والفقه المصنفة في ذلك الوقت لأنها كانت ثغر المسلمين حتى كان يقصدها أحمد بن حنبل والسري السقطي؛ وغيرهما من العلماء والمشايخ للرباط وتوفي المأمون قريبا منها " انتهى.

ولما كان كثير من هؤلاء يلازم الرباط والثغور كان يلقب بعضهم بذلك، فيقال الرباطي نسبة للرباط، ويقال فلان الثغري نسبة إلى مقامه بالثغر، وهذا تجده كثيرا في كتب التراجم والسير، كما جاء في كتاب الانساب للسمعاني (96/6) " الرِباطى: بكسر الراء وفتح الباء المنقوطة بواحدة وفي آخرها الطاء المهملة، هذه النسبة إلى الرباط وهو اسم لموضع يربط فيه الخيل وعرف بالغزاة لأنهم إذا نزلوا في ثغر وأقاموا في وجه العدو دفعا لكيدهم وفتكهم بالمسلمين يقال لذلك الموضع الرباط، قال الله تعالى ﴿**وَمن رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ**﴾ والمشهور بهذه النسبة أبو عبد الله أحمد ابن سعيد بن إبراهيم الرباطي من أهل مرو، قال أبو على الغساني: عرف بالرباطي لأنه كان تولى على الرباط، قلت: ولعله يتولى عمارة الرباط حتى لا تضيع الأوقاف التي لها".

وقال (136/3):" الثغرىّ: بفتح الثاء المنقوطة بثلاث من فوقها وسكون الغين المعجمة والراء المهملة، هذه النسبة إلى الثغر وهو المواضع القريبة من الكفار يرابط المسلمون بها أو يكون من بلدة هي آخر بلاد المسلمين فيقال: الثغري، فمنهم أبو أمية مُحَمَّد بن إبراهيم بن مسلم بن سالم البغدادي الثغري المعروف بالطرسوسي قيل له: الثغري، لأنه سكن ثغر طرسوس وأبو القاسم يحيى بن عبد الباقي بن يحيى بن يزيد بن إبراهيم بن عبد الله الثغري من أهل أذنة إحدى ثغور الشام" انتهى.

ولهذا كانت الثغور ملتقى للفقهاء والعباد وأهل الحديث، فهناك المرابط المقيم، وهناك التلميذ الزائر لهؤلاء، ونحو ذلك، كما جاء في صفة الصفوة (406/2) عن أبي صالح قال: " لقيت الفضيل بن عياض فعزاني في أبي إسحاق وقال: لربما اشتقت إلى المصيصة ما بي فضل الرباط إلا أرى أبا إسحاق" انتهى، ويقصد أبا إسحاق الفزاري.

وجاء في الارشاد للخليلي (469/2) " قال سعيد بن عمرو البردعي: سمعت أبا زرعة الرازي يقول: لم أعرف لنفسي رباطا خالصا في ثغر: قصدت قزوين مرابطا ومن همتي أن أسمع الحديث من الطنافسي و مُحَمَّد

بن سعيد بن سابق، ودخلت بيروت مرابطا ومن همتي أن أسمع من العباس بن الوليد، ودخلت رها مرابطا ومن همتي أن أسمع من أبي فروة الرهاوي، فلا أعرف لنفسي رباطا خلصت نيتي فيه ثم بكى" انتهى.

وسفر أبي زرعة حتى ولو لم ينو رباطا فإنه كان سفرا في طاعة، ولكن يبكي على أنه كان يود أن يرابط بنية رباط خالصة لا يخالطها شيء، وهذا مثل ما روي عن الفضيل بن عياض أنه قال " لا يخلص لأصحابِ الحديث حج، وسفيان بن عُيينة حيّ!" ويقصد من ذلك أنهم يقصدون مكة للسماع من ابن عيينة.

وتجد في كتب المحدثين الكثير الكثير من هذه العبارة، حدثنا فلان بالثغر، أو أنبانا فلان قراءة عليه ونحن بالثغر.

وكانوا من أهم ما يذكرونه من مناقب الرجل أن يقولوا سكن الثغر أو نزل الثغر أو من أهل الثغر أو كان يتردد على الثغر أو مات مرابطا أو نحو ذلك.

وقد جاء في سؤالات ابن الجنيد للامام يحيى بن معين (346) " قال لي يحيى بن معين: «ألك ولد؟»، قلت: لا، ولا امرأة، قال: «فما مقامك هاهنا، الحق بالثغر، أو ألق نفسك في تلك السواحل، فإن الدنيا ليست بشيء»" انتهى.

وجاء عن الامام أبي زرعة رحمه الله أنه قال: «لو كان لي صحة بدن على ما أريد كنت أتصدق بمالي كله، وأخرج إلى طرسوس أو إلى ثغر من الثغور، وآكل من المباحات وألزمها» رواه ابن ابي حاتم في الجرح والتعديل (348/1).

وقد روى ابن ابي حاتم في الجرح والتعديل (280/1) كلاما عظيما للإمام ابن المبارك عن الجهاد والرباط وتفضيله له على الاشتغال بالعلم، فقال ابن ابي حاتم: أخبرنا أبي قال سمعت عبدة بن سليمان قال: كنا مع ابن المبارك في أرض الروم، فبينا نحن نسير ذات ليلة والسماء من فوقنا والبلة من تحتنا، فقال ابن المبارك: يا أبا مُحَمَّد أفنينا أيامنا في الإيلاء والظهار عن مثل هذه الليالي، فلما أصبحنا نزلنا على عيني ماء فجعل الناس يتبادرون ويسقون دوابهم، فقدم ابن المبارك دابته فضرب رجل من أهل الثغر وجه دابة ابن المبارك وقدم دابته، فقال: يا أبا مُحَمَّد المنافسة في مثل هذا الموضع، ليس في الموضع الذي إذا رأونا قالوا: وسعوا لأبي عبد الرحمن، ارتفع يا أبا عبد الرحمن (كنيته).

وروى ابن العديم في بغية الطلب (393/1) بإسناده عن إبراهيم اليماني قال: قدمت من اليمن، فأتيت سفيان الثوري فقلت: يا أبا عبد الله إني جعلت في نفسي أن أنزل جدة فأرابط بها كل سنة، فأعتمر في كل شهر عمرة، وأحج في كل سنة حجة، وأقرب من أهلي، أحب إليك، أم آتي الشام فقال لي: يا أخا اليمن، عليك بسواحل الشام، عليك بسواحل الشام، فإن هذا البيت يحجه في كل عام مائة ألف ومائة ألف وثلاثمائة ألف، وما شاء الله من التضعيف، لك مثل حجهم وعمرهم ومناسكهم.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين (355) :" الطبقة السادسة: المجاهدون في سبيل الله، وهم جند الله، الذين يقيم بهم دينه، ويدفع بهم بأْس أعدائه، ويحفظ بهم بيضة الإسلام ويحمى بهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله ونصر دينه وإعلاءِ كلمته ودفع أعدائه، وهم شركاءُ لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها وإن باتوا في ديارهم، ولهم مثل أُجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم، فإنهم كانوا هم السبب فيه، والشارع قد نزل المتسبِّب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر، ولهذا كان الدَّاعي إلى الهدى والدَّاعي إلى الضلال لكل منهما بتسبُّبه مثل أجر من تبعه" انتهى كلامه.

قال المناوي في الفيض (164/1): " قال في المطامح " فضل الجهاد يكاد يكون بديهيا، إذ لا تنتظم العبادات والعادات إلا به " انتهى كلامه.

قال المناوي في الفيض (221/6):" فلذلك عظمت درجة المجاهد لعظم ما يلقى وكثرة حسناته، لأنه يقاتل عن كل من وراءه من المسلمين، ولولا الجهاد لوصل العدو إليهم، فكأنه ناب مناب الكل" انتهى كلامه.

روى مسلم (1897) عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم، إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟**».

قال الحليمي في المنهاج (475/2) على هذا الحديث " وهذا- والله أعلم- لعظم حق المجاهد علي، فإنه ناب عنه، وأسقط بجهاده فرض الخروج عنه، ووقاه مع ذلك بنفسه، وجعل نفسه حصنًا وجنة دونه،

فكانت خيانته له في أهله أعظم من خيانة الجار في أهله، كما يحكون: خيانة الجار أعظم من خيانة البعيد والله أعلم".

وروى ابن الجوزي في مناقب الامام أحمد (296) عن مُحَمَّد بن نَصر العابد، قال: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: كل شيءٍ من الخَير بادر فيه. قال: وشاورته في الخروج إلى الثَّغر، فقال لي: بادِر بادِر.

قال الشيخ عبد الله عزام رحمه الله واصفا حاله مع الرباط كما في التربية الجهادية والبناء " ولذلك؛ أعيش من أفغانستان، فأشعر أنني سمكة دخلت مائها، ونفسي ضائقة وجدت روحها وريحانها، فإذا خرجت من أفغانستان لزيارة أهلي في بيشاور على الحدود الأفغانية ضاقت نفسي، فإذا زادت الشقة زادت المشقة على نفسي، فإذا وصلت الحرم انكتمت أنفاسي وأنا أطوف بالحرم، أشعر بالضيق الشديد لأني بعيد عن أرض الجنة أرض الجهاد والجلاد، رغم أني والله أطوف بالبيت العتيق" انتهى.

ومما يبين فضل الرباط عند الأئمة ما جاء في النوادر والزيادات (13/3) للقيرواني " قال مالك لرجل سأله قد ابتلي بدم: تقرب إلى الله سبحانه بما استطعت والزم هذه الثغور" انتهى.

وقد جاء في المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (62) " وبخصوص فيما يرجع إلى الدماء. فالمنقول عن مالك. وقد سئل عمن كتب إليه وال في قتل رجل، فقتله، ثم أراد التنصل والتوبة، فعرض نفسه على أولياء المقتول، وأخبرهم، فقالوا: لسنا بقاتليك "إنا نخاف إن قتلناك عاقبة ذلك" وعرض عليهم الدية، فأبوا أن يقبلوها؛ فكان من جوابه ﷺ "أن قال: أحب إلي أن يؤدى ديته إليهم، وأن يعتق الرقاب، ويتصدق، ويكرر الحج والغزو، وإن استطاع أن يلحق بالثغور، ويكون فيها أبدا حتى يموت، فهو أحب إلي"" انتهى.

وقد جاء في تاريخ الإسلام (46/13) للذهبي " عن عليّ بن معبد قال: رأيت ابن القاسم في النَّوم، فقلت: كيف وجدت المسائل؟ فقال: أُفٍ أُفٍ. قلت: فما أحسَنَ ما وجدتَ؟ قَالَ: الرَّباط بالإسكندرية" انتهى.

وقد جاء في الانساب (312/10) للسمعاني أن أبا علي القالي اللغوي المعروف سئل " لم قيل لك «القالي» ؟ فقال: لما انحدرنا إلى بغداد في رفقة فيها أهل قاليقلا – بلد في الاندلس – وكانوا يكرمون

لمكانهم من الثغر، فلما دخلنا إلى بغداد انتسبت إلى قاليقلا، وهي قرية من منازجرد، ورجوت أن أنتفع بذلك عند العلماء فمضى عليّ «القالي»" انتهى.

ويجلي لنا القرطبي الحكمة في عظمة الرباط وفضله فيقول في تفسيره (325/4) " وهذا لأن أعمال البر كلها لا يتمكّن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منه بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام" انتهى.

وقال شيخ الإسلام كما في جامع المسائل (358/5) "وبالجملة إن السكن بالثغور والرباط والاعتناء به أمر عظيم، وكانت الثغور معمورة بخيار المسلمين علما وعملا، وأعظم البلاد إقامة بشعائر الإسلام وحقائق الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان كل من أحب التبتل للعبادة والانقطاع إلى الله وكمال الزهد والعبادة والمعرفة يدلونه على الثغور" انتهى.

***

أهمية الرباط في الثغور وحفظها

لا شك أن عامل أمن المسلمين قوة وضعفا مرتهن بقوة الثغور وضعفها، فكلما كان الثغر محفوظا ومحروسا وأعداد المرابطين فيه في حد الكفاية والنفقات جارية على تلك الثغور انعكس ذلك على العالم الإسلامي بالأمن من العدو أن يداهمهم ويستبيح حرماتهم، وكل مطلع على التاريخ يجد هذا حتما وفي غاية الظهور.

وتظهر الأهمية الكبيرة للرباط في حفظ المسلمين وبيضتهم وديارهم وصد عادية الكفار ما قاله نقفور ملك الروم لما سيطر على طرسوس وكانت من أعظم ثغور الإسلام في ذلك الوقت فجاء في زبدة الحلب (84) " ودخل نقفور إلى طرسوس، وصعد منبرها، وقال لمن حوله: أين أنا؟ فقالوا: على منبر طرسوس فقال: لا ولكني على منبر بيت المقدس، وهذه كانت تمنعكم من ذلك" انتهى.

أي أنه بسيطرته على طرسوس كأنه سيطر على بيت المقدس وسيسهل عليه الأمر، لأن رباط طرسوس كان في عقبة في طريق السيطرة على بيت المقدس.

وجاء في تاريخ بغداد (515/3) أن العالم ابن أبي ذئب قال للخليفة المنصور: يا أمير المؤمنين، قد هلك الناس، فلو أعنتهم مما في يديك من الفيء؟ قال: ويلك لولا ما سددت من الثغور وبعثت من الجيوش لكنت تؤتى في منزلك وتذبح، فقال ابن أبي ذئب: فقد سد الثغور، وجيش الجيوش، وفتح الفتوح، وأعطى الناس أعطياتهم من هو خير منك، قال: ومن هو ويلك؟ قال: عمر بن الخطاب، فنكس المنصور رأسه، والسيف بيد المسيب، والعمود بيد مالك بن الهيثم، فلم يعرض له والتفت إلى مُحَمَّد بن إبراهيم الإمام، فقال: هذا الشيخ خير أهل الحجاز.

ويبين هذه الأهمية أيضا أن الفيء في الشرع يصرف خمسه كما ذكر الفقهاء في مصالح المسلمين، وذكروا أن أهم هذه المصالح سد الثغور وإصلاحها وتحصينها، فقال البغوي في التهذيب في فقه الامام الشافعي (182/5) " اعلم: أن خمس القيمة لخمسة أصناف: سهم كان لرسول الله – صلى الله عليه واله وسلم– وبعده هو لمصالح المسلمين، وأهم المصالح ما يؤول إلى تحصين الإسلام، وحفظ المسلمين: من سد الثغور، وإصلاح الحصون، ثم الأهم فالأهم "انتهى.

وقال ابن قدامة في الكافي (155/4) " وأهم المصالح كفاية أجناد المسلمين بأرزاقهم، وسد الثغور بمن فيه كفاية، وكفايتهم بأرزاقهم، وبناء ما يحتاج إلى بنائه منها، وحفره الخنادق، وشراء ما يحتاج إليه من الكراع والسلاح" انتهى.

وجاء في السراج الوهاج على متن المنهاج للغمراوي (351) " (وخمسه) أي الفيء، لخمسة أحدها مصالح المسلمين كالثغور، أي سدها وتحصينها جمع ثغر وهي مواضع الخوف من أطراف بلاد المسلمين، وأرزاق القضاة والعلماء، وكل ما فيه مصلحة عامة للمسلمين كمعلمي القرآن وكذلك العاجز عن الكسب مع الفقر، يقدم الأهم فالأهم وجوبا وأهمها الثغور" انتهى.

وجاء في كشف المخدرات (350/1) " يصرف (لمصَالح الْمسلمين) يبدأ بالأهم فالأهم من سد ثغر وكفاية أَهله وحاجة من يدْفع عَن الْمُسلمين وعمارَة القناطر – أَي الجسور – وَإِصْلَاح الطّرق والمساجد، ورزق القضاء والفقهاء والأئمة والمؤذنين وَغير ذَلِك، وَلَا يخمس الْفيء نصا" انتهى.

وقد كان المسلمين في شتى البلدان يقيمون الوقوف الخاصة بأهل الثغور ويكرمون أهلها لما يعلمون لها من الفضل والأهمية.

وقد روى ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب (187/1) عن الحسن بن مسعود الوزير الدمشقي الحافظ يقول: كان المشايخ يقولون زينة الإسلام ثلاثة: التراويح بمكة، فانهم يطوفون سبعا بين كل ترويحتين، ويوم الجمعة بجامع المنصور لكثرة الناس والزحمة ونصب الأسواق، ويوم العيد بطرسوس، لأنها ثغر وأهلها يتزيّنون ويخرجون بالأسلحة الكثيرة المليحة والخيل الحسان، ليصل الخبر إلى الكفار فلا يرغبون في قتالهم.

وكان من أعظم واجبات الامام الملقاة عليه هو حفظ هذه الثغور وإمدادها بالغزاة والمرابطين وتوفير النفقات والمراكب والخيل والسلاح لها، وقد روى البيهقي في شعب الايمان (15/10) عن إياس بن معاوية: «لا بد للناس من ثلاثة أشياء: لا بد لهم من أن تؤمن سبلهم، ويختار لحكمهم حتى يعدل الحكم فيهم، وأن يقام لهم الثغور التي بينهم وبين عدوهم، فإن هذه الأشياء إذا قام بها السلطان احتمل الناس ما سوى ذلك من أثرة السلطان، وكل ما يكرهون».

وجاء في تاريخ دمشق (123/74) أن يزيد بن الوليد الأموي قام خطيبا في الناس فحمد الله وأثنى عليه وكان مما قال: «أيها الناس، إن لكم عندي إن وليت أموركم ألا أضع لبنة على لبنة، ولا حجرا على حجر، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغرة، وأقسم بين مسالحه ما يقوون به، فإن فضل فضل رددته إلى البلد الذي يليه وهو أحوج إليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيها سواء، ولا أجمر بعوثكم فتفتتنوا ويفتتن أهاليكم».

وجاء في تاريخ دمشق (368/40) أن عطاء ابن أبي رباح دخل على الخليفة هشام بن عبد الملك وأوصاه بأمور وكان مما أوصاه " أهل الثغور يرمون من وراء بيضتكم ويقاتلون عدوكم قد أجريتم لهم أرزاقا تدرها عليهم، فإنهم إن هلكوا غزيتم، قال: نعم أكتب تحمل أرزاقهم إليهم " انتهى.

وفي طريق آخر عند الفاكهي في أخبار مكة (324/2) " بهم يدفع الله عن هذه الأمة".

وجاء في أخبار القضاة (97/2) " أخبرني غير واحد، منهم أبو عبد الله بن الحسن بن أحمد، أن أحمد بن عبيد الله بن الحسن العنبري دفع إليهم كتاباً؛ ذكر أن أباه عبيد الله بن الحسن كتب به إِلَى المهدي، وقرأه أحمد بن عبد الله عليهم بسر من رأى؛ بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ؛ أما بعد، أصلح الله أمير المؤمنين ومد له في اليسر والعافية، إني رأيت، وإن كنت أعلم أن الله قد أعطى أمير المؤمنين وصالح وزرائه من العلم بكتاب الله وسنة نبيه صَلَّى الله عليه واله وَسَلَّمَ وما سلف من الأئمة ما قد استحق به الشكر له عليه،.... وقد علم أمير المؤمنين أن حمل عليه في هذه الرعية خصال أربع: الثغور، والأحكام، والفيء، والصدقة، وأن مما تصح بهذه الخصال الأربع بإذن الله خصلتان: فأما الثغور فقد علم أمير المؤمنين أن قوامها بإذن الله أهل النجدة والشجاعة، من أهل الحنكة والتجربة، وأن مما يصلح أولئك ما استعين بهم أن يسبغ عليهم وعلى جندهم من العطاء والأرزاق، وأن لا يوكلوا إِلَى ما يصيبون من غنائمهم، بل يجلب لهم ولجندهم عندما يحدث الله لهم وعلى أيديهم من ذلك العطاء، والألطاف، ويخص بجمال ذلك أهل النجدة والبأس والنكاية في العدو منهم، ويسمو بهم إِلَى أفضل غايتهم ويعرف ذلك لهم، ويذكرون به، ويحفظ لهم، ويحفظون به في أعقابهم من بعدهم بواجب حقهم، وليتنافس في ذلك من سواهم وليستنصروا به ثم لا يحجب لهم بقبولها ولو طرق طروقاً، فقد بلغني أن بعض الفقهاء التابعين رفع الحديث؛ قال: لا يزال لهذه الأمة طعمة ما بيتت ثغورها، فإذا بيتت من قبل ثغورها بينت طعمها أو انقطعت مدتها، وهنالك يطعن الرجال فيهم، فالثغور الثغور يا

أمير المؤمنين، ثم الثغور الثغور يا أمير المؤمنين، فإن الثغور حصون بإذن الله للعباد، وسكن للبلاد، وقرار لهذه الأمة ليبلغوا منافعهم وصلاحهم في دينهم ودنياهم، ولتتم لهم مدة بقاء معالم دينهم آمنين مطمئنين وفي ذلك يا أمير المؤمنين بلاء من الله في نعمه عليهم وإحسانه إليهم عظيم، والأجر في ذلك لمن ولاه إقامتهم، والورد فِيْهِ على حسب ذلك، فعصم الله أمير المؤمنين من سيء ذلك، ووفقه لأحسنه....." .

وكان الناس والشعراء من أعظم ما يمدحون ويثنون به على الأمير والامام هو حفظ الثغور وسدها وإحرازها، ومن أقبح ما يسبونه به تضييعها وإضعافها.

فمن المدح:

ويصون أطراف الثغور يراعُه   فيشَيدها ويسدّ منها ما وهى

ويقول آخر:

تحلي الدّين أَو تَحْمِي حماه   فَأَنت عَلَيْهِ سور أَو سوار
سيوفك من شكاة الثغر برْء   وَلَكِن للعدى فِيهَا بوار

ويقول آخر:

فِي كل يَوْم تزور الثغر لَا ضجر   يثنيك عَنهُ وَلَا شغل وَلَا ملل
فَالنَّفْس جاهدة وَالْعين ساهرة   والجيش منهمك وَالْمَال مبتذل

وقال الفضل بن العباس بن مُحَمَّد بن الاشعث وكان واليا في المشرق يغزو في ثغور المسلمين:

إنا على الثغر نحميه ونمنعه   بنصرة الله والمنصور من نصرا

وكان هارون الرشيد الخليفة رحمه الله يغزو عاما ويحج عاما وفيه قال الشاعر:

فَمن يَطلُب لِقاءَك أَو يُرِدهُ   فَبِالحرَمَينِ أَو أقصَى الثُغورِ

فَفِــي أرضِ العــدوِّ علــى طِمِــرٍّ وَفِي أَرض الثنيَّـــة فَـــوق كـــور
ومــا حــاز الثغــور ســواك خلــق مـــن المتخلفـــين علـــى الأمـــور

وفي الإحاطة في اخبار غرناطة عن المنصور ابن ابي عامر صاحب الاندلس " وكتب على قبره هذا الشعر:

آثاره تنبيــك عــن أخبــاره حــتى كأنّــك بالعيــان تــراه
تالله لا يأتي الزمـــان بمثلـــه أبـدا ولا يحمـي الثغـور سـواه

ويقول صريع الغواني في يزيد بن مزيد الشيباني:

سد الثغور يزيد بعد ما انفرجت بقائم السيف لا بالختل والحيل
مـن كـان يختـل قـرناً عنـد موقفـه فــإن جــار يزيــد غــير مختتــل

وقيل في معن بن زائدة:

إنّ معناً يحمي الثغور ويعطي مـا لـه في العـلا وأنـت كـذاكا

وقيل فيه:

هــو الجبــل الــذي كانــت نــزار تهــد مــن العــدو بــه جبــالا
تعطلــت الثغــور لفقــد معــنٍ وقـد يـروي بهـا الأسـل النهـالا
وأظلمـــت العـــراق وأورثتهـــا مصـــيبته المجللـــة اخـــتلالا

ومنها:

مـرابطٌ فِي ثغـور الْمُسـلمين فَلـم يهجع وَلَا سَيْفه فِي الله مَا هجعا

ومنها:

وسـد الثغـر مـن بعـد انـثلام بأقـــوام كأمثـــال الأســـود

ومنها:

وأنـتم سـداد الثغر للـدين جنـة ببأسكم الاسلام أرهـف حـده

ومنها:

والقـائـد الخيـل نحـو الثغـر معلمـة شـعثاً تصلصـل في أفـواههـا اللجـم

ومدح القائد عبد الله بن مزدلي عند عودته من الجهاد صائما:

بادرت أجـرك في الصيام مجاهـدا مــا ضــاع عنــدك للثغــور ذمــام

وقال الشاعر في الامير يعقوب بن عبد الحق المريني:

يحــوط جنـــاب الثغـــر حوطـــة حـــازم تجمــــع في تـــــدبيره الرفــــق والعنــــف

وفي الذم يقول قائلهم:

أضــاع أمــير المــؤمنين ثغــورنا وأطمع فينا المشركين ابن خالد
إذا هتف العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد

ويقول:

لعمـري لقـد ضيعت ثغراً وليتـه أبا جعـل أف لفعلـك مـن فعـل

وقيل في ذم ملوك الطوائف:

ثم تمــادت هــذه الطوائــف تخلفهــم مــن آلهــم خوالــف

دانـت بـدين الجـور والعـدول إذ سـلبت عقائـل العقـول

فـأهملوا الـبلاد والعبـادا وعطلـوا الثغـور والجهـادا

واشـتغلت أذهـانهم بالخمـر وبالأغـاني وسمـاع الزمـر

وزادهـم في الجهـل والخـذلان أن ظـاهروا عصـابة الصـلبان

لمـا طـوت صـدورهم مـن غـل ولاختيـار البعض حـال الكل

فاسـتولت الـروم علـى الـبلاد واسـتعبدوا حرائـر العبـاد

وقتلـوا الرجـال كيـف شـاءوا وضـاع دلـو الـدين والرشـاء

وقال أحد الشعراء لما سقطت عدة ثغور للمسلمين بيد الروم:

فكيــف بقــاء ثغــرهم عليــا إذا كـان المنـادى لا يثـوب

ملـوك زماننـا فـابكوا ونوحـوا لثغـركم فقـد غلـب الصـليب

وقال بعضهم:

لقـد عـزّ ناصـر أهـل الثغـور فلـيس نصـير إلـيهم بآت

ففـي النيـل لـيس لهـم منجـد ولـيس لهـم منجـد في الفـرات

كـان لهـم عنـد أهـل الزمـان كـرات فلهـم بالـتراب

وفي القصيدة التي كتبت على لسان نفقور ملك الروم في زمانه لعنه الله والتي أرسلها إلى الخليفة العباسي المعاصر له:

ثغـوركم لم يبْـق فِيهَـا لـوهنكم وضـعفكم إِلَّا رسـوم المعـالم

***

بشرى للفقراء المهاجرين في الثغور

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – يقول: «**أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تسد بهم الثغور، ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادا يعبدوني، لا يشركون بي شيئا، وتسد بهم الثغور، ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم، وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾**» رواه أحمد (6570).

وفي رواية للطبراني في الكبير (152) «**إن أول ثلة تدخل الجنة الفقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإذا كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض له حتى يموت، وهي في صدره، والله – عز وجل – يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: إن عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وقتلوا وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة، فيدخلونها بغير حساب**».

وروى ابن المبارك في الجهاد (185) عن يزيد العقيلي أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: «**إنه يكون في أمتي قوم يسد بهم الثغور، تؤخذ منهم الحقوق، ولا يعطون حقوقهم، أولئك مني وأنا منهم، أولئك مني وأنا منهم**» وهو مرسل.

***

الرباط من الصفات العارضة وأفضل الأماكن في الرباط

ومعنى ذلك أن الأمكنة والثغور التي يرابط عليها هي صفة عارضة وليست صفة دائمة، فيمكن أن يتغير حال المكان من كونه ثغرا بأن يأمن الناس فيه مثلا بتوسع الفتوحات أو إقامة صلح أو هدنة أو غير ذلك، فينتفي المعنى المراد من الرباط، فلا يكون المقام به رباطا، ولا يوجد مكان محدد بالعين جاءت النصوص بتحديده يكون الرباط به أفضل من غيره، وأما ما جاء من الأحاديث في فضل الرباط في عسقلان والإسكندرية وعكا وقزوين فلا يصح منها شيء، يقول شيخ الإسلام في المجموع (27/ 53) " فعامة ما يوجد في كلام المتقدمين من فضل عسقلان والإسكندرية أو عكة أو قزوين أو غير ذلك، وما يوجد من أخبار الصالحين الذين بهذه الأمكنة ونحو ذلك: فهو لأجل كونها كانت ثغورا؛ لا لأجل خاصية ذلك المكان، وكون البقعة ثغرا للمسلمين أو غير ثغر هو من الصفات العارضة لها لا اللازمة لها؛ بمنزلة كونها دار إسلام أو دار كفر أو دار حرب أو دار سلم أو دار علم وإيمان أو دار جهل ونفاق، فذلك يختلف باختلاف سكانها وصفاتهم" انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في جامع المسائل (364/5) " وأما الأحاديث المرْوية عن النبي – صَلَّى الله عليه واله وَسَلَّمَ – بتعيين قزوين والإسكندرية ونحو ذلك فهي موضوعة كَذِب بلا ريب عند علماء الحديث، وإن كان ابن ماجه قد روى في سننه الحديث الذي في فضل قزوين؛ وقد أنكر عليه العلماء ذلك، كما أنكروا عليه رواية أحاديث أخرى بضعة عشر حديثًا من الموضوعات؛ ولهذا نَقَصَت مرتبة كتابه عندهم عن مرتبة أبي داود والنسائي، وقد قدمنا كون البلد ثغرًا صِفة عارِضة لا لازمة؛ فلا يمكن فيه مدح مُؤَبَّد ولا ذَمّ مُؤَبَّد، إلا إذا عُلِمَ أنه لا يزال على تلك الصِّفة" انتهى.

وقال في الفتاوى الكبرى (444/2) " فصل: وأما عسقلان فإنها كانت ثغرا من ثغور المسلمين كان صالحو المسلمين يقيمون بها لأجل الرباط في سبيل الله، وهكذا سائر البقاع التي مثل هذا الجنس، مثل: جبل لبنان، والإسكندرية، ومثل عبادان، ونحوها بأرض العراق، ومثل قزوين، ونحوها من البلاد التي كانت ثغورا، فهذه كان الصالحون يقصدونها لأجل الرباط في سبيل الله" انتهى.

وقال في المجموع (17/27) " فصل: وأما السفر إلى " عسقلان " في هذه الأوقات فليس مشروعا لا واجبا ولا مستحبا؛ ولكن عسقلان كان لسكناها وقصدها فضيلة لما كانت ثغرا للمسلمين يقيم بها المرابطون في سبيل الله، فإنه قد ثبت في صحيح مسلم عن سلمان عن النبي صلى الله عليه واله وسلم أنه قال: «**رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطا مات مجاهدا وأجري عليه عمله وأجري عليه رزقه من الجنة وأمن الفتان**» وقال أبو هريرة: «لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود» وكان أهل الخير والدين يقصدون ثغور المسلمين للرباط فيها، ثغور الشام: كعسقلان وعكة وطرسوس وجبل لبنان وغيرها، وثغور مصر: كالإسكندرية وغيرها وثغور العراق: كعبادان وغيرها، فما خرب من هذه البقاع ولم يبق بيوتا كعسقلان لم يكن ثغورا ولا في السفر إليه فضيلة وكذلك جبل لبنان وأمثاله من الجبال لا يستحب السفر إليه " انتهى.

وقال أيضا في جامع المسائل (340/5) " وكون المكان ثغرا هو مثل كونه دار الإسلام ودار الكفر مثل كون الرجل مؤمنا وكافرا، هو من الصفات التي تعرض وتزول، فقد كانت مكة -شرفها الله- أم القرى قبل فتحها دار كفر وحرب تجب الهجرة منها، ثم تغير هذا الحكم لما فتحت. حتى قال - صلى الله عليه واله وسلم - «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**» وقد كان البيت المقدس بأيدي العدو تارة، وبأيدي المسلمين أخرى" انتهى.

وقال ابن كثير في مسند الفاروق (704/2) " وقد ورد في فضل عسقلان أحاديث أخر لا يقوم منها شيء نعتمد عليه وإنما تداعت رغبات الواضعين فيها لأنها كانت ثغرا في بعض الأزمان فوضعوا عليها ترغيبا للمجاهدين" انتهى.

وقد روى الطبراني في الكبير (11138) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكا ورحمة، ثم يكون إمارة ورحمة، ثم يتكادمون عليه تكادم الحمر فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم الرباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان**» قال الهيثمي في المجمع (190/5) "ورواته ثقات" وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (803/7) "وهذا إسناد جيد".

وقال الباجي في المنتقى (162/3) " (مسألة): إذا كان الثغر رباطا لموضع الخوف، ثم ارتفعت المخافة لقوة الإسلام بذلك الموضع أو بعد العدو عنهم، فإن حكم الرباط يزول عنهم.

وقد سئل مالك عمن جعل شيئا في سبيل الله أيجعله في جدة؟ قال: لا، قيل له: فإنه قد كان بها خوف قال: فإنه قد ذهب" انتهى.

وذلك أن جدة نزل بها العدو مرة واحدة منذ زمن بعيد، فلذلك استبعد مالك وغيره من العلماء كونها رباط، قال الحطاب الرعيني المالكي المتوفى عام 954هـ في مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (322/3) " ص (وهو الجهاد والرباط بمحل خيف) ش: قال في كتاب النذور من المدونة إذا جعل ماله أو غيره في سبيل الله، فذلك الجهاد والرباط من السواحل والثغور، وليس جدة من ذلك، فإنما كان الخوف فيها مرة، انتهى. وقال في كتاب الحبس: ومن حبس في سبيل الله فرسا أو متاعا، فذلك في الغزو، ويجوز أن يصرف في مواحيز الرباط كالإسكندرية ونحوها، وأمر مالك في مال جعل في سبيل الله أن يفرق في السواحل من الشام ومصر ولم ير جدة من ذلك، قيل له: قد نزل بها العدو، قال: كان ذلك أمرا خفيفا وسأله قوم أيام كان من دهلك ما كان، وقد تجهزوا يريدون الغزو إلى عسقلان والإسكندرية وبعض السواحل، واستشاروه أن ينصرفوا إلى جدة فنهاهم عن ذلك، وقال لهم: الحقوا بالسواحل، انتهى. قال في التوضيح بعد ذكره كلام مالك وهو مقيد بما إذا كان حالها اليوم كحالها في الزمن المتقدم، وذلك لأن الثغر في الاصطلاح موضوع للمكان المخوف عليه العدو فكم من رباط في الزمان المتقدم زال عنه ذلك الوصف في زماننا وبالعكس، انتهى. وأصله لابن عبد السلام وزاد: فيجب أن لا يحكم على موضع ما أبدا بأنه ثغر كما يعتقده بعض جهلة زماننا، انتهى.

وقال ابن عرفة والباجي إذا ارتفع الخوف من الثغر لقوة الإسلام به أو بعده عن العدو زال حكم الرباط عنه، وقد قال مالك فيمن جعل شيئا في السبيل لا يجعله بجدة؛ لأن الخوف الذي كان بها قد ذهب الشيخ عن ابن حبيب روى إذا نزل العدو بموضع مرة فهو رباط أربعين سنة، انتهى.

والمواحيز بالحاء المهملة النواحي جمع ماحوز، قال في المدونة في كتاب الجهاد: ولا بأس بالطوى من ماحوز إلى ماحوز أن يقول لصاحبه خذ بعثي وآخذ بعثك، قال أبو الحسن: قوله: ماحوز إلى ماحوز أي من ناحية إلى ناحية، قال عبد الحق والطوي المبادلة، انتهى.

وجدة هي الآن ساحل مكة الأعظم، وعثمان - ﷺ - أول من جعلها ساحلا بعد أن شاور الناس في ذلك لما سئل في سنة ست وعشرين من الهجرة وكانت الشعبية ساحل مكة قبل ذلك.... وقال بعض أهل مكة: "إن الحبشة جاءت جدة في سنة ثلاث وثمانين في مصدرها فوقعوا بأهل جدة فخرج الناس من مكة إلى جدة وأميرهم عبد الله بن مُحَّد بن إبراهيم، فخرج الناس غزاة في البحر، واستعمل عليهم عبد الله المذكور عبد الله بن الحارث المخزومي وإبراهيم جد عبد الله هذا هو أخو السفاح وعبد الله هو ولي مكة للرشيد بن المهدي، وعلى هذا فسنة ثلاث وثمانين المشار إليها في هذا الخبر سنة ثلاث وثمانين ومائة" انتهى.

فيمكن أن يكون هذا هو النزول الذي ذكره مالك وغيره والله أعلم، وقد صارت جدة في هذه الأيام رباطا لخوف نزول العدو بها خصوصا في أواخر فصل الشتاء وأوائل فصل الربيع عند وصول مراكب الهند، فإن العدو - خذلهم الله - توصلوا إلى بلاد الهند في أوائل هذا القرن وأواخر الذي قبله، ثم لم يزالوا يستولون عليه حتى استولوا على بلاد كثيرة منه، ثم إنهم خذلهم الله قصدوا إلى جدة في سنة تسعة عشر وتسعمائة ووصلوا إلى ساحل يسمى كمران من سواحل اليمن بالقرب من جدة، واشتد ذلك على المسلمين ونزل الناس إلى جدة، ثم إنهم خذلهم الله رجعوا من كمران بعد أن نزلوا فيها وبنوا بها حصنا لوخم أرسله الله عليهم، ثم جاءوا في سنة ثلاث وعشرين ونزلوا بساحل جدة في ثمانية وعشرين قطعة بين غراب وبرشة، وكان ذلك في عشية يوم الجمعة سادس عشر من ربيع الأول، أو خامس عشرينه، وحصل للناس وجل عظيم وأيقنوا بالأخذ، ونزل الناس إلى جدة وأتوا إليها من المدينة المشرفة وغيرها، لكن أهل المدينة لم يصلوا إلا بعد أن رد الله الذين كفروا بغيظهم، وكان اجتمع بجدة قبل وصولهم خلق كثير؛ لأن الناس سمعوا بهم قبل وصولهم بمدة وحصن الناس جدة بالمدافع، ثم إن الله تعالى ألقى في قلوبهم الرعب وحبسهم عن النزول إلى البر بما حبس به الفيل، فلم ينزلوا ولم يقاتلوا وأقاموا نحو خمسة أيام، ثم إنهم رجعوا من غير قتال، فتلا الناس هذه الآية كأنها أنزلت في تلك الساعة ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ ثم إنهم تشتتوا وتفرقوا وأهلكهم الله وأدركهم الأمير سلمان أمير جدة وغنم منهم غرابا (سفينة حربية) وأخذه وأسر من فيه، واتفق عند رجوعهم من جدة أن تأخر منهم غراب، فأراد الأمير سلمان إدراكه فنزل إليه، فلما قرب منه رجع عليه منهم نحو عشرة أغربة، فقصدهم فشق ذلك على المسلمين خوف أن يظفروا به، فقدر أنهم أطلقوا على الكفرة مدفعا فرجع عليهم وأحرق شراعهم وأحرق بعضهم، رأيت منهم نحو

الثلاثة محرقين، فلما رأى الأمير ذلك رجع بسرعة إلى جدة فلم يدركوه، وشنق الذي أطلق المدفع، فإنه يقال: إنه فعل ذلك عمدا؛ لأنه حديث عهد بالإسلام، ويقال إن إسلامه في الظاهر فقط والله أعلم.

وفي ذلك اليوم رآهم الناس من بعد قرب البر، فظنوا أنهم نزلوا إلى البر فخرجوا إليهم وساروا إلى القرب منهم، فلم ينزل منهم أحد أسأل الله أن يخذلهم ويكف شرهم عن المسلمين آمين، ودهلك المذكورة قال عياض: بفتح الدال اسم ملك من ملوك السودان وبه سمي البلد، وهو جزيرة ساحل البحر من جهة اليمن، قال: وتلك الناحية أقصى تهامة اليمن، قال عياض: دهلك أقدم من الزمن الذي تكلم فيه مالك، انتهى.

ولم أقف على حقيقة ذلك ما هو والله أعلم، ثم في سنة ست وعشرين أتوا إلى قرب جدة ورجعوا مخذولين، ثم في جمادى الأولى من سنة تسع وعشرين أشيع أنهم واصلون إلى جدة، وتتابع الخبر بذلك إلى رابع جمادى الأخيرة، فجاء الخبر بأنه مر بعض الجلاب على مواضع قريبة من جدة وسمع مدافع كثيرة فيه، فما شك الناس أنهم أعداء الله الكفرة وأنهم واصلون في القرب، فبادر الناس إلى النزول إلى جدة وإلى تحصينها بالمدافع والآلات وأقاموا بها مدة، ثم لم يظهر لهم خبر ولم يأت منهم أحد بعد تلك السنة ولله الحمد، غير أنه في بعض السنين يذكر أن بعض مراكب منهم في البحر في طريق عدن وسواحل اليمن إلى سنة تسع وأربعين وتسعمائة، فجاء منهم بعض أغربة في تلك السنة إلى أن وصلوا إلى ساحل جدة، وأخذوا بعض الجلاب الواصلة إلى جدة من الشام ومن اليمن، وفيها جماعة من الحجاج فك الله أسرهم ونصر المسلمين وألهمهم رشدهم وخذل الكفرة ورد كيدهم في نحرهم آمين آمين" انتهى.

ولهذا ذكر بعض العلماء المالكية في ذلك حدا فقال: "إذا نزل العدو بموضع مرة؛ فهو رباط أربعين سنة" وهذا في الحقيقة لا يرجع إلى التحديد بالسنوات، وإنما إلى الواقع والظرف الذي يعيشه الناس، فما دام أنه يخاف أن يأتيهم العدو من تلك الجهة، وكانت نسبة الخوف في ذلك ليست ضئيلة أو مستبعدة، فيكون رباطا، بل قد يكون بعض الرباطات لم يأت العدو من جهتها ولا مرة واحدة، ولكن الظرف الواقعي يحتمل وروده بنسبة ليست ضئيلة، فيكون رباطا بذلك.

وإنما يتفاوت فضل الرباط وأجره بتفاوت الوصف من مكان إلى آخر، فكلما كان المكان المقام به أشد خوفا والحاجة فيه ملحة كان الرباط أفضل، فالإخوة المرابطين في الجبهات وخطوط التماس مع العدو أفضل من الاخوة المرابطين في الخطوط الخلفية وفي المنازل وغيرها، وهم أولى الناس بدخولهم في حقيقة الرباط وأكثر

المرابطين أجرا لكونهم أشد خوفا وخطرا، قال ابن قدامة في المغني ": وأفضل الرباط المقام بأشد الثغور خوفا؛ لأنهم أحوج، ومقامه به أنفع، قال أحمد: أفضل الرباط أشدهم كلبا" انتهى.

وجاء في مسائل أبي داود للإمام أحمد (310) " باب: مواضع الرباط:

قلت لأحمد " المقام بعين زربة (وهي موضع بجانب طرسوس) أحب إليك أم بطرسوس لرجل لا يغزو؟ قال: حيث يكونون إليه أحوج، قلت: إنهم ليست (لهم) نكاية في العدو، ولا يمكنهم أن يطلبوهم، أعني: في النفير؟ قال: ما أصنع بالنكاية! إنما أنظر إلى حيث هم أحوج إليهم.

قلت لأحمد: عبادان رباط؟ قال: نعم، قلت لأحمد: الرجل أحب إليك أن يحج أو يشهد الفداء (أي يشهد مفاداة الاسرى في الثغور) ؟ قال: قد حج؟ قلت: حج، قال: يشهد الفداء أحب إلي "انتهى، ما بين الأقواس زيادة مني للتوضيح.

وقال ابن رشد في المقدمات الممهدات (364/1) " والأجر فيه على قدر الخوف من ذلك الثغر وحاجة أهله إلى حراستهم من العدو" انتهى.

وقال المناوي في الفيض (134/6) " تنبيه: قال ابن حبيب: الرباط شعبة من الجهاد، وبقدر خوف ذلك الثغر يكون كثرة الأجر "انتهى.

وهذا الوصف يختلف باختلاف الزمان والمكان، فقد يكون في زمان هذا المكان أشد خوفا من غيره، وقد يقل الخوف في المكان في زمن آخر.

وقد جاء عن بعض السلف تفضيل الرباط بالثغور التي تحاذي أهل الكتاب، لكونهم أشد كلبا على المسلمين وأخطرهم على الدين من عامة المشركين، فقد كان الامام ابن المبارك خراسانيا ومع ذلك كان يترك ثغور خراسان ويأتي ويرابط في طرسوس وما حولها من ثغور الروم، فقد جاء في بغية الطلب في تاريخ حلب (203/1) " عبد الله بن مُحَمَّد بن ربيعة المصيصي يقول: حضرت أبا إسحاق الفزاري وابن المبارك، قال أبو إسحاق الفزاري لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن تركت ثغور خراسان الواشجرد وقزوين وقد قال الله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**﴾! فقال: يا أبا إسحاق وجدت آية أوكد من هذه، قال الله عز وجل: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾، قال: ثم قال: هؤلاء

يقاتلون على دنيانا، يعني الترك والديلم، وهؤلاء يحاربونا على ديننا، يعني الروم، فأيما أولى الذّب عن ديننا أو عن دنيانا؟ قال: لا بل عن ديننا، لا بل عن ديننا" انتهى.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله في جامع المسائل (357/5) مبينا أن السلف على طريقتين في الرباط "وكانوا على طريقتين:

إحداهما: أن يرابط كل قوم بأقرب الثغور إليهم، ويقاتلون من يليهم. كقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**﴾.

وهذا اختيار أكثر العلماء كالإمام أحمد وغيره، ولهذا كان أصحاب مالك كابن القاسم ونحوه يرابط بالثغور المصرية.

والطريقة الثانية: يجوزون الرباط بثغور الشام ونحوها بما فيه قتال النصارى. فكان عبد الله بن المبارك يقدم من خراسان فيرابط بثغور الشام، وكذلك إبراهيم بن أدهم ونحوهما، كما كان يرابط بها مشايخ الشام كالأوزاعي وحذيفة المرعشي ويوسف بن أسباط وأبي إسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين وأمثالهم. وكان المسلمون قد فتحوا قبرص في خلافة عثمان، وبقيت تحت حكمهم أكثر من ثلاثمائة سنة. وكانت "سيس" ثغر المسلمين، و"طرسوس" كانت من أسماء الثغور، ولهذا تذكر في كتب الفقه المصنفة في ذلك الوقت، وتولى قضاءها أبو عبيد الإمام وصالح بن أحمد بن حنبل وغيرهما".

ثم قال "وإنما اختار من اختار الرباط بثغور النصارى للحديث الذي في سنن أبي داود عن ثابت بن قيس قال: جاءت امرأة إلى النبي – ﷺ – يقال لها أم خلاد وهي منتقبة تسأل عن ابنها وهو مقتول، فقال لها بعض أصحاب النبي – ﷺ –: جئت تسألين عن ابنك وأنت منتقبة! فقالت: إن أرزأ ابني فلن أرزأ حيائي، فقال رسول الله – ﷺ –: «**ابنك له أجر شهيدين**» قالت: ولم ذاك؟ قال: «**لأنه قتله أهل الكتاب**»" انتهى.

قال شيخ الإسلام في المجموع (52/27): " فلذلك كان صالحو المؤمنين يرابطون في الثغور، مثل ما كان الأوزاعي، وأبو إسحاق الفزاري، ومخلد بن الحسين، وإبراهيم بن أدهم، وعبد الله بن المبارك، وحذيفة المرعشي، ويوسف بن أسباط، وغيرهم، يرابطون بالثغور الشامية، ومنهم من كان يجيء من خراسان والعراق

وغيرهما للرباط في الثغور الشامية ؛ لأن أهل الشام هم الذين كانوا يقاتلون النصارى أهل الكتاب، وفي السنن عن النبي صلى الله عليه واله وسلم أنه قال: «**من قتله أهل الكتاب فله أجر شهيدين**» وذلك لأن هؤلاء يقاتلون على دين، وأما الكفار الترك ونحوهم فلا يقاتلون على دين، فإذا غلبوا أولئك أفسدوا الدين والملك، وأما الترك فيفسدون الملك وما يتبع ذلك من الدين، ولا يقاتلون على الدين.

ولهذا كثر ذكر (طرسوس) في كتب العلم والفقه المصنفة في ذلك الوقت، لأنها كانت ثغر المسلمين، حتى كان يقصدها أحمد بن حنبل، والسري السقطي؛ وغيرهما من العلماء والمشائخ للرباط، وتوفي المأمون قريبا منها " انتهى كلامه.

وقد روى ابن جرير في تفسيره (17487) من طريق يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**﴾، قال: كان الذين يلونهم من الكفار العربُ، فقاتلهم حتى فرغ منهم. فلما فرغ قال الله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ حتى بلغ، ﴿**وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ قال: فلما فرغ من قتال من يليه من العرب، أمره بجهاد أهل الكتاب. قال: وجهادهم أفضل الجهاد عند الله.

وروى (17486) من طريق علي بن سهل قال، حدثنا الوليد قال، سمعت أبا عمرو، وسعيد بن عبد العزيز يقولان: يرابط كل قوم ما يليهم من مَسَالحهم وحصونهم، ويتأوَّلان قول الله عز وجل: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**﴾.

وقد جاء في مسائل ابن هانئ كما في الجامع لعلوم الإمام أحمد (396/8) " قال ابن هانئ: سألت أبا عبد الله عن الرجل بحضرته العدو –كان ببلاد الترك – وهو يريد أن يخرج إلى طرسوس فيقاتل؟

قال أبو عبد الله: وقرأ هذه الآية ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**﴾ ليس لأحد أن يخرج من بلاده وبها العدو فيقاتل غيرهم.

قال ابن هانئ: ورأيته عاب على ابن المبارك خروجه إلى طرسوس.

قال ابن هانئ: سألته عن رجل خرج من بلاده يريد التجارة بأرض فنوى أن يغزو فيخرج إلى طرسوس وهو من خراسان وبحضرة بلاده ثغر؟

قال: لا يخرج، وليخرج إلى بلاده فليجاهد من بحضرته من الأعداء" انتهى.

وفي الجامع أيضا (396/8) نقلا عن طبقات الحنابلة " قال أحمد بن أبي عوف: حضرت أبا عبد الله – أحمد بن حنبل – وسأله رجل خراساني: إن أمي أذنت لي في الغزو، وإني أريد الخروج إلى طرسوس فما ترى؟

فقال له: اغز الترك، واحسب أبا عبد الله ذهب إلى قوله الله تعالى : ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**﴾" انتهى.

قال ابن قدامة في المغني (202/9) "(ويقاتل كل قوم من يليهم من العدو) الأصل في هذا قول الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**﴾ ولأن الأقرب أكثر ضررا، وفي قتاله دفع ضرره عن المقابل له، وعمن وراءه، والاشتغال بالبعيد عنه، يمكنه من انتهاز الفرصة في المسلمين؛ لاشتغالهم عنه. قيل لأحمد: يحكون عن ابن المبارك أنه قيل له: تركت قتال العدو عندك، وجئت إلى هاهنا؟ قال: هؤلاء أهل الكتاب.

فقال أبو عبد الله: سبحان الله، ما أدري ما هذا القول، يترك العدو عنده، ويجيء إلى هاهنا، أفيكون هذا، أويستقيم هذا، وقد قال الله تعالى ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ**﴾ لو أن أهل خراسان كلهم عملوا على هذا، لم يجاهد الترك أحد. وهذا والله أعلم إنما فعله ابن المبارك لكونه متبرعا بالجهاد، والكفاية حاصلة بغيره من أهل الديوان وأجناد المسلمين، والمتبرع له ترك الجهاد بالكلية، فكان له أن يجاهد حيث شاء، ومع من شاء. إذا ثبت هذا، فإن كان له عذر في البداية بالأبعد؛ لكونه أخوف، أو لمصلحة في البداية به لقربه وإمكان الفرصة منه، أو لكون الأقرب مهادنا، أو يمنع من قتاله مانع، فلا بأس بالبداية بالأبعد، لكونه موضع حاجة" انتهى.

***

فصل العلاقة بين الجهاد والرباط

للجهاد شعب وأعمال كثيرة منها الحراسة والغدوة والروحة، وغير ذلك، ومن أعمال الجهاد وشعبه الرباط في سبيل الله، فهو تابع للجهاد، وقد سبق ذكر قول ابن حبيب الذي نقله المناوي أن الرباط شعبة من الجهاد.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى (531/3) " لأن الرباط من جنس الجهاد" انتهى.

قال ابن الهمام في فتح القدير (436/5) " ومن توابع الجهاد الرباط" انتهى.

وقال ابن المناصف في الانجاد في أبواب الجهاد (91) " والرباط عمل من أعمال الجهاد" انتهى.

وقد روي من مرسل الزهري عن النبي صلى الله عليه واله وسلم قوله «**يأتي على الناس زمان يكون أفضل الجهاد فيه الرباط، والرباط أصل الجهاد وفرعه**» رواه أبو حزام بن يعقوب الحنبلي في " الفروسية "كما في السلسلة الضعيفة للألباني (393/4) والحديث مرسل، وكذلك ضعفه الألباني في نفس المصدر لبعض رواته، وقد رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث عن الزهري أنه قال " أصل الجهاد وسنخه الرباط " والأصل والسنخ بمعنى واحد، قال ابن الأثير في معناه في النهاية (408/2) " يعني المرابطة عليه " أي على الجهاد.

وقد نقل ابن قدامة في المغني (204/9) عن الامام أحمد قوله " والرباط دفع عن المسلمين وعن حريمهم، وقوة لأهل الثغر ولأهل الغزو؛ فالرباط أصل الجهاد وفرعه" انتهى.

والذي يظهر أن مقصودهم هو أن الجهاد ينبي على الرباط في كثير من الأحوال، فلا يمكن أن يجاهد حتى يرابط ويحبس نفسه على الغزو، وفي هذا يقول الحليمي في المنهاج في شعب الايمان (492/2) " والمرابطة في سبيل الله نزل من الجهاد والقتال منزلة الاعتكاف في المساجد من الصلاة، لأن المرابط يقيم في وجه العدو متأهبًا مستعدًا، حتى إذا أحس من العدو تحركه أو غفلة، نهض فلا يفوته بالتأهب والإتيان من بعد فرضه، إن كانت أعرضت ولا يتعذر عليه تدارك خلل إن وقع، فيترامى ويعظم ويصير إلى أن يسبق تلاقيه، كما أن المعتكف يكون في موضع الصلاة مستعدًا، فإذا دخل الوقت وحضر الإمام قام إلى الصلاة ولم

يشغله عن إتيان المسجد شاغل، ولا حال بينه وبين الصلاة مع الإمام حائل، ولا شك في أن المرابطة أشق من الاعتكاف، فإذا كان الاعتكاف مستحبًا مندوبًا إليه، فالمرابطة مثله والله أعلم" انتهى.

يقول الشيخ عبد الله عزام رحمه الله في تسجيل صوتي حول الرباط " والرباط أصعب على النفس من القتال والجهاد هو القتال، فلا بد أن يسبق الجهاد هجرة ورباط، ثم يتبعه القتال وهو القمة العظمى وذروة السنام " انتهى.

ويقول في توضيح العلاقة بين الجهاد والرباط " الجهاد فترات محدودة والرباط فترات طويلة، ولا تستطيع القتال بدون الرباط الطويل، ويعتبر القتال كدرة والرباط كتاج، فالقتال درة في تاج، كما أن الدرة وحدها لا جمال لها بدون تاج، كذلك التاج جماله هذه الدرة، فالدرة وحدها لا تقوم والتاج وحده بدون الدرة غير جميل".

وقال " كنا نتكلم بالأمس عن الرباط وقلنا: إن الجهاد له أربعة مراحل: الهجرة، فالإعداد، فالرباط، فالقتال، وهي حلقات متواصلة متصلة ببعضها البعض تكون سلسلة الجهاد، فالجهاد سلسلة مكونة من أربع حلقات، الحلقة الأولى الهجرة، الحلقة الثانية الإعداد، الحلقة الثالثة الرباط، الحلقة الرابعة القتال.

والذين لا يعدون لا يقاتلون، والذين لا يرابطون هؤلاء لا يمكن أن يصبروا على القتال، لأن الرباط كانتظار الصلاة في المسجد، والقتال الصلاة، فمن أراد أن يحضر صلاة الجماعة، ولا تفوته، فعليه بالرباط بانتظار الصلاة بعد الصلاة حتى لا تفوته تكبيرة الإحرام ولا تفوته الجماعة والذين يرابطون في أرض القتال هؤلاء لا تفوتهم المعارك ولا تفوتهم صلاة الجماعة، والذين يريدون أن يأتوا للقتال فقط، هؤلاء لا يقاتلون لأنك لا تدري متى تكون المعركة" انتهى.

***

فصل التفاضل بين الرباط والقتال

من شعب الجهاد أيضا وأعماله قتال الكفار ومباشرة ذلك، بل يعد ذروة سنامه، وهو الأصل في الجهاد عند الإطلاق.

كما جاء عن عمرو بن عبسة ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال: «**أن يسلم قلبك لله عز وجل وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك**...... » قال: وما الجهاد ؟ قال: «**أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم**» رواه أحمد (17027)، ففسر الجهاد بالقتال.

وفقرتنا هذه هي في الكلام على التفضيل بين الرباط في سبيل الله وبين قتال الكفار ومباشرته أيهما أفضل؟

اختلف في ذلك العلماء على قولين:

الأول: أن القتال أفضل من الرباط، واستدلوا على ذلك:

أولا: روى ابن حبان في صحيحه (4865) عن عتبة بن الندر ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: «**إذا انتاط غزوكم وكثرت العزائم، واستحلت الغنائم، فخير جهادكم الرباط**» وهو ضعيف ولكن له شواهد موقوفة كما سيأتي إن شاء الله.

قال ابن النحاس في المشارع (351/1) " قوله: «**انتاط**»، يعني بعد.

وقوله: «**وكثرت العزائم**» يعني حمل السلطان عليهم شدة الأمر والعزم فيما يشق عليهم لبعد المغزى، وقلة عونهم عليه، وغير ذلك " انتهى.

والمراد باستحلال الغنائم منعها من مستحقيها ظلما.

فدل على أنه إذا لم يكن هذا الوصف الطارئ وهو بعد الغزو مع كثر العزائم واستحلال الغنائم موجودا أن الغزو والقتال أفضل وهذا هو الأصل، وأنه لا يكون خير الجهاد الرباط حينئذ.

قال ابن النحاس في المشارع (351/1) " قال أبو الوليد ابن رشد في المقدمات بعد ذكر هذا الحديث: دل ذلك من قوله على أن الجهاد على السنة أفضل من الرباط، وكذلك روى ابن القاسم عن مالك " انتهى.

وروى عبد الرزاق (9621) عن ابن عيينة عن موسى بن أبي عيسى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «عليكم بالجهاد ما دام حلوا خضرا، قبل أن يكون ثمامًا، أورمامًا، أو حطامًا، فإذا انتطئت المغازي، وأكلت الغنائم، واستحلت الحرم فعليكم بالرباط، فإنه أفضل غزوكم».

قال ابن النحاس في المشارع (352/1) " الثمام: بضم الثاء المثلثة جمع ثمامة، قال ابن فارس: وهي شجرة ضعيفة.

وقال الجوهري: الثمام نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص وربما حشي به، وسد به خصاص البيوت.

ومعناه، قال الهروي: يريد اغزوا، وأنتم تنصرون وتوفرون غنائمكم قبل أن يهن ويضعف، فيكون كالثمام، والرمام اليابس والحطام الذي ينكسر ويتحطم " انتهى.

وروى ابن أبي شيبة (19459) عن أبي أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثنا خالد بن معدان قال: سمعت أبا أمامة وجبير بن نفير يقولان: «يأتي على الناس زمان، أفضل الجهاد الرباط، فقلت: وما ذاك؟ قال: إذا انتاط الغزو، وكثرت العزائم واستحلت الغنائم، فأفضل الجهاد يومئذ الرباط».

وروى القشيري في تاريخ الرقة ومن نزلها (99) بإسناده عن عمر بن يزيد القباب قال : سألت أبا المهاجر (سالم بن عبد الله الرقي) عن الجهاد ؟ فقال: الرباط في آخر الزمان أحب إلي منه.

ثانيا: أن الأدلة جاءت كثيرة ومصرحة بتفضيل الجهاد مطلقا على جميع الأعمال، والأصل عندما يطلق الجهاد أنه يراد به القتال، ولهذا فسره النبي صلى الله عليه واله وسلم بذلك في الحديث السابق، وهذا يدل على تفضيله على جميع الأعمال وحتى أعمال الجهاد، ومن ذلك الرباط ولم يأت نص واحد في الرباط يدل على تفضيله على غيره من الأعمال بإطلاق.

ثالثا: أن مباشرة القتال أشق وأخوف على النفس من الرباط، والأجر والتفضيل في الجهاد على حسب المشقة والخوف أيضا.

نقل ابن قدامة في المغني (204/9) عن الإمام أحمد قوله " فالرباط أصل الجهاد وفرعه، والجهاد أفضل منه للعنت والمشقة" انتهى.

وسيأتي تحرير هذه المسألة إن شاء الله أيهما أشق الجهاد أم الرباط.

وجاء في مسائل أبي داود للإمام أحمد(310) " سمعت أحمد، يقول: " ليس يعدل عنه ناشئ من الأعمال: الغزو ثم الرباط " انتهى.

وفي مسائل الإمام أحمد لابن هانئ كما في الجامع لعلوم الإمام أحمد (377/8) قال " الغزو أفضل من الرباط" انتهى.

وفيه (378/8) " قال ابن هانئ: وسأله رجل فقال له : أخرج إلى طرسوس أو إلى عبادان وأنا قيم مسجد ليس فيه غيري؟

فقال: ليس شيء يعدل أبواب البر إلا الجهاد في سبيل الله أفضل من الرباط " انتهى.

وفي مسائل عبد الله لأبيه الإمام أحمد (252) " قلت لأبي: الخروج إلى الغزو أفضل أم الصدقة بدل ذلك أم الجلوس في الرباط ؟ فقال أبي: ليس يعدل لقاء العدو والمباشرة بنفسه وبعد ذلك الرباط " انتهى.

وفي مسائل أبي داود للإمام أحمد (317) " قلت لأحمد " الخروج في السرايا أحب إليك أو لزوم الساقة؟ قال: ما كان أنكى في العدو، ثم قال: لا يعدل عندي السرايا شيء" انتهى.

والمقصود بالخروج في السرايا هو غزو العدو ولزوم الساقة هو التخلف من ورائهم حفظا للثغر.

وجاء في نفس المصدر (318) أن أبا داود سأله "وسألته عن التقدم يوم المغار أحب إليك أو يتخلف في الساقة؟ قال: ما كان أحوط، قلت: أحوط هذا – أعني التخلف أحوط – وهؤلاء يجيئون بالغنائم؟ قال: ما يصنع بالغنائم!، إنما يراد سلامة المسلمين ".

ويوم المغار المقصود به الإغارة على العدو، ويجمع بينهم أنه إذا كان المقصود فقط الإغارة لجمع الغنائم فالمكوث خلف من ذهب أفضل.

رابعا: أن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال في الرباط: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه**» رواه مسلم (1913) وقال في الجهاد والقتال «**فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما**» رواه الترمذي (1650)، وقال أيضا في الجهاد : «**موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود**» رواه ابن حبان (4603)، فأجر الجهاد هنا أفضل وأعظم من أجر الرباط.

خامسا: أن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال في عمل من أعمال الجهاد «**لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها**» متفق عليه (خ2796، م1880).

وقال صلى الله عليه واله وسلم «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها**» متفق عليه (خ 2892، م 1913).

قال السفاريني في كشف اللثام شرح عمدة الاحكام (159/7) " فإن قلت: من أفضل الرباط وإلا الجهاد؟

فالجواب: أنها مسألةُ خلاف، إلا أن الجهاد أفضلُ من الرباط؛ لأن الرباط يراد للجهاد، وهو من شُعبه وتَعَلُّقاته.

والحديث ظاهر في تفضيل الجهاد عليه؛ لأنه رتب على رباط يوم من الثواب مثلَ ما رتَّب على الغدوة والروحة، مع كثرة العمل في اليوم، وقلَّته في الروحة والغدوة.

قال علماؤنا: وأفضلُ ما يُتطوَّع به الجهادُ، وهو أفضل من الرباط؛ لأنه أشقُّ، وهو مقصود في نفسه، والرباطُ وسيلة، ولأن فيه حقنَ دماء المسلمين، وسفكَ دماء الكافرين" انتهى.

قال ابن العربي في المسالك في شرح موطأ مالك (19/5) موضحا علو رتبة الجهاد على الرباط " الفائدة السادسة: قال علماؤنا: ورباط الخيل والنفس من عدة الجهد، ولا يبلغ درجة الجهاد " انتهى.

وقال الباجي في المنتقى (162/3) " وقد سئل مالك أيما أحب إليك الرباط أم الغارات على العدو؟ قال: أما الغارات فلا أدري، كأنه كرهها، وأما السير في أرض العدو على الإصابة – يريد السنة – فهو أحب

أبي، ووجه ذلك أنه كره الغارات لما كانوا يقصدون بها من أخذ الأموال، وربما غلوا، وأما السير في أرض العدو وهو الغزو على الإصابة للحق والسنة لتكون كلمة الله هي العليا ولا يغل ويطيع الأمير في الحق فهو أفضل، لأن فيه زيادة على الرباط دخول أرض العدو وإهانته " انتهى.

قال في الإنصاف (161/2) " واعلم أن تحرير المذهب في ذلك أن أفضل التطوعات مطلقا الجهاد على الصحيح من المذهب، نص عليه، وعليه جماهير الأصحاب متقدمهم ومتأخرهم، قال في الفروع: الجهاد أفضل تطوعات البدن أطلقه الإمام أحمد والأصحاب، والصحيح من المذهب أيضا أنه أفضل من الرباط، وقيل الرباط أفضل وحكي رواية.

وقال الشيخ تقي الدين – أي ابن تيمية – " العمل بالقوس والرمح أفضل من الرباط في الثغر، وفي غيره نظيرها "انتهى.

وهنا أمر يجب الالتفات إليه وهو أننا وإن قلنا بأن القتال أفضل، فإن ذلك غير الكلام في مطلق أجر المجاهد في سبيل الله، فعند المقارنة ما بين مطلق أجر المجاهد في سبيل الله — أي أدنى ما يحصل عليه من الأجر — فإن مطلق أجر المرابط أفضل من مطلق أجر المجاهد، فقد جاء في مطلق أجر المجاهد عن أبي هريرة ﷺ قال: قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: «**لا تستطيعونه**»، قال: فأعادوا عليه مرتين، أو ثلاثا كل ذلك يقول: «**لا تستطيعونه**»، وقال في الثالثة: «**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام، ولا صلاة، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى**» متفق عليه (خ 2787، م 1878)، فمثله بمثل رجل قائم يصلي ويصوم، بينما مطلق أجر المرابط أن له في أجر رباط يوم وليلة كأجر صيام شهر وقيامه، وهناك فارق بين أجر صيام شهر وقيامه وأجر صيام يوم وقيامه.

القول الثاني: أن الرباط أفضل من القتال، واستدلوا على ذلك:

أولا: روى سعيد بن منصور (2412) عن إسماعيل بن عياش عن عصمة بن راشد عن أبيه قال: سمعت رجالا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – يفضلون الرباط على الجهاد، قلت لأبي: ولم ؟ قال: لأن في الجهاد شروطا كثيرة ليست في الرباط.

ورد عليهم بأن هذا التفضيل ليس على الإطلاق، بل تفضيل وجهي بأن شروط وقيود الجهاد كثيرة وليس كذلك في الرباط، وهذا لا يدل على أن الرباط أحب إلى الله وأكثر أجرا من القتال، وهذا التفضيل الوجهي لا يستلزم الفضل المطلق، وأن يكون هذا العمل أحب إلى الله تعالى وأعظم أجرا من غيره، بل قد يكون وجود الشروط والقيود الكثيرة في الجهاد هو سبب تفضيله من حيث المشقة والعنت الذي يلحق المجاهد في تطبيقها.

الثاني: ما جاء عن ابن عمر ﷺ أنه قال «فرض الله الجهاد لسفك دماء المشركين، والرباط لحقن دماء المسلمين، وحقن دماء المسلمين أحب إلي من سفك دماء المشركين ».

وأجيب عنه بأجوبة:

أولا: قد بحثت عن هذا الأثر ولم أجد من خرجه، فإن لم يثبت يبقى الرد على العلة التي علل بها.

الثاني: أن ما علل به في هذا الأثر من الرباط فيه حقن دماء المسلمين صحيح، ولكن أيضا الجهاد والقتال فيه حقن لدماء المسلمين، فإن جهاد الكفار يكف بأسهم وتضعف شوكتهم عن غزو المسلمين، فيتحقق في ذلك مقصد الرباط وزيادة من النكاية في الكفار.

قال الباجي في المنتقى (162/3) على هذا الأثر " قال أبو الوليد ووجه ذلك عندي – والله أعلم – أن يكون الخوف بثغر من الثغور قد اشتد حتى خيف على أهله من عدوهم، فاستنفروا لإدراك ذلك الثغر، فإن قصد ذلك الثغر حينئذ يكون أولى لأن حقن دماء أهله أفضل من سفك دماء المشركين، وإما أن يكون رجل من المسلمين يقصد ثغرا من الثغور للرباط فيه لا لعدو يترقب نزوله، ويترك الغزو إلى بلاد العدو فقد ترك الأفضل، لأن دخوله إلى أرض العدو نكاية فيهم وإهانة لهم وفيه مع ذلك حفظ للمسلمين، لأن نكاية العدو تضعفهم عن غزو المسلمين، وقد قال علي بن أبي طالب ﷺ «ما غزا قوم في عقر دارهم إلا ذلوا » " انتهى.

الثاني: أن ابن عمر قال ذلك حين دخل في الجهاد ما دخل، قاله ابن حبيب كما نقله عنه الباجي في المنتقى (162/3)، وهذا الجواب ضعيف لأن ابن عمر علل التفضيل في الأثر نفسه، فلا يعلل بغيره.

وقد قال ابن المناصف في الانجاد في أبواب الجهاد (93) " قلت: لعله إنما يعني مثل قول مالك في فساد الغزو، ومحدثات الأمور فيه، حتى لا يخلى منه إلا سفك دماء المشركين مجردا، دون الاهتمام بحدود ذلك، وحقوقه الواجبة في الجهاد، أو إنما يعني حالة يضطر فيها أهل ثغر من المسلمين إلى الحراسة؛ لشدة الخوف عندهم، وتوقع هجوم العدو في اهتبال غفلة، أو إصابة غرة، والله أعلم.

فأما أن يكون ذلك على الإطلاق، فلا يستقيم أن يقال: الرباط أفضل من الجهاد؛ لأن الجهاد فرض برأسه، كسائر الأركان، والرباط لا يجب إلا لعارض الخوف.

وأيضا، فلا نقول: إن الجهاد فرض لسفك دماء المشركين، حتى إذا قوبل بحقن دماء المسلمين كان الرباط أولى، لكن نقول: فرض الجهاد لأن تكون كلمة الله هي العليا، وتلك خصوصية لا تعادل، ولا يفاضل عليها بحال، وفي كل ذلك –والحمد لله– أجر كبير، وفضل عظيم" انتهى.

الثالث: من أدلة تفضيل الرباط ما جاء عن عثمان ﷺ مرفوعا «**رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل**» والترمذي – وحسنه – (1667) والنسائي (3169).

قال المناوي في الفيض (14/4) " فجعل حسنة الجهاد بألف، وأخذ البعض من تعبيره بالجمع المحلى بلام الاستغراق (أي في قوله المنازل)، أن المرابط أفضل من المجاهد في المعركة، وعكسه بعضهم مجيبا بأن الحديث في حق من فرض عليه الرباط وتعين بنصب الإمام، قال في المطامح: اختلف هل الأفضل الجهاد أم الرباط ؟ والحديث يدل على أن الرباط أفضل لأنه جعله الغاية التي ينتهي إليها أعمال البر، والرباط بحقن دماء المسلمين والجهاد بسفك دماء المشركين، فانظر ما بين الدمين حتى يصح لك أفضل العملين " انتهى.

والجواب عن هذا:

أن بعض المحدثين ضعف هذا الحديث.

وعلى تقدير ثبوته فإنه مخصوص بالأدلة التي تدل على فضل القتال وقد سبقت.

الرابع: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلى الله عليه واله وسلم قال «**الشهيد يغفر له في أول دفقة من دمه، ويزوج حوراوين، ويشفع في سبعين من أهل بيته، والمرابط إذا مات في رباطه؛ كتب له أجر عمله إلى**

يوم القيامة، وغدي عليه وريح برزقه، ويزوج سبعين حوراء، وقيل له: قف؛ فاشفع إلى يفرغ من الحساب» أخرجه الطبراني في الأوسط (3299).

قال الصنعاني في التنوير (559/6) " دل أنه أفضل من الشهيد المقتول وإن مات على فراشه في الرباط وذلك أنه بتوطين نفسه على الرباط ونكاية الأعداء نال كرامة أبلغ من كرامة الشهداء فإن استشهد مرابطا كان أعظم أجراً" انتهى.

فما أعطاه للمرابط في هذا الحديث أعظم مما أعطاه للشهيد المقاتل.

والجواب: أن هذا الحديث لا يحتج به إسناده ضعيف فيه عدة علل وقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (476/11).

القول الثالث: أنه لا يقال أن القتال أفضل على الاطلاق أو الرباط أفضل على الاطلاق، وليس في هذا حد بل بحسب ما ينزل ويقع يكون الحكم، فقد يكون الرباط أفضل في أحوال كما إذا اشتدت حاجة المسلمين وعظم الخطر عليهم من جهة ثغر من الثغور، وقد يقال بأن القتال أفضل في حال استبعد الخوف وقلة الحاجة ونحو ذلك.

جاء في حاشية العدوي (17/2) " قوله: واختلف هل هو..الخ " فقيل هو أفضل، لأن فيه حقن دماء المسلمين وحقن دمائهم أفضل من سفك دماء المشركين، وقيل الجهاد أفضل لأن فيه الرباط وزيادة، ولأن فيه سفك دماء المشركين، وتأول ابن رشد أن ذلك بحسب الواقع وشدة الحاجة إلى الرباط وعدمها، فلا يقال: إن أحدهما أفضل من الآخر على الإطلاق، وأفضل مدته أربعون ليلة لحديث ورد فيه، ولا حد لأكثره.

قال الشيخ في شرحه: ويظهر لي فضل الجهاد على الرباط، لمزية من ذهب للقتال على من مكث في محل الخوف، وأفضل العبادات أحمزها أي أشقها " انتهى.

قال ابن رشد في البيان والتحصيل (521/2) " وسئل مالك أي ذلك أعجب إليك: الرباط أو الغارات في أرض العدو؟ قال: أما الغارات، فلا أدري كأنه كرهها؛ وأما السير في أرض العدو على الإصابة - يعني إصابة السنة فإنه أعجب إليّ. قلت له يا أبا عبد الله إن عندنا مدائن على البحر، وإنها قد ضيعت من الغزو وفيها جماعة حشو من نساء وصبيان، ويخاف عليهم؛ أفرباطها أعجب إليك؟ أم الدخول في أرض الروم؟

قال: ما زالت الولاة يضيعون مثل هذا، وما يدفع الله أكثر، وما في هذا حد، وما زال الله يدفع وما في هذا حد، إلا على ما يرى من ذلك.

قال مُحَمَّد بن رشد: قوله إن السير في أرض العدو على إصابة السنة أعجب إلي من الرباط، وهو مثل ما روي عن ابن وهب أنه قال: سمعت مالكا يقول: الغزو على الصواب، أحب إلي من الرباط؛ والرباط أعجب إلي من الغزو على غير الصواب؛ ولا إشكال في أن الرباط أفضل من الغزو على غير الصواب، فقد قال معاذ بن جبل: الغزو غزوان: فغزو تنفق فيه الكريمة وتياسر فيه الشريك، ويطاع فيه ذو الأمر، ويجتنب فيه الفساد؛ فذلك الغزو خير كله؛ وغزو لا تنفق فيه الكريمة، ولا تياسر فيه الشريك، ولا يطاع فيه ذو الأمر، ولا يجتنب فيه الفساد، فذلك الغزو لا يرجع صاحبه كفافا، وإنما الكلام في الغزو على الصواب، فجعله مالك في هذه الرواية أفضل من الرباط. وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: فرض الجهاد لسفك دماء المشركين، والرباط لحقن دماء المسلمين، فحقن دماء المسلمين أحب إلي من سفك دماء المشركين؛ ولا ينبغي أن يحمل هذا على أنه اختلاف من القول، إذ لا يصح أن يقال إن أحدهما أفضل من صاحبه على الإطلاق، وإنما ذلك على قدر ما يرى وينزل، فيحمل قول ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – على أن ذلك عند شدة الخوف على الثغور، وخوف هجوم العدو عليها، وما روي عن مالك من أن الجهاد أفضل عند قلة الخوف على الثغور، والأمن من هجوم العدو عليها، وذلك بين من قول مالك في هذه الرواية، لما ذكر له تضيع المدائن التي على البحر، والخوف على (من فيها) من النساء والصبيان؛ قال: ما في هذا حد، إلا على ما يرى من ذلك؛ ومن قوله في رسم "صلى نهارا ثلاث ركعات" بعد هذا: أن جهاد المصيصة أعجب إلي من الرباط، إلا إذا خيف على موضع الرباط، ولم يكن فيه غناء، وقد قيل: إن قول ابن عمر حين دخل الجهاد ما دخل، والتأويل الأول أولى – والله أعلم، وإنما كره مالك الغارات في الرواية استثقالا لاسمها لا لمعناها إذا كانت على وجهها، وهذا نحو من قوله عليه الصلاة والسلام لما سئل عن العقيقة: «**لا أحب العقوق**» كراهية الاسم. وقال: «**من ولد له ولد، فأحب أن ينسك عن ولده فليفعل**» " انتهى.

ويقول أيضا (522/2) عند أثر ابن عمر ﵁ السابق "والأظهر في تأويل ذلك أنه عند شدة الخوف على أهل ذلك الثغر، وتوقع هجوم العدو عليهم وغلبتهم إياهم على أنفسهم ونسائهم وذراريهم، إذ لا شك في أن إغاثتهم في ذلك الوقت وحراستهم مما يتوقع عليهم، أفضل من الجهاد إلى أرض العدو، فلا يصح أن

يقال: إن أحدهما أفضل من صاحبه على الإطلاق، وإنما ذلك على قدر ما يرى وينزل. وذلك قائم من قول مالك في سماع ابن القاسم من كتاب الجهاد" انتهى.

***

مشقة الجهاد ومشقة الرباط

في زمن مضى، قد يقل وجود من يقول بأن مشقة الرباط أشق من الجهاد، ومن قارن الحال في ذلك الزمان يعلم الفرق الشاسع بين الأمرين بين مجرد الرباط والملازمة بدون قتال وبين الجهاد القتال، حيث أن الجهاد والقتال أخوف وأصعب وأتعب وأشق، ففيه الموت والجراح، وفيه التعب والسهر وعدم الراحة، وفيه كثير من المشاق التي لا يوجد كثير منها في الرباط، بل الرباط يكون أكثر أمنا وأقل تعبا وأكثر راحة بأضعاف من الجهاد ومباشرة القتال، بل في زمن مضى وفي بعض أحوال البلاد المرابطون يعيشون حياتهم ويمارسون أعمالهم بصورة طبيعية كما يعيشها أي بلد، فيذهبون ويجيئون ويبيعون ويشترون ويتبادلون الزيارة والانس بما قد يصعب التفريق بينه وبين عيش أناس كثيرين ليسوا بمرابطين إلا بالنية والاحتساب.

ولكن في زماننا هذا يختلف الحال، فالمرابط قد يعيش سجنا وحبسا في رباطه، والذي قد لا يعدو أن يكون منزلا هنا أو منزلا هناك أو مترسا هنا أو مترسا هناك، ولا ينتقل عنه إلا قليلا، وهذا عند بعض الناس قد يكون أشق عليهم من الجهاد، بل أنك ترى الأخ يفرح بالقتال وتتوق نفسه لذلك لما فيه من كثرة الحركة والتنقلات بخلاف حاله مع الرباط الذي قد يصيبه بالكآبة، بل قد يحمله ذلك على ترك الجهاد والرجوع إلى الأهل والولد، والقصص كثيرة في ذلك، ومن آخر ما سمعت عن بعضهم أنه لما كان هناك للمجاهدين عمليات وقتال مع أعداء الله كان هو مع المجاهدين ويقاتل معهم بحركة ونشاط، فلما صار لهم كمون ورباط في بعض الأماكن وعدم ظهور لظروف مروا بها، قال: أنا سأرجع إلى أهلي ولا احتمل هذه الحياة، ولو كان هناك قتال فأنا مستعد، أما هذا فلا أطيقه.

وعندما تكون هناك عملية ويختار لها أناس يكونون مستعدين وفرحين ومتحمسين لذلك، وعندما يحصل هناك تأخير للعملية، ويكون هناك رباط لها تجد النفوس تتململ وتبدأ بالانسحاب والرجوع وترك العملية لوجود تأخير ونحوه.

وكم رجع من رجع من الجهاد لكونه أتى المجاهدين في زمن رباط وقلة قتال، فلم يصبر على ذلك ورجع، ولو كان هناك قتال لما كان عنده أدنى مانع من البقاء.

ولهذا الأمر وهذه المشقة التي تكون في الرباط ولا تكون في الجهاد جعل الشارع فضلا للذي يموت مرابطا، ولم يجعل للذي يموت شهيدا في الجهاد، وهو دوام أجر المرابط بعد موته إلى يوم القيامة كما ورد في الأحاديث الصحيحة، وذلك تحريضا للمرابط بأن يبقى في أرض رباطه حتى الموت ولا يتركه ويرجع مع أن كثيرا من خصائص وفضائل الرباط تتفق مع فضائل الشهيد إلا هذا الفضل.

والذي أريد أن أخلص إليه أن الحكم بصعوبة الرباط يختلف في الزمن بحكم أنه تعلق بالرباط بعض المشاق التي قد لا تكون موجود في الزمن الأول، فيختلف الحال باختلاف الأزمان وباختلاف الأماكن وباختلاف الأشخاص وما يتحملون، فبعضهم يقدر على الصبر على حال الرباط في زمننا ويشق عليه الجهاد، وبعضهم يشق عليه الرباط أكثر من الجهاد.

يقول الشيخ عبد الله عزام رحمه الله في تسجيل صوتي " ولقد خبرت الشعائر والعبادات ومارستها جميعا فما وجدت أصعب من الرباط، ما وجدت عبادة أثقل على النفس من الرباط، خاصة إذا طال الزمان وامتد الوقت وتفرق الناس وبقيت وحدك مع فئة قليلة حولك، وتزداد الآلام وتزداد مرارة المعاناة كلما وجدت الغثاء في الطريق، فإذا وجدت مجموعات بها بعض خلل أو بعض انحراف أو بعض تهاون في السنن أو عندهم بدع حولك كحمل حرز " انتهى.

ويقول في التجارة المنجية " والرباط: هي حبس النفس في الثغور حيث تخيف العدو ويخيفك انتظارا لمعركة، والجهاد – القتال – عموده الرباط وأن المعارك قليلة والرباط ممتد وطويل والنفس مع طول الانتظار تمل وتسأم خاصة حيث تقل الحركة ويقسوا الجو ويخشن العيش، وقد وجدنا أن أعظم مشكلة تواجهنا في الجهاد هي أن الأخوة لا يصبرون على طول الرباط فكان الإخوة المرابطون على الحدود لا يستمرون طويلا ولا يطيقون الصبر على الرباط فينزلون من الثغور إلى مدينة بيشاور" انتهى.

ولهذا كان لابد في الرباط من الصبر، فالرباط كما قلنا سابقا حبس النفس، وكذلك الصبر تعريفه حبس النفس، فكلاهما لابد فيهما من الحبس على هذا الشأن، ولهذا جاء الرباط في القرآن مسبوقا بالأمر بالصبر والمصابرة فقال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

ويقول الشيخ عبد الله عزام في كتاب التربية الجهادية والبناء " دعائم الرباط:

الله عز وجل ربط الفلاح في الدنيا بعوامل ثلاث: الصبر، والرباط، والتقوى، والصبر والتقوى دعامتان أساسيتان من دعائم الرباط، لأنه ما من عبادة أصعب من الرباط أبداً، لأنها فراغ وانتظار، وتبقى شهر، شهرين، ثلاثة، ستة أشهر، جالساً في رؤوس الجبال أو في قعر واد لا ترى إلا هؤلاء الأربعة أو الخمسة الذين معك في الخيمة، الحقيقة صعبة على الإنسان، يستوحش والنفس بطبيعتها تحب الخلطة مع الناس، نعم تحب رؤية الناس، تأنس برؤية الناس الذين عرفتهم، تستوحش إذا غابت الأمهات والآباء والأصدقاء والخلان، وعن المدن والعمارة وعن السيارة وغير ذلك، تستوحش إلا إذا أنساها الله عز وجل، وإلا إذا شرح صدورها للعبادة التي هي فيها، ولذلك الله عز وجل كان يشرح صدور الصالحين للعزلة، فيحبون أن يكونوا بعيدين عن الناس للعبادة لطلب العلم للذكر، فكيف إذا اجتمع الذكر والعبادة والرباط والجهاد والخلوة؟ هذه نعمة لا نظير لها أبداً، الرباط أو الجهاد مع الخلوة أفضل طريقين دل عليهما الرسول – ﷺ –: قالوا: يا رسول الله من أفضل الناس؟ قال: "**رجل مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**" قالوا: ثم أيّ؟ قال: " **رجل معتزل بشعب من الشعاب يعبد الله ويتقي الناس من شره**" فأنتم جمعتم الإثنتين، جمعتم الجهاد في سبيل الله، وجمعتم عبادة الله عز وجل في شعب، مكانكم هو شعب هو انفراج بين جبلين، يعبد الله ويدع الناس ويتقي الناس من شره، فالرباط قائم على الصبر، والنفس التي ليس لها صبر لا تستطيع أن تزاول العبادات، والنفس التي ليس لها صبر ليس لها إيمان كامل، وإنما الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فكما أنه لا جسد بلا رأس فإنه لا إيمان بلا صبر لأن كل العبادات تحتاج إلى صبر" انتهى.



الأمر بالإعقاب بين المرابطين والغزاة والنهي عن تجميرهم

عن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري، أن جيشا من الأنصار كانوا بأرض فارس مع أميرهم، وكان عمر يعقب الجيوش في كل عام، فشغل عنهم عمر، فلما مر الأجل قفل أهل ذلك الثغر، فاشتد عليهم وتواعدهم وهم أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: يا عمر، إنك غفلت عنا، وتركت فينا الذي «أمر به رسول الله ﷺ من إعقاب بعض الغزية بعضا» أخرجه أبو داود (2960).

قال الخطابي في معالم السنن (12/3) " الإعقاب أن يبعث الإمام في أثر المقيمين في الثغر جيشا يقيمون مكانهم وينصرف أولئك، فإنه إذا طالت عليهم الغيبة والغزية تضرروا به وأضر ذلك بأهليهم، وقد قال عمر ﵁ في بعض كلامه «لا تجمروا الجيوش فتفتنوهم» يريد لا تطيلوا حبسهم في الثغور" انتهى.

روى الامام أحمد (286) عن أبي فراس قال: خطب عمر بن الخطاب ﵁ فقال: «يا أيها الناس،......ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم».

وروى سعيد بن منصور في سننه (2461) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كتب عمر ﵁ إلى أمراء الثغور يأمرهم أن يأخذوا الرجال بالقفول إلى النساء، فإن فعلوا، وإلا أخذوهم بالنفقة، فإن أنفقوا وإلا أخذوهم بالطلاق، فإن طلقوا وإلا أخذوهم بالنفقة فيما مضى».

وروي عن عمر ﵁ أنه قال «كان عمر بن الخطاب يقول: أربع من أمر الإسلام لست مضيعهن ولا تاركهن لشيء أبدا: القوة في مال الله وجمعه حتى إذا جمعناه وضعناه حيث أمر الله، وقعدنا آل عمر ليس في أيدينا ولا عندنا منه شيء، والمهاجرون الذين تحت ظلال السيوف، ألا يحبسوا ولا يجمروا، وأن يوفر فيء الله عليهم وعلى عيالاتهم، وأكون أنا للعيال حتى يقدموا» رواه ابن جرير في تاريخه (227/4).

وقال بعض الغزاة المجمرين:

معـــاوي إمـــا أن تجمـــر أهلنـــا   إلينـــا وإمـــا أن نـــؤب معـــاويا

أجمرتنــا إجمــار كســرى جنــوده ومنيتنــا حــتى مللنــا الأمانيــا

وقال آخر:

وإنـك قـد جمرتنـا عـن نسـائنا ومنيتنـا حـتى نسـينا الامانيـا
وإلا تـدع تجمـيرنا عـن نسـائنا نعد لك أياما تشيب النواصيا

وقال حميد الارقط:

فــاليوم لا ظلــم ولا تتبــير ولا لغــاز إن غــزا تجمــير

جاء في لسان العرب (146/4) " وجمر الجند: أبقاهم في ثغر العدو ولم يقفلهم، وقد نهي عن ذلك، وتجمير الجند: أن يحبسهم في أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر، وتجمروا هم أي تحبسوا؛ ومنه التجمير في الشعر. الأصمعي وغيره: جمر الأمير الجيش إذا أطال حبسهم بالثغر ولم يأذن لهم في القفل إلى أهليهم، وهو التجمير" انتهى.

قال البيهقي في معرفة السنن والآثار (127/13) " قال الشافعي: «وليس للإمام أن يجمر بالغزو، فإن جمرهم فقد أساء، ويجوز لكلهم خلافه والرجوع»............ قال الشافعي: فالتجمير عندنا جور وفساد وفتنة على الرعية، والذي عليه إعقاب المسلمين في كل ستة أشهر، وكذلك الأئمة كانت تفعل.

قال أحمد: قد روينا عن عمر بن الخطاب، أنه قال لحفصة: «كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟» فقالت: ستة أشهر أو أربعة، فقال عمر: «لا أحبس الجيش أكثر من هذا»" انتهى.

جاء في الجليس الصالح الكافي (329) " معنى التجمير، قال القاضي: قوله: ولا أجمركم في ثغوركم، التجمير: أن يبعث الرجل إلى الثغر، ثم يترك فيه فلا يقفل إلى أهله، ويرد إلى وطنه، فيضر به ويعرض للفتنة في نفسه وأهله، والعدل ألا يجمر الجند في البعث، وأن يعقب بينهم في كل ستة أشهر فيما يختاره، وقد كان بعض من تقدم من ولاة الأمر ربما عقب في كل سنة، والأمر في هذا عندنا أن يتوخى فيه الأئمة وأولو الأمر المصلحة، ويحملوا الناس على الرفق بهم، ويجتهد في حسن النظر لهم، ويتحرى في هذا الباب من التدبير ما

هو أبلغ في سياسة الرعية، وتحصين الثغور، وحفظ البيضة، وحماية الحوزة، والتحرز من الفساد والفتنة، وانتشار الكلمة، فالتجمير في هذا الخبر معناه ما وصفنا" انتهى.

***

استئجار المرابطين

هذه المسألة متفرعة عن حكم أخذ الأجرة للجهاد، والفقهاء لا يجيزون أخذها للجهاد عند تعينه، وأما عند عند كونه فرض كفاية فهم مختلفون، والجمهور على عدم جواز أخذها للجهاد حتى ولو لم يتعين.

جاء في نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للرملي (290/5) " (لا تصح إجارة مسلم لجهاد) ولو صبيا وعبدا وإن قصد إقامة هذا الشعار وصرف عائدته للإسلام فيما يظهر لتعينه عليه بحضور الصف مع وقوعه عن نفسه، وبه فارق حل أخذه الأجرة على نحو تعليم تعين عليه، وأفتى البلقيني بإلحاق المرابطة عوضا عن الجندي بالجهاد في عدم صحة الاستئجار لها" انتهى.

وفي أسنى المطالب في شرح روضة الطالب لزكريا الانصاري (410/2) " قال البلقيني " سئلت عن الاستئجار للمرابطة عوض الجندي؟ فأفتيت بفساد الإجارة كالاستئجار للجهاد " انتهى.

***

هل الأفضل للمرابط في الثغور الاشتغال بالنوافل أو الإعداد؟

جاء في طبقات الحنابلة (247/1) عن عيسى بن جعفر أنه سأل الامام أحمد: أيما أفضل عندك العمل بالسيف والرمح والفروسية أو الصلاة التطوع؟ قال: إذا كان ههنا يعني ببغداد فينال من هذا وهذا، وإذا كان بالثغر فاشتغاله بذلك أفضل من التطوع، لأن الله تعالى يقول ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**﴾.

***

اعتكاف المرابطين في الثغور

جاء في المدونة (296/1) " قال ابن القاسم وقال مالك: ليعتكف المعتكف في عجز المسجد، قال: فقلنا لمالك: أتعتكف أهل السواحل في سواحلهم وأهل الثغور في ثغورهم؟ فقال: إن الأزمنة مختلفة، من الزمان زمان يؤمن فيه لكثرة الجيوش ويأمن الناس فيعتكف المعتكف رجاء بركة الاعتكاف، قال: وقد تكون ليال يستحب فيها الاعتكاف، قال: فقيل له: فإن اعتكف المعتكف في الثغور أو في السواحل وجاءه الخوف، أيترك ما هو فيه من اعتكافه ويخرج؟

قال: نعم، فقيل له: فإذا أمن أيبتدئ أم يبني؟ فقال: بل يبني وهذا آخر ما قاله، وقد كان قال قبل ذلك: يبتدئ ثم رجع إلى هذا القول، فقال: يبني وهو أحب إلي، قال: وإن كان في زمن الخوف، فلا يعتكف ولا يدع ما خرج له من الغزو ويشتغل بغيره من الاعتكاف" انتهى.

وجاء في المنتقى للباجي (84/2) " وقد اختلف فيمن تلبس في الثغور بالاعتكاف حال الأمان، ثم طرأ الخوف فلزمه الخروج وترك الاعتكاف فقال مالك إذا أمن ابتدأ اعتكافه، ثم رجع فقال يبني على ما تقدم من اعتكافه.

وجه القول الأول أنه خرج من اعتكافه وتشاغل عنه بعبادة وقطع مسافة كما لو خرج لحج أو جنازة.

ووجه القول الثاني أنه خرج لطاعة لا يستبد منها ولا يتم اعتكافه إلا بها فكان له أن يبني كما لو خرج لشراء قوته وطهوره وغير ذلك مما لا بد له منه، والله أعلم" انتهى.

وفي النوادر والزيادات (100/2) " في الاعتكاف في الثغور ومن اعتكف في مسجد قرية، لا يجمع فيها من "المجموعة"، قال ابن وهب، عن مالك: لا بأس بالاعتكاف في الشتاء والمواجير، ولا ينبغي ذلك في زمن الخوف. قيل: أفيعتكف فيها في الصيف؟ قال: ذلك يختلف، رب ليال يرجى بركتها، ولعل في الثغر من يكتفى بهم لكثرتهم، فمثل هذا من سعة، قال عنه أشهب، في "العتبية": قلت: أفيعتكف في الثغور على البحر وغيره؟ قال: ما أدري ما هذا أيذهب على الثغور يعتكف كأنه كرهه" انتهى.



اجتماع أهل الثغر في المسجد الأعظم

جاء في المغني لابن قدامة (207/9) " [فصل لأهل الثغر أن يجتمعوا في المسجد الأعظم]

فصل: ويستحب لأهل الثغر أن يجتمعوا في المسجد الأعظم لصلواتهم كلها، ليكون أجمع لهم، وإذا حضر النفير صادفهم مجتمعين، فيبلغ الخبر جميعهم، وإن جاء خبر يحتاجون إلى سماعه، أو أمر يراد إعلامهم به، يعلمونه، ويراهم عين الكفار، فيعلم كثرتهم فيخوف بهم. قال أحمد: إن كانوا متفرقين يرى الجاسوس قلتهم. قال: وبلغني عن الأوزاعي، أنه قال في المساجد التي بالثغر: لو أن لي عليها ولاية، لسمرت أبوابها – ولم يقل: لخربتها – حتى تكون صلاتهم في موضع واحد، حتى إذا جاء النفير وهم متفرقون، لم يكونوا مثلهم إذا كانوا في موضع واحد" انتهى.

وذلك يختلف باختلاف الأحوال، فقد يكون هذا في مصلحة في زمن، وقد يكون هذا الاجتماع بهذه الكثرة فيه مفسدة في زمن آخر من حيث سهولة استهدافهم من قبل العدو كما هو الحاصل في زماننا هذا.

***

الخنادق في الثغور

قال ابن الحاج رحمه الله في المدخل (20/3) " ومن الحرس في الثغور حفر الخنادق، والاحتساب في حفرها مستنين في ذلك بفعل رسول الله – ﷺ –، وقطعه – عليه الصلاة والسلام – للحجر الذي أعيت الصحابة الحيلة في كسره.

أخرج النسائي عن البراء بن عازب قال: «لما أمرنا رسول الله – ﷺ – بحفر الخندق عرض لنا حجر لا يأخذه المعول فاشتكينا ذلك لرسول الله – ﷺ – فجاء رسول الله – ﷺ –، وألقى ثوبه، وأخذ المعول، وقال: «**بسم الله ثم ضرب ضربة فكسرت ثلث الصخرة فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر إلى قصرها الأحمر الآن من مكاني هذا**» قال: ثم ضرب أخرى، وقال: بسم الله فقطع ثلثا آخر فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر خضراء المدائن، وإلى القصر الأبيض**» ثم ضرب الثالثة، وقال: «**بسم الله فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر باب صنعاء من مكاني الساعة**» " انتهى.

***

الغنيمة في الثغر

جاء في البيان والتحصيل (17/3) لابن رشد الجد" [مسألة: خيل المسلمين تقاتل العدو قتالا متفاوتا أيتساوون في العطاء]

مسألة: قال يحيى: وسألت ابن القاسم عن العدو يغيرون على ناحية من ثغر المسلمين، فيطلبهم خيل المسلمين، والطلب متفاوت على قدر الطاقة، فأدركهم بعض من طلب، والناس في آثارهم متساربون، فقاتلهم الأولون، فأظفرهم الله فقتلوا وأسروا وأصابوا ما كان معهم، أترى أن يقسموا على من حضر القتال، أم يكون ما أصابوا لجميع من خرج في الطلب، أم لأهل القرى التي خرج هؤلاء منها؟ قال: إن كان خرجوا من مسالح منصوبة للرباط، أهلها مقيمون للذب عن جميع من وراءهم من الإسلام، قسم ما أصابوا بين أهل تلك المسالح الخارج والمقيم من قاتل أو لم يقاتل، أو خرج أو لم يخرج، قال: وكذلك إن كانوا من أهل حصن في رأس الثغر، قال: وإن كانت قرا إنما فيها أهلها الذين يسكنون فيها بعيالهم، وإنما فجأهم أمر فركبوا في طلب الذين أغاروا عليم قسم ما أصابوا بين كل من طلب، أدرك القتال أو لم يدركه، حضره أو غاب عنه إذا تبين أنهم ممن خرج طالبا بالبت واليقين، وليس لمن لم يخرج في الطلب من أهل تلك القرى شيء، والخمس في جميع ذلك واجب.

قال محمد بن أحمد: هذه مسألة صحيحة حسنة، ذكرها ابن سحنون لأبيه فأعجبته، وقد تقدمت في أول هذا الرسم والقول فيها، وإن كانت هذه أكمل بالمعنى بينها جميعا سواء، وبالله التوفيق" انتهى.

***

مدة الرباط

قال الفقهاء: تمام الرباط: أربعون يوما، وهذا يتفق الفقهاء على ذكره، وقالوا وإذا أراد الزياد فهو أكثر لأجره.

وقد روي مرفوعا، عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم: «**تمام الرباط أربعين يوما، ومن رابط أربعين يوما لم يبع ولم يشتر، ولم يحدث حدثا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**» رواه الطبراني في المعجم الكبير (7706) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (2480)، وروى بعضه ابن ابي شيبة (19457) عن مكحول مرسلا بإسناد ضعيف.

وروى عبد الرزاق في المصنف (9615) عن يزيد بن أبي حبيب يقول: جاء رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب فقال: «أين كنت؟» قال: في الرباط قال: «كم رابطت؟» قال: ثلاثين قال: «فهلا أتممت أربعين» وهو ضعيف.

وروى ابن ابي شيبة (19458) بإسناد ضعيف أن ابناً لابن عمر رابط ثلاثين ليلة ثم رجع، فقال له ابن عمر: «أعزم عليك لترجعن فلترابطن عشراً حتى تتم الأربعين».

وروى سعيد بن منصور في سننه (2410) عن أبي هريرة ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر في أحد المسجدين: مسجد الحرام ومسجد رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، ومن رابط ثلاثة أيام في سبيل الله فقد رابط، ومن رابط أربعين يوما فقد استكمل الرباط» وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف، وفيه انقطاع أيضا.

وروى عبد الرزاق (9616) عن يحيى بن أبي سفيان الأخنسي قال: كان أبو هريرة يقول: «رباط ليلة إلى جانب البحر من وراء عورة المسلمين، أحب إلي من أن أوافق ليلة القدر في أحد المسجدين مسجد الكعبة أو مسجد الرسول صلى الله عليه واله وسلم بالمدينة، ورباط ثلاثة أيام عدل السنة، وتمام الرباط أربعون ليلة» وسالم أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله بن معمر قائم لم يقعد حين ساق يخبر بهذا الحديث، فقال له يحيى:

تعرف هذا الحديث يا أبا النضر؟ فقال سالم: نعم أشهد على معرفة هذا الحديث" والحديث فيه ضعف وانقطاع.

وروى ابن ابي شيبة (19456) بإسناد ضعيف عن أبي هريرة ﷺ قال: «تمام الرباط أربعون يوما».

وأما أقل ما يحصل به الرباط، فقد اختلف فيه، فقال الحنابلة: أقل الرباط ساعة، والمراد وقت معين وليس الساعة بالتحديد المعاصر، بل قد يكون أقل.

جاء في مسائل الامام أحمد وإسحاق بن راهويه (2766) للكوسج " قلت: هل للرباط وقت؟ قال: أربعون يوماً.

قال إسحاق: كما قال، هذا أكثره، والثلاث لمن لم يحب أن يبلغ ذلك حسن" انتهى.

قال ابن قدامة في المغني (204/9) " إن الرباط يقل ويكثر، فكل مدة أقامها بنية الرباط، فهو رباط قل أو كثر؛ ولهذا قال النبي – صلى الله عليه واله وسلم – «**رباط يوم ورباط ليلة**» قال أحمد: يوم رباط، وليلة رباط، وساعة رباط" انتهى.

وقيل أقل ما يجزئ يوم أو ليلة لتقييده في الحديث.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (86/6) على ترجمة البخاري في الصحيح " باب فضل رباط يوم في سبيل الله" قال "وأما التقييد باليوم في الترجمة وإطلاقه في الآية فكأنه أشار إلى أن مطلقها يقيد بالحديث فإنه يشعر بأن أقل الرباط يوم لسياقه في مقام المبالغة" انتهى.

وقد جاء ذكر فضل الرباط لمدة ثلاثة أيام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا رابطت ثلاثا فليتعبد المتعبدون ما شاءوا» رواه ابن أبي شيبة (19452) وفيه ضعف.

وروي في هذا الفضل مرويات أخرى ضعيفة فعن أم الدرداء ﷺ ترفع الحديث، قالت: «من رابط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام، أجزأت عنه رباط سنة» رواه الامام أحمد (27040) وإسناد ضعيف.

وعن أبي أمامة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**لأن أحرس ثلاث ليال مرابطا وراء بيضة المسلمين أحب إلي من أن تصيبني ليلة القدر في أحد المسجدين المدينة وبيت المقدس**» رواه تمام في فوائده (1676) وهو منكر كما قال غير واحد من المحدثين، فيه جميع بن ثوب منكر الحديث.

والكلام على مدة الرباط والتحديد حين يكون الجهاد والرباط فرض كفاية، وقد قام به من يكفي، أما حين يكون الجهاد والرباط فرض عين فلا ينتهي إلا بانتهاء سببه سواء أكان سببه عدو دهم بلاد المسلمين أو موقع الرباط أو استنفار الامام أو حضور الصف على نحو ما ذكر في كتب الفقه.

***

إقامة الحدود على المجاهد في الثغور

جاء في أحكام المجاهد بالنفس (613/2) " اتفق الفقهاء -رحمهم الله تعالى فيما أعلم- على وجوب إقامة الحدود على المجاهد في الثغور.

قال في المغني: "وتقام الحدود في الثغور بغير خلاف نعلمه..".

يدل على ذلك ما يلي:

1- أن الثغور من بلاد الإسلام.

2- أن الحاجة داعية إلى زجر أهلها بالحدود، كالحاجة إلى زجر غيرهم.

أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- «كتب إلى أبي عبيدة، أن يجلد من شرب الخمر ثمانين، وهو بالشام، وهو من الثغور»" انتهى.

***

إذا حمل على فرس ليغزو عليه فخرج إلى الثغور متى يطيب له بيعه

جاء في الوقوف والترجل للخلال (101/1) " باب إذا نفروا ولم يغز بتلك الفرس:

أخبرني مُحَمَّد بن علي أن أبا بكر الأثرم حدثهم قال: سمعت أبا عبد الله يُسأل عن رجل أعطى رجلا فرسا بالشام حمله في سبيل الله متى يطيب له بيعه؟

قال: إذا غزى عليه.

قيل لأبي عبد الله: فإن العدو جاءونا وهم نحونا حتى يدقون أبوابنا ويأخذون منا فتخرج في طلبهم فربما قدرنا على أن نتخلص الشيء وربما لم تقدر فخرج هذا على الفرس في طلب إلى خمس فراسخ يحل له الفرس؟

قال: لا، حتى يكون غزوا، هذا إنما نفير ليس هو غزو، أو يكون مثل بلاد الثغور يخرج إليهم ويتجمدون ويدخلون إلى بلاد الروم ويغزون، فهذا يحل له" انتهى.

***

التكبير في الرباط

سبق وأن نقلنا أنه كان من نشاطات بعض المرابطين التكبير ورفع الصوت به، وأن هذا كان في عهد سابق يفعل في بعض الثغور، وأنقل هنا بعض أقوال العلماء في المسألة وحكمها الشرعي وتفصيلاتها:

جاء في مسائل الإمام أحمد لأبي داود (339) "سمعت أحمد سئل عن رفع الصوت بالتكبير في الحرس، قال: الذي نهى عنه النبي ﷺ كان في السفر، فأما أن يكونوا في الحرس، يرون العدو أن عندنا عدة فلا بأس " انتهى.

جاء في البيان والتحصيل لابن رشد (572/2) " [رفع الأصوات بالتكبير على السواحل أو في الرباط]

ومن كتاب الأقضية وسئل مالك عن رفع الأصوات بالتكبير على السواحل، أو في الرباط بحضرة العدو، أو بغير حضرتهم؛ هل ينكره، أو يسمع الرجل نفسه؟ فقال: أما بحضرة العدو فلا بأس، وذلك حسن؛ وأما بغير حضرتهم على السواحل فلا بأس بذلك أيضا، إلا أن يكون رفع صوته يؤذي الناس، لا يستطع أحد أن يقرأ ولا يصلي، فلا أرى ذلك.

قال مُحَمَّد بن رشد: هذا مثل ما في كتاب الجهاد من المدونة، وزاد فيه أنه أنكر التطريب؛ وأنكر ابن حبيب أن يتقدمهم واحد بالتكبير، أو التهليل، ثم يجيبه الآخرون بنحو من كلامه جما غفيرا، وأجاز أن يحزن تكبيره وأنكر في رسم "أحد يشرب خمرا" من كتاب الصلاة – التكبير دبر الصلوات بأرض العدو، وسكت عن التكبير في غير دبر الصلوات؛ فذلك كله مفسر بعضه لبعض، ليس فيه اختلاف من قول مالك؛ وما حكى ابن حبيب من استحباب التكبير ثلاثا دبر صلاة العشاء والصبح، في الثغور والمرابطات والعساكر، خلاف لمذهب مالك – ومذهبه أظهر؛ لأنه أمر محدث لم يكن في الزمن الأول، ولو كان، لنقل وذكر – والله أعلم" انتهى.

وجاء في شرح مختصر خليل للخرشي (119/3) على مسألة التطريب بالتكبير وحكمه ومعناه "ويكره التطريب وهو التغني بالتكبير وهو صوت يشبه صوت المغاني وفي عبارة التطريب خفة تصيب الإنسان لحزن أو سرور" انتهى.

ونقل في كتاب الإمام المازري للصمادحي التونسي فتوى للإمام المازري في هذا الموضوع جاء فيها (76) "أنه سئل عن قوم يجتمعون بالليل بعد صلاة العشاء الأخيرة (في مدينة سوسة والمنستير) ومعهم قناديل يمشون فوق السور يذكرون أنهم يريدون العسكر، ويقولون بإجماع أصواتهم: «سبحان الله العظيم» بتطريب وتحزين، وينصرفون على تلك الصفة يمشون في الأزقة، ويجوزون على المجازر والمزابل، وهم على تلك الحال من الاجتماع والتطريب، إلى أن يبلغوا السور، وقد نهوا عن فعل ذلك في الطرقات وأمام المزابل، ونهوا عن التطريب والاجتماع، وأمروا أن يكونوا على السور ويتركوا التطريب، وأن سنة الحرس في الرباط التكبير والتهليل، فهل ينهون عن هذا – وهو بدعة – ولا يذكرون الله إلا في المواضع الشريفة من غير اجتماع ولا تطريب؟

فكان جوابه:

الاجتماع بالذكر والتطريب والتحزين، ورفع الصوت قد نهى عنه العلماء وأنكروه وعدوه بدعة، وقد قال – ﷺ –: «**عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**» وقد علم أن هذا الفعل لم يكن مما سبق في الزمن الأول، ولا فعله السلف الصالح من الصحابة، لقوله: «**أصحابي كالنجوم**» مع العلم بأنهم أعبد ممن يأتي بعدهم، ونقل عنهم بالتواتر أنهم شديدو الحزم في الازدياد من الطاعة والحمل على النفس من مقاساة القربات، حتى ليخف عليهم إراقة دمائهم، وقتل أولادهم وآبائهم في الجهاد في ذات الله ورسوله، فلو كان خيرا ما سبق هؤلاء إليه، وقد قال تعالى: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ وقال تعالى: ﴿**تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا**﴾ الآية، وقال ﷺ: «**لو أن أحدكم أنفق مثل أحد، ذهبا ما بلغ مد أحدهم، ولا نصيفه**» فمن عرف هذا وجب وقوفه عما وقفوا عنده ويفعل ما فعلوه، وهم كانوا لا يفعلون هذا، ولا يعتقد عاقل أن يقول: ما فعلوه تخفيفا على أنفسهم من المشقة بل هو أخف شيء عليهم لو أرادوه، وكذا من بعدهم من السلف لم يرد عنهم الأمر بهذا ولا الحض عليه، وما ذاك إلا لاتباعهم من مضى ولو لم يكن إلا أن العلماء سكتوا عنه ولم يفعلوه لكان من حق العاقل ألا يفعله، فكيف وهم أنكروه ونهوا عنه؟ قال مالك فيمن يقرأ القرآن بالألحان ويعلم ذلك الجواري كالغناء: " ما هكذا كان رسول الله – ﷺ – يقرأ القرآن" فجعل حجته أنه لم يفعله من مضى بعده بدعة، وأيضا فإظهار هذه المعاني من نوافل الخير، ولا تخلص النية فيها ويقصد المباهاة والرياء وابتغاء عرض

الدنيا، وهو خلاف الشرع: وقد أمر الشرع بإظهار صلوات الفرض وإخفاء النوافل، لأن قوادح النوافل في النيات تطرق أكثر منها في الفرائض لاجتماع الناس عليها. وكذا تكلم العلماء في إظهار الزكاة – وهي فرض – وإخفائها، لقوله تعالى: ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ**﴾ الآية، وفي الصحيح ما يقتضي منع الصوت بمثل هذا: «**إنكم لا تدعون أصم**» الحديث، وإنما أبيح في حضور الرباط حين العسس من رفع التكبير أو غيره من الذكر لما فيه من المصلحة لإشعار من يريد اغتيال الحصن أنهم حذرون مستعدون لدفاعه، وأما الاجتماع والتلحين في الأسواق والمجازر فلا مصلحة فيه ولا ضرورة تدعو إليه مع ما فيه من استهجان ذكر الله في المواضع المحتقرة الخسيسة، ولهذا نهى عن قراءة القرآن والإكثار منه في الأسواق احتراما له، ولذلك قيل لابن القاسم في الباعة إذا أخذت شيئا صلت على النبي ﷺ فقال: «**ليس هو موضع صلاة، ويكفيك بردهم الاتباع لمن سبق من الناس**» " انتهى، وسوسة والمنستير من أهم مواقع الرباط في المغرب الاسلامي.

وقال ابن الحاج رحمه الله في المدخل (25/3) " وينبغي للمجاهدين إذا كانوا مع الإمام أو في سرية، وأدربوا بلاد العدو أنهم إذا صلوا الخمس يرفعون أصواتهم بالذكر ليرهبوا العدو بذلك، وليقتدوا فيه بالسلف الماضين – رضي الله عنهم أجمعين –، وفعل ذلك في غير هذه الحالة على هذه الصفة بدعة" انتهى.

وسيأتي إن شاء الله أبيات عبد الله بن المبارك في التكبير في الثغور والرباط، إن صحت عنه.

***

نقل النساء والذرية إلى الثغور المخوفة

وهذه المسألة هي في شخص من خارج الثغر أراد الرباط في الثغر ويريد أن ينقل أهله عنده.

روى أبو داود في المراسيل لأبي داود (345) عن مكحول والقاسم أبي عبد الرحمن، أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: «**لا تتركوا الذرية**» يعني بإزاء العدو.

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى (233/3) عن عمر بن الخطاب ﷺ «أنه كان يعقب بين الغزاة وينهى أن تحمل الذرية إلى الثغور» وفيه الواقدي.

وقد روى ابن ابي شيبة (33658) عن الحسن أنه كان يكره أن تخرج النساء إلى شيء من هذه الفروج يعني الثغور.

وروى ابن الاعرابي في معجمه (1603) عن علي بن بكار يقول: نفق لي بالثغر في بلاد الروم عشرين ومائة فرس، ليتني أنجو لا لي ولا علي من حملي أم فلان إلى ها هنا، يعني أم ولده.

يقول ابن قدامة في المغني (206/9) في هذه المسألة " ومذهب أبي عبد الله كراهة نقل النساء والذرية إلى الثغور المخوفة. وهو قول الحسن، والأوزاعي؛ لما روى يزيد بن عبد الله، قال: قال عمر: لا تنزلوا المسلمين ضفة البحر. رواه الأثرم بإسناده.

ولأن الثغور المخوفة لا يؤمن ظفر العدو بها، وبمن فيها، واستيلاؤهم على الذرية والنساء. قيل لأبي عبد الله: فتخاف على المنتقل بعياله إلى الثغر الإثم؟ قال: كيف لا أخاف الإثم، وهو يعرض ذريته للمشركين؟ وقال: كنت آمر بالتحول بالأهل والعيال إلى الشام قبل اليوم، فأنا أنهى عنه الآن؛ لأن الأمر قد اقترب. وقال: لا بد لهؤلاء القوم من يوم. قيل: فذلك في آخر الزمان. قال: فهذا آخر الزمان. قيل: فالنبي – صلى الله عليه واله وسلم – كان يقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها. قال: هذا للواحدة، ليس الذرية.

وهذا من كلام أحمد محمول على أن غير أهل الثغر، لا يستحب لهم الانتقال بأهلهم إلى ثغر مخوف، فأما أهل الثغر، فلا بد لهم من السكنى بأهلهم، لولا ذلك لخربت الثغور وتعطلت. وخص الثغور المخوفة، بدليل أنه اختار سكنى دمشق ونحوها، مع كونها ثغرا؛ لأن الغالب سلامتها، وسلامة أهلها" انتهى.

وأصل كلام الإمام أحمد وتفصيله في هذه المسألة موجود في مسائل الامام احمد لابي داود السجستاني (308) " باب: الانتقال إلى الثغر بالذرية وأخباره في ذلك:

سمعت أحمد سئل عن النقلان بالعيال إلى الثغر؟ فقال: لا أرى ذلك ولا أشير به، فذكرت له منعة طرسوس وعزها؟ فكرهه، وسمعته غير مرة ينهى عن ذلك.

قلت لأحمد: تخاف على المنتقل بعياله إلى الثغر الإثم؟ قال: كيف لا أخاف، وهو يعرض بذريته للمشركين؟!.

فسمعت أحمد سأله رجل، قال: " فأنطاكية؟ قال: لا ينقل إليها بالعيال، فإنه قد أغير عليهم منذ سنين، يعني: غارة غريقا الرومي في البحر عام عمورية ".

وسمعته ذكرها، فقال: " أنطاكية قرية من الساحل، يعني: أنها عورة ".

وسمعت أحمد، يقول: "الشام كلها إذا وقعت الفتنة فليس لأهل خراسان عندهم قدر، يقول ذلك في الانتقال إليها بالعيال".

قيل لأحمد: فهذه الأحاديث التي جاءت: «إن الله تكفل لي بالشام» وما جاء نحو هذا؟ فقال: ما أكثر ما جاء فيه.

قلت: فلعلها في الثغور؟ قال: إلا أن تكون الأحاديث في الثغور.

وذكرت له مرة هذا: أن هذا في العورة، فأنكره، وقال: الأرض المقدسة أين هي؟ «**ولا يزال أهل العرب ظاهرين على الحق**»: هم أهل الشام، قلت لأحمد: فلا يتزوج فيها؟ قال: التزويج فيها هو أهون من الانتقال إليها.

وسمعت أحمد ذكر له مرة نقل العيال إلى الشام؟ فقال: الرملة أهيا المواضع كما يبلغنا.

سمعت أحمد، قيل له: حران ينتقل إليها بالعيال؟ قال: نعم، لا بأس.

سمعت أحمد، يقول: «واسط نعم الموضع» " انتهى.

وجاء في مسائل عبد الله لأبيه الإمام أحمد (259) " سألت أبي عَن الرجل يرابط فيشتري الجارية للْخدمة أو ليطأها؟

فقال: إما أَن يحمل الْحرم الى الثغر، فإنه يكره، وكلما اشترى من ثمَّ فهو أسهل" انتهى.

وجاء فيها (251) " سألت أبي: عن رجل له جدة عَجُوز كبيرة ترى أن تحمل إلى الثغر؟

قال أبي: لَا يحمل شيء من الذرية الى الثغر، فَإِن كان أبر هذه الجدة يقوم بشأنها، والغزو لهذا أحب إِلَي من الاقامة عليها، ولا يدع برهَا" انتهى.

قال القرطبي في تفسيره (324/4) " قال ابن عطية: وقال ابن خويز منداد: وللرباط حالتان: حالة يكون الثغر مأمونا منيعا يجوز سكناه بالأهل والولد. وإن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال، ولا ينقل إليه الأهل والولد لئلا يظهر العدو فيسبي ويسترق. والله أعلم" انتهى.

قال ابن النحاس في المشارع (361/1)" مسألة: قال مالك رحمه الله: ولا بأس بأن يخرج الرجل بأهله إلى الرباط. قال سحنون: إلى المواضع المأمونة الكثيرة الأهل مثل الإسكندرية، وتونس وشك في صفاقس وسوسة. قال مالك: ورب ثغر فيه ألف رجل ليس بمأمون.

وقد كان الإمام أحمد رحمه الله ينهى عن سكنى الثغور بالأهل. والظاهر: أن ذلك إنما هو في الثغور التي لا يؤمن على أهلها، وبهذا قيده صاحب المغني، وقال: وهو قول الحسن والأوزاعي، قيل لأبي عبد الله: فتخاف على المنتقل بعياله إلى الثغر الإثم؟ فقال: كيف لا أخاف الإثم وهو يعرض ذريته للمشركين؟ قال صاحب المغني: فأما أهل الثغر فلا بد لهم من السكنى بأهلهم لولا ذلك لخربت الثغور، وتعطلت" انتهى.

***

هل يعد سكان الثغر الأصليين المستوطنين بأهليهم مرابطين؟

هذه المسألة اختلفت فيها أقوال الفقهاء، بين ناف مسمى الرباط عن هؤلاء واشتراط كون المرابط شاخصا من خارج الثغر، وبين مثبت بأن هذا الصنف يمكن أن يكون مرابطا بقيود وضوابط.

قال ابن حجر في الفتح (85/6) بعد تعريفه للرباط " قال بن التين بشرط أن يكون غير الوطن قاله ابن حبيب عن مالك، قلت: وفيه نظر في إطلاقه، فقد يكون وطنه وينوي بالإقامة فيه دفع العدو، ومن ثم اختار كثير من السلف سكنى الثغور" انتهى.

قال القرطبي في تفسيره (324/4) " المرابط في سبيل الله عند الفقهاء: هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما، قاله ابن المواز ورواه، فأما سكان الثغور دائما بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين" انتهى.

وجاء في الفواكه الدواني (406/1) " وظاهر تلك الأحاديث أن ذلك الفضل إنما يحصل لمن رابط لمجرد سد الثغر لا من سكن بأهله، وأقام فيه لمجرد التجارة، لقول ابن حبيب: من سكن الثغر بأهله وولده لم يكن مرابطا، اللهم إلا أن تكون سكناه تبعا للرباط، ولولاه لما سكنه، كما أشار إليه الباجي ورجحه بعض الفضلاء" انتهى.

قال الباجي في المنتقى (161/3) " (مسألة): إذا ثبت ذلك فرباط الرجل نفسه هو أن يترك وطنه ويلزم ثغرا من الثغور المخوفة لمعنى الحفظ وتكثير السواد، وأما من كان وطنه الثغر فليست إقامته به رباطا رواه ابن حبيب عن مالك، ووجه ذلك أن يحبس نفسه ويقيم لهذا الوجه خاصة، فإن أقام لغير ذلك فإنه بمنزلة تصرفاته فلم يربط نفسه لمدافعة العدو، وليس كذلك رباط الخيل فإن جمهور الناس يستغني عن اتخاذها، هذا الذي ذكره أصحابنا، قال القاضي أبو الوليد – رحمه الله –: وعندي أن من اختار المقام والاستيطان بالثغر وموضع الخوف للرباط خاصة وأنه لولا ذلك لأمكنه المقام بغير ذلك من البلدان له حكم الرباط، والله أعلم" انتهى.

وفي النوادر والزيادات (16/3) " وقال مالك: وليس من سكن بأهله في مثل الفسطاط والإسكندرية وطرابلس من أهل سواحل البحر مرابطين، وإنما المرابط من خرج من منزله فرابط في نحور العدو وعلى سواحل حيث الخوف.

ومن كتاب ابن حبيب: سئل مالك عن سكان الثغور على السواحل، يريد: بالأهل والولد، قال: ليسوا بمرابطين، وإنما الرباط لمن خرج من منزله معتقداً للرباط في موضع الخوف" انتهى.

قال السفاريني في كشف اللثام في شرح عمدة الأحكام (162/7) " الثالثة: قال ابن التين: شرطُ الرباط أن يكونَ غيرَ وطنِ المرابطِ. قاله ابنُ حبيب عن الإمام مالك، ونظر فيه غيرُ واحد، بل المعتمدُ حصولُ هذا الثواب لمن نوى بإقامته في ثغر من ثغور الإسلام، ولو بأهله، الدفعَ للأعداء؛ لأن الرباط المقصودُ منه الإقامةُ في نحور العدو، وحفظُ ثغور الإسلام، وصيانتُها عن دخول العدو إلى حوزة بلاد المسلمين، وهذا حاصل بالمقيم بأهله كالآفاقِيِّ، بل الأولُ أولى كما لا يخفى" انتهى.

قال ابن النحاس في المشارع ذاكرا تفاصيل هذه المسألة (359/1) " وقد سئل مالك عن سكان الثغور والسواحل بالأهل والولد، فقال: ليسوا بمرابطين، وإنما الرباط لمن خرج من منزله متعمدا للرباط في موضع الخوف.

قال المؤلف عفا الله عنه: والذي يظهر لي – والله أعلم – أن من كان ساكنا بثغر لا يربطه فيه إلا توقع الجهاد أو قصد الحراسة، ولو شاء أن يرحل عنه لرحل من غير مشقة عليه في الرحيل أنه مرابط، وله أجر الرباط، وإن كان معه أهله وولده أو كان له فيه سبب بشرط أن يكون لو عرض عليه زوجة أجمل من زوجته، أو سبب أوسع من سببه أو غير ذلك بمكان ليس بثغر، لما خرج من الثغر رغبة فيما عرض عليه، فإن الأعمال بالنيات.

وما زال السلف الصالح من الصحابة والتابعين، يسكنون الثغور بأهلهم وأولادهم بنية الرباط، ولعل مالكا رضي الله عنه إنما يعني بذلك من ولدوا بالثغور، ونشأوا بها، وكانت إقامتهم فيها لوجود أهاليهم، وحبا لأوطانهم، وغبطة بما هم فيه من الأسباب والأنشاب من غير قصد لهم في الرباط، لأنه قد أجاز خروج الرجل بأهله إلى الرباط كما سيأتي.

وفي كلام أبي مُحَمَّد بن عطية ما يشعر بذلك، فإنه قال في تفسيره: فأما سكان الثغور دائما بأهليهم الذين يعمرون، ويكسبون هنالك فهم وإن كانوا حماة، فليسوا بمرابطين، انتهى، والله أعلم.

وأما من نزل ثغرا وأقام فيه لإقامة رئيسه، بحيث لو رحل رئيسه لرحل هو أيضا، أو لسبب يغبط به نفسه لا يتهيأ له في غير الثغر، أو لزوجة لا ترحل معه إلى غيره، أو لوظيفة ومنصب، ورزق ونحو ذلك، بحيث لو أراد التحول إلى غيره لشق عليه ذلك، ولو امتنع توقع العدو، والجهاد من ذلك الثغر لما رحل عنه، لرغبته فيما هو فيه، أو لو وجد رزقا وسببا أوسع من رزقه وسببه بمكان آخر لتحول من ذلك الثغر إليه، فإن هذا ليس بمرابط وليس له من أجر الرباط شيء، إذ الرابط له في الثغر إنما هو سبب آخر غير الجهاد.

ولعل مالكا رضي الله عنه إنما أراد هذا وأمثاله، وربما يثاب هذا على نية الجهاد إن كان نيته أن يقاتل لو نزل عدو، لأن ﴿**مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾ فإن كانت إقامته بالثغر لسبب غير الجهاد، وللجهاد أيضا، ولو أراد أن يتحول منه لأمكنه من غير مشقة، وكان بحيث لو امتنع الجهاد من ذلك الثغر لرحل إلى ثغر يتوقع فيه الجهاد.

ولو تعطل سببه لرحل أيضا إلى مكان آخر يجد فيه سببا وإن لم يكن ثغرا، فهذا لا يخلو إما أن يكون ذلك السبب من ضرورات المعيشة أو يكون سببا زائدا على قدر الكفاية يمكنه الاستغناء عنه، فإن كان تحصل له الكفاية بدونه، ونيته الرحيل لو فقده، فإنه ليس بمرابط على ما تقتضيه قواعد جماعة من السلف.

وما أراه يخلو عن أجر قياسا على ما اختاره أبو حامد ومن نحا نحوه في أمثال هذه المسألة، لكونه لو تعطل الجهاد من ذلك الثغر لرحل عنه إلى ثغر آخر، ولا يبعد أن تقاس هذه المسألة على مسألة من غزا يلتمس الأجر والغنيمة، على ما سيأتي في الباب السادس والعشرين إن شاء الله تعالى.

وإن كان بحيث لو فقد ذلك السبب لاحتاج إلى السؤال فإنه لا يقدح في رباطه، وهذه المسائل لم أر من ذكرها، وأما من كان مقيما بثغر من الثغور، ونيته أنه لو نزل عدو لفر منه، ولم يقاتل مطلقا فإنه عاص بنيته مصر على معصيته ما دام في ذلك الثغر، لأن العدو إذا نزل ببلد صار القتال على أهل ذلك البلد فرض عين، لا يحل لأحد الإعراض عنه، أو الفرار منه، إلا حيث أبيح، سيما إن كان الفار رئيسا أو قدوة أو ذا منصب في الثغر، فإن إثمه في الفرار ليس كإثم من لا يؤبه له، ولا يلتفت إليه إن أقام أو رحل، ومن كانت

هذه نيته فرحيله من الثغر خير له لأنه كلما طالت إقامته وهو على هذه النية السيئة، ازداد إثمه وعظم جرمه، وإذا رحل ارتفع عنه الحرج، وزال الإثم فيما يستقبل، والله أعلم" انتهى.

***

إعانة وتجهيز أهل الثغور عند وجود الخوف

جاء في مسائل ابن هانئ للإمام أحمد كما في الجامع لعلوم الإمام أحمد (401/8) "وسئل عن الرجل يحمل المتاع من الشام إلى البحر فيسلم أحيانا، ويصاب أحيانا يأخذه الروم في مجيئه، إذا سلم رخص الثغر، أله أن يحمل على ما وصفت أم يخرج له منه والبحر مخيف؟

قال أبو عبد الله: يحمل فليس كل مرة يقطع عليه، يحمل ويجهز حتى ينتفع به المسلمون " انتهى، بمعنى أنه لا يمتنع عن التجهيز لهم مع وجود ذلك.

***

حراسة القليل من المسلمين من قاطعي الطريق الكفار هل يعد من الرباط؟

جاء في البيان والتحصيل لابن رشد الجد (16/ 372) " [حراسة القليل من المسلمين] :

ومن كتاب ليرفعن أمرا قال: وسئل مالك عن طريق بخراسان وبه قوم من أهل الكفر قريبا منهم يخرجون إلى تلك الطريق فيقطعون على المضعفين من المسلمين مثل الرجل والقافلة الضعيفة، وإن كانت جماعة لهم قوة لم يقدموا عليهم، وهم ليست لهم من القوة أن يظهروا على ما حاز المسلمون، إلا أنهم يقطعون على هؤلاء، أترى هذا مرابطا؟ قال: نعم، إذا كانوا يقطعون، فإنما مثل هؤلاء مثل اللصوص، فأرى أن يحرس ذلك الموضع، وكأنه رآه مرابطا.

قال مُحَمَّد بن رشد: هذا بين على ما قاله؛ لأنه يجب حراسة القليل من المسلمين كما يجب حراسة الكثير، وقد قال تعالى: ﴿**كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا**﴾ الآية. فملازمة حراسة هذه الطريق رباط، والأجر في الرباط على قدر الخوف على أهل ذلك الموضع" انتهى.

ونقل الباجي في المنتقى (170/7) في موضوع قطع الطريق "قال مالك في أعراب قطعوا الطريق: جهادهم أحب إلي من جهاد الروم، وقد قال النبي – ﷺ – «**من قتل دون ماله فهو شهيد**» وإذا قتل دون ماله ومال المسلمين فهو أعظم لأجره" انتهى.

***

هل يختص الرباط بمرابطة الكفار أم يعم حتى مرابطة من ينتسب إلى الإسلام؟

جاء في كتاب السنة للخلال (160/1) " تفريع، قتال اللصوص ودفع الرجل عن نفسه وماله وذكر الرباط في الموضع المخوف من اللصوص، وقطع الطريق:

أخبرني مُحَمَّد بن الحسين، أن الفضل، حدثهم، قال: سمعت أحمد، وقيل له: إن منحارا يقطع الطريق، حتى لا يقدر أحد أن يسلكه إلا ببذرقة، فترى للمبذرقين فضل في هذا؟ فقال: " سبحان الله، وأي فضل أكثر من هذا، يقونهم ويؤمنوهم من عدوهم، قيل له: يكون بمنزلة المجاهد؟ قال: إني لأرجو لهم ذاك إن شاء الله " انتهى.

وأخبرني حرب بن إسماعيل الكرماني، قال: سألت أبا عبد الله، قلت: إن عندنا حصونا على طرف المفازة يرابط فيها المسلمون العدو، وهم الأكراد، وهم من أهل التوحيد يصلون، ولكنهم يقطعون الطريق، فما ترى في الرباط في هذا الموضع؟ فاستحسنه وقال: ما أحسن هذا؟ قلت: إنهم من أهل القبلة، قال: وإن كانوا من أهل القبلة، أليس يرد عن المسلمين؟ قال: وسألت أحمد مرة أخرى، قلت: موضع رباط يقال له: بابنيذ في المفازة، يكون فيه المطوعة يبذرقون القوافل والعدو وهم الأكراد، وهم مسلمون، فاستحب ذلك وحسنه، وقال: أليس يدفعون عن المسلمين، إلا أنه قال: ما لم يكن قتال؟ قلت: إنهم ربما بذرقوا القوافل فوقع عليهم الأكراد، قال: إذا أرادوهم وأموالهم قاتلوهم "انتهى.

البذرقة الخفارة والعصمة، أي الحرس تبعث مع القافلة فيعتصم بها.

***

من قصص ومواقف وأحوال وأشعار المرابطين في الماضي

بلال ﷺ وخاتمة الرباط

روى ابن سعد في الطبقات (178/3) لما توفي رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – جاء بلال يريد الجهاد إلى أبي بكر الصديق، فقال له: يا خليفة رسول الله، إني سمعت رسول الله وهو يقول: أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله فقال أبو بكر: فما تشاء يا بلال؟ قال: أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت، قال أبو بكر: أنشدك بالله يا بلال، وحرمتي وحقي، فقد كبرت وضعفت، واقترب أجلي. فأقام معه حتى توفي، ثم أتى عمر، فرد عليه، فأبى بلال، فقال: إلى من ترى أن أجعل النداء؟ قال: إلى سعد فقد أذن لرسول الله – صلى الله عليه واله وسلم فجعله عمر إلى سعد وعقبه.

التعويض بالرباط

عن نوفل بن عمارة قال: «جاء الحارث ابن هشام وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب فجلسا عنده وهو بينهما، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر، فيقول: ههنا يا سهيل! ههنا يا حارث! فينحيهما عنهم، فجعل الأنصار يأتون عمر، فينحيهما عنهم كذلك، حتى صارا في آخر الناس، فلما خرجا من عند عمر قال الحارث ابن هشام لسهيل بن عمرو: ألم تر ما صنع بنا؟ فقال له سهيل: أيها الرجل! لا لوم عليه، ينبغي أن نرجع يا للوم على أنفسنا، دعي القوم فأسرعوا ودعينا فأبطأنا، فلما قام من عند عمر أتياه فقالا له: يا أمير المؤمنين! قد رأينا ما فعلت اليوم وعلمنا أنا أتينا من أنفسنا فهل شيء نستدرك به؟ قال لهما: لا أعلمه إلا هذا الوجه – وأشار لهما إلى ثغر الروم، فخرجا إلى الشام، فماتا بها» رواه ابن عساكر في تاريخه (503/11).

سهل بن سعد ﷺ والرباط

روى ابن المنذر في تفسيره (1159) عن سليمان الطائفي، عن أبي حازم، قال: سمعت سهل بن سعد، يقول: «لو بعت داري فلحقت بثغر من ثغور المسلمين، فكنت بين المسلمين وبين عدوهم، قلت: كيف وقد ذهب بصرك؟ قال: ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، أسوّد مع الناس، ففعل».

وفي معجم الطبراني (5656) عن عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل بن سعد، أنه كان في مجلس قومه، وهو يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، وبعضهم مقبل على بعض يتحدثون، فغضب، ثم قال: «انظر إليهم، أحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، عما رأت عيناي وسمعت أذناي، وبعضهم مقبل على بعض، أما والله لأخرجن من بين أظهركم، ثم لا أرجع إليكم أبدا»، قلت له: أين تذهب؟ قال: «أذهب فأجاهد في سبيل الله»، قلت: ما بك جهاد، وما تستمسك على الفرس، وما تستطيع أن تضرب بالسيف، وما تستطيع أن تطعن بالرمح، فقال: «يا أبا حازم، أذهب فأكون في الصف، فيأتيني بينهم عابر أو حجر، فيرزقني الله الشهادة»، قال: فذهب لعمري فما رجع إلا مطعونا.

أهمية الدعوة والتحريض في الرباط

جاء في تاريخ ابن عساكر (32/36) عن أبي إسحاق عن صفوان بن عمرو قال: قال عبد الرحمن الأعرج: إني أريد أن آتي الإسكندرية فأرابط بها، فقيل له: وما تصنع بها وما عندك قتال؟ وما تكون في مكان إلا كنت كلّا على المسلمين؟ قال: سبحان الله فأين الحصيصا! قال: وكان شيخا كبيرا، فخرج إليها، قال: أراه فمات بها.

هكذا وقع في تاريخ دمشق " الحصيصا " ولم أجد لها وجها في اللغة يناسب السياق، ولكن جاء في اكمال تهذيب الكمال (246/8) في نفس القصة ناقلا من المصدر نفسه " فأين التحضيض " وهو مناسب للسياق، فيبدو أن الأول خطأ من النساخ.

قال ابن كثير -رحمه الله- في البداية والنهاية (13/14) في كلامه على هجوم التتار على دمشق: "وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آياتِ الجهاد والرِّباط" انتهى.

الصحابي عبد الله بن قرط ﷺ والي حمص رباط واستشهاد

جاء في إكمال تهذيب الكمال (125/8) " قال أبو القاسم عبد الصمد: خرج ليلة يحرس على شاطئ البحر وهو وال فنام على فرسه فلم يشعر حتى أخذته الروم فقتلته وقيل: إن فاثور الروم قتلوه عند برج ابن قرط وهو فيما بين بلياس ومرقية" انتهى.

قصة المرابط مع مولى عمر

روى إسحاق بن راهويه في مسنده كما في اتحاف الخيرة (123/5) عن العوام بن حوشب، حدثني شيخ كان مرابطا بالساحل قال: "خرجت ليلة محرسي لم يخرج أحد ممن كان عليه الحرس غيري، فأتيت الميناء فصعدت عليه- والميناء موضع الحرس- فجعل يخيل إلي أن البحر يشرف حتى يحاذي رءوس الجبال، ففعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ، ثم نمت فرأيت في النوم كأن معي الراية، وكأن أهل المدينة يمشون خلفي وأنا أمامهم، فلما أصبحت رجعت إلى المدينة فلقيت أمير الجيش وأبا صالح مولى عمر بن الخطاب، فكانا أول من خرج من المدينة فقالا لي: أين الناس؟ فقلت: رجعوا قبلي. فقالا: لم تصدقنا نحن أول من خرج من المدينة، قال: فأخبرتهما أنه لم يخرج من المدينة أحد غيري. قال أبو صالح: فما رأيت؟ فقلت: والله لقد خيل إلي فيما رأيت أن البحر يشرف حتى يحاذي رءوس الجبال. قال أبو صالح: صدقت، حدثنا عمر بن الخطاب- ﷺ- عن رسول الله – صلى الله عليه واله وسلم – قال: «**ليس من ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات على أهل الأرض يستأذن الله أن يسيح عليهم-يعني يتدفق- فيكفه الله**». قلت: ورأيت أيضا في النوم كأن معي الراية وأن أهل المدينة يمشون معي وأنا أمامهم. فقال أبو صالح: إن صدقت رؤياك لتفوزن بأجر هذه المدينة الليلة، قال: وكان أبو صالح مباعدا إلي قبل ذلك، فكأنه انحاز إلي فجعل يحدثني

وقال: أوصانا عمر بن الخطاب أن نشرف ثلاثة: فرجل يبيع علينا، ورجل يغزو، ورجل يجلب علينا، فهذه نوبتي فأنا الآن ناقل إلى المدينة".

وقد روى ابن المبارك في الجهاد (186) أخبرني من سمع ابن محيريز يقول: «من حرس ليلة في سبيل الله عز وجل كان له من كل إنسان ودابة قيراط قيراط».

أبي ريحانة وهمته في العبادة والرباط

روى سعيد بن منصور في سننه (2489) عن ضمرة بن حبيب، عن مولى لأبي ريحانة صاحب رسول الله صلى الله عليه واله وسلم أن أبا ريحانة كان مرابطا بالساحل، وأنه استأذن أمير مرابطته: «ايذن لي أن آتي أهلي، أو أجلني ليلة»، ففعل، فقدم بيت المقدس عشاء، فأتى المسجد، ولم يأت أهله، فافتتح سورة، ثم سورة أخرى حتى أدركه الصبح، وهو في المسجد، فلما أن أصبح توجه راجعا إلى مرابطه من الساحل، فقيل له: يا أبا ريحانة لو أتيت أهلك فسلمت عليهم، وألمحت بهم، فقال: «إنما أجلني أميري ليلة، وقد مضى أجله، ولست بالذي أكذب، ولا أتخلف عن مرابطي» فتوجه، ولم يأت أهله، ولم يرهم حتى رجع، وكان مسكنه بيت المقدس.

عبادة بن الصامت ﷺ رباط حتى الموت

روى ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (1864) حدثنا ابن كاسب ثنا ابن أبي أويس، نا أبي، عن الوليد بن داود بن مُحَمَّد بن عبادة بن الصامت أبي منيع، عن ابن عمه عبادة بن الوليد أن عبادة بن الصامت ﷺ «نزل بالمصيصة فابتنى بها دارا فلم يزل بها مرابطا حتى مات بها».

حكاية واقع بعض المرابطين الغرباء

جاء في بغية الطلب لابن العديم (2342/5) " قال الحسن بن حميد المرعشي: "دخلنا على رجل من الغرباء في بعض الثغور وهو يكيد بنفسه، فقيل له: كيف تراك؟ فقال:

غريب وحيد والمنايا تحثه   الى منزل فقر بغير أنيس

فقلنا: أبشر رحمك الله فإن الغربة شهادة، ولا سيما وأنت مرابط في سبيل الله، فبكى طويلا ثم قال: والله لولا طمعي في كرمه وعفوه لتقطعت نفسي من شدة الغصص والحسرات، فما برحنا من عنده حتى فاضت نفسه رحمه الله".

ويقصد بمنزل فقر القبر، وكون الغربة شهادة هذا ورد فيه حديث ضعيف، ولكن لا شك أن الغربة من الابتلاءات التي يؤجر عليها العبد، سيما وأنه في طاعة.

أهل الثغور وعدم الدخول في الفتن وموقف الأوزاعي من الخليفة المنصور

روى أبو نعيم في حلية الاولياء (135/6) عن أبي سعيد الثعلبي، قال: لما خرج إبراهيم، ومُحَّد على أبي جعفر المنصور أراد (من) أهل الثغور أن يعينوه عليهما، فأبوا ذلك، فوقع في يد ملك الروم الألوف من المسلمين أسرى – وكان ملك الروم يحب أن يفادي بهم، ويأبى أبو جعفر – فكتب الأوزاعي إلى أبي جعفر كتابا: أما بعد، فإن الله تعالى استرعاك أمر هذه الأمة لتكون فيها بالقسط قائما وبنبيه صلى الله عليه واله وسلم في خفض الجناح والرأفة متشبها، وأسأل الله تعالى أن يسكن على أمير المؤمنين دهماء هذه الأمة ويرزقه رحمتها، فإن سايحة المشركين غلبت عام أول وموطئهم حريم المسلمين واستنزالهم العواتق والذراري من المعاقل والحصون، وكان ذلك بذنوب العباد، وما عفا الله عنه أكثر، فبذنوب العباد استنزلت العواتق والذراري من المعاقل والحصون لا يلقون لهم ناصرا ولا عنهم مدافعا، كاشفات من رءوسهن وأقدامهن، فكان ذلك بمرأى ومسمع، وحيث ينظر الله إلى خلقه وإعراضهم عنه، فليتق الله أمير المؤمنين وليتبع بالمفادات بهم من الله سبيلا، وليخرج من محجة الله تعالى فإن الله تعالى قال لنبيه: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ والله يا أمير المؤمنين، ما لهم يومئذ فيء موقوف، ولا ذمة تؤدي خراجا إلا خاصة أموالهم، وقد بلغني عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم أنه قال: «**إني لأسمع بكاء الصبي خلفي في الصلاة فأتجوز فيها مخافة أن تفتتن أمه**» فكيف بتخليتهم يا أمير المؤمنين في أيدي عدوهم يمتهنونهم ويتكشفون منهم ما لا نستحله نحن إلا بنكاح، وأنت راعي الله، والله تعالى فوقك ومستوف منك يوم توضع ﴿**الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** فلما وصل إليه كتابه أمر بالفداء" انتهى.

أبو الأحوص ورباط سوسة

أنقل من هنا شيئا من ترجمة العابد الزاهد أبي الأحوص أحمد بن عبد الله وأخبار مدينة الرباط "سوسة" في تونس الآن، باختصار من كتاب رياض النفوس فقد جاء فيه عنه:

أنه كان ثقة متعبدا كثير العمل والاجتهاد، وكان يصلي من الضحى إلى العصر ثم يجلس يسمع الناس، ولم يكن أصله من سوسة وإنما كان من المغرب ولكنه سكن سوسة وتوطنها إلى أن مات مرابطا.

جاء عنه أنه كانت في بداية أبي الأحوص ولزومه "سوسة" أنه أتى إليها مرابطا فأقام بها مدة حتى نفدت نفقته وأراد الرجوع إلى بلده المغرب، فأتى إلى جامعها ليركع فيه وينصرف، فبينما هو راكع إذ رأى عصفورا دخل الجامع وفي فمه شيء يطعمه فراخه، فسقط من فم العصفور ما كان فيه فخرج من خلف الحصير فأر فأكل ما سقط من فم العصفور، فخاطب نفسه بأن قال لها : "فأر خلف الحصير قيض الله تعالى له من رزقه كما قد رأيت ولم يضيعه، فكيف أضيع أنا؟ لله علي أن لا أدع مدينة الرباط (يقصد سوسة) إلى غيرها أبدا" فأقام بمدينة "سوسة" واشتهر بها حتى مات رحمه الله وذلك في سنة 284 هـ.

قال عبد الوهاب الزاهد: قمت على برج وهو على شاطئ البحر (الأبراج التي تتخذ للرباط والحراسة)، فإذا أبو الأحوص بين شرافتين في سواد الليل ودوي البحر وهو يقول:

أبـــــوا أن يرقـــــدوا الليـــــــل   فهـــــــــــم لله قـــــــــــوَّام

أبـــــو أن يفطـــــروا الــــــدهر	فهـــــــــــم لله صـــــــــــوَّام
أبـــــو أن يخـــــدموا الــــــدنيا	فهـــــــــــم لله خـــــــــــدَّام

ثم يقول " لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد " ثم اندفع في النياحة (يقصد البكاء والانتحاب) ثم سمع حسِّي فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنا عبد الوهاب، فقال: يا بني يا أبا القاسم إنما تقطع الدنيا بالهموم والأحزان والعلل والأمراض والأنكاد، وإنما نفرح غدا بالنظر إلى وجه الله عز وجل إذا صرنا إلى دار السلام".

وقال رجل صالح: رأيت في منامي كأني واقف على باب الجنة وأبو الأحوص يريد أن يدخل الجنة ورجل أعرفه من أهل سوسة يمنعه من الدخول ويقول له" لا أدعك تدخل حتى تدفع لي حقي، فقال: هذا قصر أعطيكه في الجنة، فقال له: لا، قال: فأعطيك قصرين، قال: لا، فقلت له: يا هذا يعطيك قصرين في الجنة فتأبى، وإنما لك عليه درهمان؟ فنفضني نفضة، ثم قال: إن الله تعالى لا يكذب ولا يكذب، لا بد من القصاص يوم القيامة، فانتبهت لنفضته، وأنا أعرف الرجل بوجهه فغدوت إلى الجامع فجلست بين الأبواب لصلاة الصبح، حتى دخل الرجل فأشرت إليه أن يأتيني فأتاني وقعد إلى جانبي وأقيمت الصلاة فصلينا، فلما انقضت الصلاة قلت له: يا أبا فلان إن أبا الاحوص اصواني أن أدفع إليك شيئا وقد أنسيته فما لك عليه؟ فقال: درهمان، فدفعت إليه الدرهمين وأعلمته بالرؤيا.

وجاء عنه أنه كان يناصح الأمراء وينكر عليهم، وسأله الأمير إبراهيم في بعض زوراته لأبي الأحوص أن يكلفه حاجة يقضيها له، فقال له : هذا البلد (يقصد سوسة) قد عمر وهو ثغر، وأهل إفريقية إليه مقصدهم وهو مرابطهم والقرويون في ليلة كل جمعة يرابطون إليه، والجامع يضيق بهم، وأحب أن تزيدهم فيه، وهذه الدواميس والدواليب التي وسط المدينة تجري إليه ساقية من خارج المدينة وتوصل إليه ماء السماء فينتفع بذلك الناس والأرامل والأيتام، ويجد فيه راحتهم أهل الموسم من الغرباء والمرابطين والمنقطعين إلى رب العالمين لحله وقدم أجله! وتخرج الذين حبستهم في الدواميس من أهل تونس، فأجابه إلى جميع ذلك وأخرج المحبوسين وكان ذنبهم عنده عظيما، وزاد في الجامع الثلاثة سقوف العالية التي تلي القبلة .

ومدينة "سوسة" هذه قال عنها عمرون " سوسة طرسوس المغرب" أي أنها في مكانتها من الرباط واجتماع الصالحين والعباد والمرابطين بها كمكانة طرسوس، ونقل في الرياض " وذكر عن بعض أمراء بني الأغلب أنه

أتى إلى سوسة، فتأخر عنه بعض من يخدمه، فقيل له بعد ذلك: لم تأخرت؟ قال: كان معي شيء من المسكر فتأخرت فأهرقته، لأني ما جسرت أن أدخل هذه المدينة به.

وذكر أيضا أن إبراهيم بن أحمد (الأمير) أظهر يوما في قصره عزفا ولهوا، فدخل رجل من المتعبدين إلى المسجد الجامع من بابه الغربي فقال لأصحابه: قوموا بنا إلى هذا الرجل فقد أحدث علينا أمورا لا نعرفها، ولا نصبر له عليها، فإما أن يزيل عنا هذا الأمر وإلا فنحن نخرج وأرض الله واسعة، ونحن إنما سكناها لله الواحد القهار.

فخرج من باب الجامع الشرقي فصحبه نحو سبعين رجلا من المتعبدين فتوجهوا إلى قصر إبراهيم فملأوا الفضاء الذي بين يدي القصر مع من تبعهم، فوجدوا الأمر الذي يكرهونه قائما من اللهو والعزف، فقيل لهم: ما تريدون؟ قالوا: نريد الأمير لنجتمع به، فقيل لهم: الأمير في شغل لن تصلوا إليه في يومكم، فقالوا: عرفوه أنا لا نبرح من هنا حتى نجتمع به، فدخل الحاجب إلى الأمير فقال: شيوخ سوسة كلهم بالباب وأرادوا الاجتماع بك، فقال له: أو يمكنني الاجتماع بهم وأنا على هذه الحال؟ ألا اعتذرت لهم عني؟ فقال: اعتذرت فلم يقبلوا عذري وقالوا: لا نبرح حتى نرى الأمير فقال له: اخرج إليهم فانظر ماذا طلبوه نفذ لهم، فخرج الحاجب إليهم، فقال: إن الأمير أمر بتنفيذ ما تحبون، لأنه على حال لا يمكن الاجتماع بكم، فقالوا: نحن إنما جئنا إلى هذه المدينة وسكناها لله الواحد القهار وقد أحدثت علينا هذه الأمور من اللهو والعزف، فإما أن يقطع عنا هذا الأمر وإلا فنحن نخرج عنه وأرض الله واسعة، فعاد الحاجب إلى الأمير فأخبره، فقال للحاجب: ارجع إليهم فقل لهم: لن تروا ما أنكرتموه بعد هذا، فانصرفوا، وخرج هو إلى "قبة الرمل" فكان يخلوا فيها بما يحب، فإذا قضى وطره رجع ليلا إلى قصره، وكانت مدينة سوسة في ذلك الوقت ليس بها شيء من المنكر، لا خمر ولا لهو ولا عزف وإنما كان أهلها مشتغلين بالحرب والحرس على المسلمين والمسلمات وقيام الليل وصيام النهار "انتهى.

يحيى بن عمر خوف من الذنب الذي يمنعه من الرباط

جاء عنه في رياض النفوس أنه كان يصدع بالحق، فأوذي بسبب ذلك ودعاه هذا إلى الاستخفاء عن الظلمة، فجاء عنه " وبعد استخفائه وطلب العراقيين له، انتقل إلى سوسة فمات بها رحمه الله تعالى، وقال أخوه عنه: كان أخي يحب سوسة ويحض على سكناها ويقول " اللهم لا تكسبني ذنبا استحق له الخروج من

سوسة " وكان يقول " إنما هي عندي مثل الإسكندرية وعسقلان وهذه المواضع التي ذكر فضلها في الكتب" انتهى.

الرباط وتجنب أئمة الجور

جاء في الانساب (69/6) للسمعاني " أبو عبد الله أحمد ابن سعيد بن إبراهيم الرباطي من أهل مرو، قال أبو على الغساني: عرف بالرباطي لأنه كان تولى على الرباط، قلت: ولعله يتولى عمارة الرباط حتى لا تضيع الأوقاف التي لها، أخبرنا زاهر بن طاهر بنيسابور أنا أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي إجازة أنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ سمعت أبا عبد الله مُحَمَّد ابن يعقوب الحافظ يقول سمعت إبراهيم بن أبي طالب يقول سمعت أحمد ابن سعيد الرباطي يقول: قدمت على أحمد بن حنبل فجعل لا يرفع رأسه إليّ، فقلت: يا با عبد الله! إنه يكتب عني بخراسان وإن عاملتني بهذه المعاملة رموا بحديثي، فقال: يا أحمد! هل بدّ يوم القيامة من أن يقال: أين عبد الله بن طاهر وأتباعه؟ انظر أنى تكون أنت منه؟ قال: قلت: يا أبا عبد الله! إنما ولاني أمر الرباط، لذلك دخلت فيه، قال: فجعل يكرر على: يا أحمد! هل بد يوم القيامة من أن يقال: أين عبد الله بن طاهر وأتباعه؟ فانظر أنى تكون أنت منه؟" انتهى.

إمكانية اجتماع الفسق والشجاعة والرباط

جاء في الكامل لابن الاثير (487/3) " ذكر دخول الديلم قزوين وما كان منهم:

كانت قزوين ثغر المسلمين من ناحية ديلم، فكانت العساكر لا تبرح مرابطة بها، يتحارسون ليلا ونهارا، فلما كان هذه السنة كان في جماعة من رابط بها مُحَمَّد بن أبي سبرة الجعفي، وكان فارسا شجاعا عظيم الغناء في حروبه، فلما قدم قزوين رأى الناس يتحارسون فلا ينامون الليل، فقال لهم: أتخافون أن يدخل عليكم العدو مدينتكم؟ قالوا: نعم. قال: لقد أنصفوكم إن فعلوا، افتحوا الأبواب ولا بأس عليكم. ففتحوها.

وبلغ ذلك الديلم فساروا إليهم وبيتوهم وهجموا إلى البلد، وتصايح الناس، فقال ابن أبي سبرة: أغلقوا أبواب المدينة علينا وعليهم، فقد أنصفونا وقاتلوهم.

فأغلقوا الأبواب وقاتلوهم، وأبلى ابن أبي سبرة بلاء عظيما، وظفر بهم المسلمون، فلم يفلت من الديلم أحد، واشتهر اسمه بذلك، ولم يعد الديلم بعدها يقدمون على مفارقة أرضهم. فصار مُحَمَّد فارس ذلك الثغر المشار إليه، وكان يدمن شرب الخمر، وبقي كذلك إلى أيام عمر بن عبد العزيز، فأمر بتسييره إلى زرارة، وهي دار الفساق بالكوفة، فسير إليها، فأغارت الديلم ونالت من المسلمين، وظهر الخلل بعده، فكتبوا إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة يسألونه أن يرد عليهم ابن أبي سبرة، فكتب بذلك إلى عمر، فأذن له في عوده إلى الثغر، فعاد إليه وحماه.

ولمحمد أخ يقال له خثيمة بن عبد الرحمن، وهو اسم أبي سبرة، وكان من الفقهاء" انتهى.

وللنساء شأن في الرباط

جاء في صفة الصفوة (252/2) " زجلة العابدة مولاة معاوية

أحمد بن سهل الأزدي قال: دخل على زجلة العابدة نفر من القراء فكلموها في الرفق بنفسها فقالت: ما لي وللرفق بها؟ فإنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غداً. والله يا إخوتاه لأصلين له ما أقلتني جوارحي، ولأصومن له أيام حياتي، ولأبكين له ما حملت الماء عيناي. ثم قالت: أيكم يأمر عبده بأمر فيحب أن يقصر فيه؟........كليب بن عيسى بن أبي حجير قال: كانت زجلة لا ترفع بصرها إلى السماء، وكانت تخرج إلى الساحل فتغسل ثياب المرابطين".

الخلفاء والرباط

جاء في البداية والنهاية (207/9) لابن كثير " قال مُحَمَّد بن إسحاق: وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر ليال خلت من صفر سنة تسع وتسعين، على رأس سنتين وتسعة أشهر وعشرين يوما من متوفى الوليد، وكذا قال الجمهور في تاريخ وفاته، ومنهم من يقول: لعشر بقين من صفر، وقالوا: كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر، زاد بعضهم إلا خمسة أيام والله أعلم.

وقول الحاكم أبي أحمد: أنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشر بقين من رمضان سنة تسع وتسعين، حكاه ابن عساكر، وهو غريب جدا، وقد خالفه الجمهور في كل ما قاله، وعندهم أنه جاوز الأربعين فقيل بثلاث وقيل بخمس والله أعلم.

قالوا: وكان طويلا جميلا أبيض نحيفا، حسن الوجه، مقرون الحاجبين، وكان فصيحا بليغا، يحسن العربية ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة، وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله، وقد كان رحمه الله آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق - ودابق قريبة من بلاد حلب - لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى المسماة بالقسطنطينية، أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت، فمات هنالك كما ذكرنا، فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله، فهو إن شاء الله ممن يجرى له ثوابه إلى يوم القيامة رحمه الله" انتهى.

قال ابن العديم في بغية الطلب (47/1) على دابق وهي من أعمال حلب " باب في بيان أن حلب كانت باب الغزو والجهاد ومجمع الجيوش والأجناد:

اعلم أن دابق كانت مجمعا لعساكر الاسلام في كل صائفة من زمن معاوية ابن أبي سفيان، فكانوا يجتمعون بها فاذا تكامل العسكر وقبضوا عطاءهم دخلوا حينئذ من الثغور إلى جهاد العدو، واستمر ذلك في أيام بني أمية، لا سيما في أيام سليمان بن عبد الملك، فإنه أقام بدابق سنين، وسير أخاه مسلمة لغزو القسطنطينية، وكان يمده بالعساكر الى أن مات سليمان بدابق، وبعد زوال ملك بني أمية تتبع بنو العباس مدن الثغور وحصونها فعمروها وحصنوها، وغزوا غزوات مذكورة من نواحي حلب من العراق ودابق وغيرهما، لا سيما أمير المؤمنين الرشيد رحمة الله عليه فانه اجتهد في إقامة الجهاد، وأنفق الاموال الوافرة في الثغور وأهلها، وكان يقدم حلب ويرتب أمر الغزو منها، وكذلك فعل المأمون بعده، ومات غازيا بطرسوس، وجاء المعتصم كذلك وفتح عمورية" انتهى.

هارون الرشيد واهتمامه بالثغور

كان هارون الرشيد يهتم كثيرا بالغزو في سبيل الله وجهاد أعداء الله بنفسه وتقوية الثغور فكان يغزو عاما ويحج عاما حتى قال فيه أبو المعلى الكلابي:

فمـــــن يطلـــــب لقـــــاءك أو يـــــرده	فبـــالحرمين أو أقصـــــى الثغــــور
ففـــي أرض العــــدو علـــى طمــــر	وفي أرض الترفــــه فــــوق كـــور
ومـــا حـــاز الثغـــور ســـواك خلـــق	مـــن المتخلفـــين علـــى الأمـــور

وألح عليه فِي بعض غزواته الثلج، فَقَالَ بعض أصحابه: أما ترى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نحن فيه من الجهد والرعية وادعة، فَقَالَ لَهُ: أسكت، عَلَى الرعية المنام، وعلينا القيام، ولا بد للراعي من حراسة رعيته. فَقَالَ بعض الشعراء فِي ذلك:

غضـــبت لغضـــبتك القواطـــع والقنـــا	لمـــا نهضـــت لنصـــرة الإســـلام
نامـــوا إِلَى كنـــف بعـــدلك واســـع	وســـهرت تحـــرس غفلـــة النـــوّام

ودخل عليه يوما مروان بْن أبي حفصة فأنشده من قصيدة لَهُ:

وســـدت بهـــارون الثغـــور فأحكمـــت	بـــه مـــن أمـــور المســـلمين المرائـــر
ومـــا انفـــك معقـــودا بْنصـــر لـــواؤه	لَـــهُ عســـكر عنـــه تشـــظى العســـاكر
فكـــل ملـــوك الـــروم أعطـــاه جزيـــة	عَلَى الرغم قسرا عَنْ يد وَهُوَ صاغر

نور الدين زنكي وهمته في الرباط

قال في الروضتين في أخبار الدولتين (240/2) " وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر ووجهه بنور البشر قد سفر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها ورقة هوائها وبهجة بهائها وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكل منا يمدحها وبحبه يمنحها، وكل منا يطريها، فقال نور الدين: أنا حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت

لـــيس في الـــدنيا جميعـــا بلـــدة مثـــل دمشـــق
ويســـــــليني عنهـــــــا في ســـــبيل الله عشـــقي
والتقـى الأصـل ومـن يتركهـا يشـــــقى ويشـــــقي
كـــم رشـــيق شـــاغل عنـــه بســـهم الغـــزو رشـــقي
وامتشـــاق البـــيض يغـــني عنـــه بالإقـــلام مشـــقي

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبيتيات في معنى الجهاد على لسانه فقلت:

للغـــــزو نشـــــاطي وإليـــــه طـــــربي مـــالي في العـــيش غـــيره مـــن أرب
بالجـــــد وبالجهـــــاد نجـــــح الطلـــــب والراحـــــة مســـــتودعة في التعـــــب
لا راحـــة في العـــيش ســـوى أن أغـــزو ســـيفي طـــربا إلى الطلـــي يهتـــز
في ذل ذوي الكفـــــر يكـــــون العـــــز والقـــدرة في غـــير جهـــاد عجـــز

وقلت أيضا:

أقســـمت ســـوى الجهـــاد مـــالي أرب والراحـــة في ســـواه عنـــدي تعـــب
إلا بالجـــــــد لا ينـــــــال الطلـــــــب والعـــيش بـــلا جـــد جهـــاد لعـــب

وقال في الروضتين عن نور الدين (169/2) " وأقام بالموصل نحو عشرين يوما، وسار إلى الشام، فقيل له: إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود؟ فقال: قد تغير قلبي فيها، فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضا أنني ههنا لا أكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد" انتهى.

وفي الرباط محتالين

جاء في تاريخ بغداد (688/8): "ذكر بعض ما حكي عن الحلاج من الحيل:

أخبرنا علي بن أبي علي المعدل، عن أبي الحسن أحمد بن يوسف الأزرق، قال: حدثني غير واحد من الثقات من أصحابنا أن الحسين بن منصور الحلاج كان قد أنفذ أحد أصحابه إلى بلد من بلدان الجبل، ووافقه على حيلة يعملها، فخرج الرجل فأقام عندهم سنين يظهر النسك والعبادة، وإقراء القرآن والصوم، فغلب على البلد حتى إذا علم أنه قد تمكن أظهر أنه قد عمي، فكان يقاد إلى مسجده، ويتعامى على كل أحد شهورا، ثم أظهر أنه قد زمن، فكان يحبو أو يحمل إلى المسجد حتى مضت سنة على ذلك، وتقرر في النفوس زمانته وعماه، فقال لهم بعد ذلك: إني رأيت في النوم كأن النبي صلى الله عليه واله وسلم يقول لي: «**إنه يطرق هذا البلد عبد لله صالح مجاب الدعوة، تكون عافيتك على يده وبدعائه**» فاطلبوا لي كل من يجتاز من الفقراء، أو من الصوفية، فلعل الله أن يفرج عني على يد ذلك العبد وبدعائه، كما وعدني رسول الله صلى الله عليه واله وسلم فتعلقت النفوس إلى ورود العبد الصالح، وتطلعته القلوب، ومضى الأجل الذي كان بينه وبين الحلاج، فقدم البلد فلبس الثياب الصوف الرقاق، وتفرد في الجامع بالدعاء والصلاة، وتنبهوا على خبره، فقالوا للأعمى، فقال: احملوني إليه، فلما حصل عنده وعلم أنه الحلاج.

قال له: يا عبد الله إني رأيت في المنام كيت وكيت، فتدعو الله لي، فقال: ومن أنا وما محلي.

فما زال به حتى دعى له، ثم مسح يده عليه، فقام المتزامن صحيحا مبصرا! فانقلب البلد، وكثر الناس على الحلاج فتركهم وخرج من البلد، وأقام المتعامي المتزامن فيه شهورا.

ثم قال لهم: إن من حق نعمة الله عندي، ورده جوارحي علي أن أنفرد بالعبادة انفرادا أكثر من هذا، وأن يكون مقامي في الثغر، وقد عملت على الخروج إلى طرسوس، فمن كانت له حاجة تحملتها، وإلا فأنا أستودعكم الله، قال: فأخرج هذا ألف درهم فأعطاه، وقال: اغز بها عني، وأعطاه هذا مائة دينار، وقال: أخرج بها غزاة من هناك، وأعطاه هذا مالا، وهذا مالا حتى اجتمع ألوف دنانير ودراهم، فلحق بالحلاج فقاسمه عليها" انتهى.

وهذا يبين اهتمام الناس بتجهيز الغزاة المرابطين واهتمامهم بالثغور.

الإمام أحمد بن المعذل ورباطه في طرسوس

خرج أحمد بن المعذل من البصرة إلى طرسوس، فأطال بها المكث، فكتب إليه ابنه: يا أبت وحشت بقاع، وفقدك إخوانك. فكتب إليه أحمد:

أثامن بالنفس النفيسة ربها	وليس لها في الناس كلهم ثمن
بها أملك الأخرى فإن أنا بعتها	بشيء من الدنيا فذلكم الغبن
إذا ذهبت نفسي بدنيا تنالها	فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن
فبعها له من إليه مصيرها	فإنك فيها للمنية مرتهن
ودع لذة الدنيا لنعم خالد	لدى جنة لا خوف فيها ولا حزن
فتبذل شيئاً لست تملك نفعه	فيجزيك بالإحسان ذو الفضل والمنن

الرباط وبر الوالدين

روى الخطيب البغدادي في الجامع (229/2) عن يعقوب بن سفيان، قال: " ذاكرني زيد بن بشر فقال: قد أقمت بمصر أفحي أبواك؟ فقلت: أما الأم فنعم وقد عزمت أن أحج العام وأخرج إليها فقال: سبحان الله وتقيم إلى إبان الحج ثم تحج وتخرج إليها وما يؤمنك أن تموت فتبقى غصة في نفسك؟ ثم قال: ما كنت أظن أنك ترضى لنفسك هذه المنزلة تغيب عن أمك في طلب العلم فقلت: إنها راضية بغيبتي عنها فقال: لا تقل ذلك فإن أصحابنا كانوا إذا طعنوا في السن لحقوا بالرباط بالإسكندرية ورفضوا الفسطاط قال: فأخبرني أبو عمر بن إدريس بن يحيى الخولاني وكنا نقول: إنه من الأبدال بل كان كذلك قال: لما طعن أبي في السن لحق بالإسكندرية للرباط فأقام بها ورفض الفسطاط قال: وكانت أمي حية فإذا كان أيام الرباط استأذنتها فتأذن لي فأخرج إلى الإسكندرية فأرابط بها الشهر أو الأكثر ثم أقدم عليها فمات أبي فلما كان أيام الرباط استأذنتها في الرباط فقالت: يا بني أخبرك بحالي وأنت أمير نفسك والله يا بني ما خرجت قط إلى الإسكندرية إلا وقلبي معلق بيدي حتى ترجع إلي فقلت: يا أمه فما لك لم تخبريني بهذا؟ حتى كنت لا أخرج قالت: يا بني كان أبوك حيا وكنت أرى أن له عليك حقا وبرا فكنت أرى وأوجب على نفسي أن أصبر لما يجب لأبيك عليك من الحق والبر فلما أن مات أبوك فإن شئت أن تخرج إلى الرباط على ما أعلمتك فاخرج

قال: فقلت: «معاذ الله أن أخرج على ما تصفين ولو علمت من قبل الحال ما كنت لأخرج فتركت الرباط حتى ماتت أمي» " انتهى.

وهذا حيث لم يكن الرباط والجهاد فرض عين.

نفاق المركب في الرباط

روى ابن ابي الدنيا في المنامات (92) عن أبي قبيل قال: «كنت في رباط فنفقت لي فرس ابني، فأقمت بعد ذلك سنين ثم رأيت في المنام أنه أتي بي إلى ميزاني، فأدخلت في كفة فتثاقل بي الميزان فكتب أجري فإذا فرسي بعينه أعرفها أدخلت معي في كفة الميزان فرجحت».

أبو إسحاق الفزاري والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الرباط

قال العجلي في الثقات (205/1) " إبراهيم بن مُحَمَّد أبو إسحاق الفزاري كوفي نزل الثغر بالمصيصة، وكان ثقة رجلًا صالحًا، صاحب سنة، وهو الذي أدب أهل الثغر، وعلمهم السنة، وكان يأمرهم وينهاهم، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه، وكان كثير الحديث، وكان له فقه، وكان عربيًّا فزاريًّا، أمر سلطانًا يومًا ونهاه فضربه مائة سوط، فغضب له الأوزاعي فتكلم في أمره" انتهى.

الإمام أحمد والثغر والجوع

جاء في سير أعلام النبلاء (320/11) " قال ابن الجوزي: ربما احتاج أحمد، فخرج إلى اللِّقاط.

قال الخلال: حدثني مُحَمَّد بن الحسين، حدثنا المروذي، حدثني أبو جعفر الطرسوسي، حدثني الذي نزل عليه أبو عبد الله، قال: لما نزل علي، خرج إلى اللِّقاط، فجاء وقد لَقَطَ شيئاً يسيراً. فقلت له: قد أكلت أكثر مما لقطت، فقال: رأيت أمراً استحييت منه، رأيتهم يلتقطون، فيقوم الرجل على أربعٍ، وكنت أزحف.

أحمد بن مُحَمَّد بن عبد الخالق: حدثنا المروذي، قال أبو عبد الله: خرجت إلى الثَّغْرِ على قدمي، فالتقطت، لو قد رأيت قوماً يُفسِدُون مزارع الناس، قال: وكنا نخرج إلى اللقاط".

جاء في اللسان (393/7) " اللقاط: السنبل الذي تخطئه المناجل، ويلتقطه الناس" انتهى.

البخاري وهمته ومشاركته مع المسلمين في الرباط

جاء في سير أعلام النبلاء (450/12) في سيرة البخاري عن وراق البخاري " قال: وكنا بفربر وكان أبو عبد الله يبني رباطا مما يلي بخارى، فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك، وكان ينقل اللبن فكنت أقول له: إنك تكفى يا أبا عبد الله فيقول: هذا الذي ينفعنا ثم أخذ ينقل الزنبرات معه، وكان ذبح لهم بقرة فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام، وكان بها مائة نفس أو أكثر، ولم يكن علم أنه يجتمع ما اجتمع وكنا أخرجنا معه من فربر خبزا بثلاثة دراهم، أو أقل فألقينا بين أيديهم فأكل جميع من حضر وفضلت أرغفة صالحة، وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمناء بدرهم."

وجاء في سير أعلام النبلاء (444/12) " قال: ورأيته استلقى على قفاه يوما ونحن بفربر في تصنيفه كتاب "التفسير" وأتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث فقلت له: إني أراك تقول: إني ما أثبت شيئا بغير علم قط منذ عقلت فما الفائدة في الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا اليوم، وهذا ثغر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة فإن غافصنا العدو كان بنا حراك".

الإمام أبو داود يؤلف كتابه العظيم السنن مرابطا في ثغر طرسوس

جاء في معالم السنن للخطابي (366/4) عن أبي داود قال: أقمت بطرسوس عشرين سنة كتبت المسند فكتبت أربعة آلاف حديث، ثم نظرت فإذا مدار أربعة آلاف على أربعة أحاديث لمن وفقه الله جل ثناءه.

النعمان الحضرمي وهمته العالية:

جاء في تاريخ ابن يونس المصري (244/2) "النعمان بن عبد الله بن النعمان الحضرمي: روى عنه عبد الله بن هبيرة السّبائى قتلته الروم بأرض الأندلس.

فوفد إلى الأندلس بفتح إلى سليمان بن عبد الملك ومعه مُحَمَّد بن حبيب المعافرى، فسألهما سليمان حوائجهما، فسأله المعافري حوائج، فقضيت وقال النعمان: حاجتي أن تردني إلى ثغر لي، ولا تسألني عن شيء. فأذن له، فرجع، واستشهد في أقصى ثغور الأندلس" انتهى باختصار.

المحدث بن نجيد وانفاقه على الثغور مع تحري الإخلاص

جاء في سير أعلام النبلاء (147/16) عنه " ومن محاسنه أن شيخه الزاهد أبا عثمان الحيري طلب في مجلسه مالا لبعض الثغور، فتأخر، فتألم وبكى على رؤوس الناس، فجاءه ابن نجيد بألفي درهم، فدعا له، ثم إنه نوه به، وقال: قد رجوت لأبي عمرو بما فعل، فإنه قد ناب عن الجماعة، وحمل كذا وكذا، فقام ابن نجيد، وقال: لكن إنما حملت من مال أمي وهي كارهة، فينبغي أن ترده لترضى.

فأمر أبو عثمان بالكيس فرد إليه، فلما جن الليل جاء بالكيس والتمس من الشيخ ستر ذلك، فبكى، وكان بعد ذلك يقول: أنا أخشى من همة أبي عمرو.

وقال الحاكم: ورث أبو عمرو من آبائه أموالا كثيرة، فأنفق سائرها على العلماء والزهاد، وصحب أبا عثمان الحيري والجنيد، وسمع من الكجي وغيره" انتهى.

الحسين بن علي التميمي وإنفاقه على الغزو لاستنقاذ ثغر طرسوس

قال السمعاني في الانساب (81/3) " ذكره الحاكم أبو عبد الله الحافظ في تاريخ نيسابور، وقال: حسينك التميمي، كان يحكى الإمام أبا بكر بن خزيمة في وضوئه وصلاته فانب ما رأيت من الأغنياء أحسن طهارة وصلاة منه، ولقد صحبته قريبا من ثلاثين سنة في الحضر والسفر وفي الحر والبرد، وما رأيته ترك صلاة الليل،

وكان يقرأ كل ليلة سبعا من القرآن ولا يفوته ذلك، وكانت صدقاته دائمة في السر والعلانية فيعيش بمعروفه جماعة من أهل العلم والستر، ولما وقع الاستنفار لطرسوس دخلت عليه وهو يبكى ويقول: قد دخل الطاغي ثغر المسلمين طرسوس وليس في الخزانة ذهب ولا فضة، ثم باع ضيعتين نفيستين من أجل ضياعه بخمسين ألف درهم وأخرج عشرة من الغزاة المطوعة الأجلاد بدلا عن نفسه، وما أعلم أنه خلا رباط فراوة قط عن بديل له بها فارس شهم للنيابة عن نفسه" انتهى.

عباد الثغور

جاء في بغية الطلب (1450/3) "إسحاق بن ابراهيم أبو يعقوب الشهرزوري رجل من الصالحين، كان مرابطا بثغر طرسوس ملازما للمسجد الجامع بها.

قرأت بخط القاضي أبي عمرو عثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرسوسي في كتاب «سير الثغور» في ذكر المسجد الجامع بطرسوس قال: وفي هذا المسجد أقوام معروفون راتبون، لا يقرأ عليهم متوجهون الى القبلة يصلون نافلة نهارهم أجمع إلا في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، لا يشغلهم عن ذلك إلا النداء بالنفير، أو الغزو، أو تجديد، أو تشييع جنازة من يموت من الصالحين، أو عيادة مريض من المجاهدين، منهم أبو يعقوب اسحاق بن إبراهيم الشهرزوري ما زال لازما للجانب الغربي من منبر طرسوس عشرين سنة لايفارقه، إذا أخذ المؤذنون في أذان صلاة الظهر ختم القرآن قائما مصليا، أو كاد يختم، ثم يصلي من الظهر الى العصر كذلك، هذا دأبه الى أن مات رحمه الله" انتهى.

أبو الفضل يوسف بن مسرور طول رباط وثمرة من ثمراته

الزاهد أبو الفضل توفي رحمه الله عام 324 هـ من المرابطين في سوسة والمنستير جاء في رياض النفوس عنه " وكان كثير الحرس على المسلمين فلقد ذكر عنه أنه قال: كنت بسوسة منذ أربعين سنة فجاءت مخاوف من العدو ومشت مراكبه في البحر، فأخذ الوالي أهل سوسة – أصحاب النوالات وغيرهم – بالحرس نُوَبا، وكان المرابطون في ذلك الوقت قلة، فلما سمع الناس بذلك انجفلوا مقبلين إلى سوسة وكثر الناس، فخرجوا

إلى "رملة سوسة" مستعدين حارسين على ذراري المسلمين فإنا ذات ليلة في ذلك نحرس وقد علوتُ في المحارس وأرى أهل الدور يمشون في ضوء السراج حتى جن الليل عليَّ، فسمعت صبية وهي تقول لأمها: يا أماه قد جاء المرابطون يحرسون علينا قومي بنا نرقد، فأعجبني ما سمعت منها واغتبطت بما فتح الله عز وجل لي من ذلك والحمد لله رب العالمين وليّ الحمد وأهله" انتهى.

أبو الترك السلمي وموقف حازم

جاء في بغية الطلب (4369/10) عنه " كان من أهل العلم والحديث والجهاد في سبيل الله بطرسوس، ذكره القاضي أبو عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوسي في كتاب سير الثغور، وأثنى عليه ثناء حسنا.

قرأت بخط أبي عمرو الطرسوسي، وذكر سكك طرسوس فقال: ثم تذهب لوجهك فتجد عن يمينك كنيسة أبي سليم فرج الخادم، وهي دار كبيرة، تشتمل على دور كبيرة، يسكنها مواليه، فيها ديوانه وعاملهم وكاتبهم، ورئيسهم، وخزائن أسلحتهم وعددهم، وهذا الوقف أزجى وقوف طرسوس وأكثرها مالا، وأوفره وأكثره موالي صالحين مجاهدين متنسكين، قد عرفت منهم الأكثر، وعرفت منهم رجلا نبيلا فارسا من أهل العلم والحديث، ذا صباحة ووضاءة ومنظر حسن، يعرف بأبي الترك السلمي، ما ركب قط الى نفير في صيف ولا شتاء، قرب النفير أم بعد مداه، صدق خبره أم كذب إلا لبس لأمته وسترها بدراعة، فسألته عن السبب في ذلك، فذكر أنه نودي في بعض الأزمنة بالنفير الى باب قلمية فبادر مسرعا، وكذلك كان رسم النجباء المتحركين في الجهاد، المسارعة الى النفير، فلقي العدو بمكان قريب من البلد، وكان السلطان حينئذ في الغزو، فباشر القتال، وأعانه من المسلمين قوم آخرون فظفرهم الله بمن ورد، ونصرهم وعادوا الى طرسوس سالمين غانمين فعقد بينه وبين الله عز وجل، لا ركب بعدها الى جهاد ولا نفير إلا بعد أن يتأهب أهبة الحرب، كما يتأهب من يبارز عدوه في مصافه وأوقات حذره وخوفه" انتهى.

من عقلاء المجانين في الثغور

جاء في بغية الطلب (3631/8) " رزام المجنون: كان مقيما بطرسوس مجاهدا، يعد في عقلاء المجانين.

ثم روى عن علي بن عبد الملك بن دهثم القاضي قال: كان بطرسوس مجنون يقال له رزام، وكان مدهوشا يهذي ويسمع ويؤذي، فإذا خرج العسكر الى أرض العدو خرج لخروجهم، وحمل درقة وسيفا فكلما لقي العدو أفاق كأن لم يكن به جنون، وكان من أجسر الناس عليهم، وربما قتل في اليوم جملة من العدو فإذا عاد الى أرض الاسلام عاد الى جنونه" انتهى.

العالم زيد بن شعيب المعافري رباط وتعبد

أحد أصحاب مالك، سكن ثغر الإسكندرية، جاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض عنه (58/3) " حكى سليمان بن داود العنبري عن عمه أبي الأصبع قال: كنت مع زين بن شعيب في الحرس، وكان إنما نام هجعة أول الليل ثم لا ينام حتى يصبح، يحرس وسط الليل وآخره ووسطه، أشد ما يكون. وإذا كان قبل الفجر بمنزلتين إنما تراه هكذا راحتاه إلى وجهه رافعا يديه داعيا ثم يقلب بطونهما يسأل ويتعوذ إلى الفجر " انتهى.

المجاهد الشجاع علي بن بكار

جاء في بغية الطلب (165/1) لابن العديم عن مُحَمَّد بن عيسى قال:" قيل لعلي بن بكار، وذكر له جزع الروم، فقال: البطيخ كبير، والحلو منه قليل، كنا في هذا الحصن-يعني حصن المصيصة-أربعمائة فتى، إذا أقلبنا حوافر خيولنا لننعلها للغزو اضطربت ركب بطارقة القسطنطينية".

أي أنهم إذا بدأوا بالاستعداد للجهاد بنعل حوافر الخيل ارتعب بطارقة القسطنطينية وتحركت ركبهم من الخوف مع كونهم أربعمائة شخص فقط ولكنهم كانوا في غاية من الشجاعة.

وقد جاء في تفصيل قول علي بن بكار ما ذكره ابن العديم في بغية الطلب (207/1) " ذكر حصن ثابت بن نصر:

وهو كان المشهور قبل الثغور وبنائها.

قرأت بخط أبي عمرو القاضي حدثني مُحَمَّد بن أحمد الزمام قال: سمعت عبد الله بن كلرت يقول: ما زال أولونا يقولون لم يعرف الجهاد فيما مضى في شيء من أرض الثغور، يعني طرسوس وأذنه وعين زربه، إنما كان حصن ثابت بن نصر بمدينة المصيصة في آخر أيام بني أمية، وأول أيام بني العباس، يخرج منه أربعمائة فارس صلحاء إذا أقلبوا حوافر خيولهم لتنعل للغزو، قلبوا بذلك قلوب بطارقه قسطنطينية خوفا منهم وجزعا.

قال: وقد غزا مُحَمَّد بن عبد الله أمير المؤمنين المهدي رحمه الله فلم تك هناك طرسوس ولا أذنه ولا عين زربه، وانما كان هذا الحصن لا غير.

وقرأت بخطه أيضا حدثني أبو الحسن العدل علي بن الحسين الحذاء وأبو بكر غانم بن يحيى بن عبد الباقي قالا: حدثنا أبو القاسم يحيى بن عبد الباقي قال: كان حصن ثابت بن نصر مشحنا بالابدال يجاهدون الروم، منهم يوسف بن أسباط صاحب سفيان الثوري، كان أدمن الصوم به فتوسوس.

وقرأت بخطه: حدثني علي بن إسحاق صاحب العرض قال: سمعت أبا العباس ابن عبدوس يقول: كان ابتداء أمر الثغر وحصول المسلمين به أن نفرا صالحين سكنوا حصن ثابت بن نصر بالمصيصة كثرت غزواتهم، وتشمر الروم منهم لشدة بأسهم وعظم نكايتهم فيهم، منهم: يوسف بن أسباط، وعلي بن بكار، وبعدهم إبراهيم بن أدهم، وعبد الله بن المبارك، وأبو معاوية الأسود وطبقاتهم، وقتا بعد وقت من لا يحصى عددا الى أن شحنت طرسوس، كلهم أهل فضل وجهاد.

قلت: وهذا ثابت بن نصر الذي نسب هذا الحصن إليه، هو ثابت بن نصر بن مالك بن الهيثم بن عوف الخزاعي، أخو أحمد بن نصر الشهيد، وكان فيه دين، وله حسن أثر في جهاد الروم، وولي الثغور الشامية" انتهى.

سراق الثغور

ففي الثغور سراق لا يأبهون بحال ومصالح المرابطين، فقد جاء في بغية الطلب (1341/3) " أرجون بن أولغ طرخان التركي:

قلده أبو أحمد الموفق في أيام المعتمد، وهو الغالب على دولته، طرسوس، وأمره أن يقبض على سيماء الطويل، فخرق هذا وجهل، وذلك أن المرتبين بلؤلؤة (ثغر من الثغور) أبطأ عنهم أرزاقهم وميرتهم، فضجوا من ذلك وضاقوا به ذرعا، وكتبوا إلى أهل طرسوس: إنكم إن لم تبعثوا إلينا بما نحتاج إليه على الرسم والا سلمنا لؤلؤة والقلعة الى الروم، فأعظم ذلك أهل طرسوس وأكبروه، وجمعوا فيما بينهم خمسة عشر ألف دينار، وعزموا على حملها إليهم، فقال لهم أرجون: أنا أولى بأن أتولى حمله إليهم، فسلموا المال إليه، فأخذه لنفسه، فلما أبطأ عن أهل لؤلؤة ما طلبوا سلموا القلعة إلى الروم، ونزلوا عنها، فقامت على أهل طرسوس من أجل ذلك القيامة، وضجوا في الطرقات بالدعاء على أرجون، واتصل الخبر بالسلطان، فكتب إلى أحمد بن طولون وقلده إياها ضرورة، ولم يكن لأبي أحمد حيلة في منعه منها، وذلك في سنة أربع وستين ومائتين" انتهى.

موقف حكيم في التولية على الثغور

جاء في تاريخ بغداد وذيوله (136/19) عن أبي سعيد مُحَمَّد بن الفضل المعلم قال: سمعت الفضل بن فضالة النسوي يقول: قال يحيى بن أكثم: كنت يوما عند المأمون أمير المؤمنين وعنده علي بن موسى الرضا، فدخل الفضل بن سهل ذو الرئاستين فقال للمأمون: قد وليت ثغر الفلاني فلانا التركي، فسكت المأمون، فقال علي بن موسى: ما جعل الله لإمام المسلمين وخليفة رب العالمين والقائم بأمور الدين أن يولي شيئا من ثغور المسلمين أحدا من سبي ذلك الثغر، لأن الأنفس تحن إلى أوطانها وتشفق على أجناسها وتحب مصالحها، وإن كانت مخالفة لأديانها، فقال المأمون: اكتبوا هذا الكلام بماء الذهب.

أبو جحيفة ووفاء الأخوة

روى ابن العديم في بغية الطلب (4373/10) عن غنام عن الأعمش عن ابراهيم قال: "خرج عليهم بعث فقال لي عبد الرحمن بن يزيد: اغد غدا حتى نطلب رجلا نجعل له فإني قد ثقلت عن هذا البعث، قال: فغدوت عليه فقال: اشتر لي فرسا فما أراني إلا تام في هذا البعث، فقلت: ما بدا لك؟ فقال: إني قرأت

سورة براءة فوجدتها تحث على الجهاد، فخرج فإنه ليسير في بعض الطريق ومعه أبو جحيفة، فمرض فتخلف عليه، وعلى الساقه رجل من بني تميم غليظ، يقال له أبو برذعه، فلحقه فقال: ما خلفك؟ فقال: مرض هذا الرجل فتخلفت عليه، فجلده خمسين سوطا فمات، فكان يرون أنه مات شهيدا " انتهى.

كانوا في الزمن الماضي يضبطون المتخلفين عن الجيش ويشددون في أمرهم حتى لا يضيع أحد من المسلمين المتخلفين عن الجيش فيأخذه الروم، خصوصا عند القفول لأن العدو يخرج يتتبع من يشذ من المسلمين المجاهدين، فيأخذه قتلا أو أسرا، ولكن هذا لا يبرر ضرب هذا المجاهد ضربا يؤدي إلى قتله، كما سبق في القصة خصوصا عندما يكون تخلف لأجل رجل مريض، وقد جاء في كتاب الورع رواية المروزي عن الإمام أحمد (161) " وسئل أبو عبد الله عن الرجل يكون في الغزو فيمر الرجل المريض؟

فقال: لا يقيمون عليه ينبغي للوالي أن يقيم عليه.

قلت: قد مضى ومضى الناس يتركه ويمضي يلحق بالناس.

فقال: هذا إن أقام عليه تخوف على نفسه وعليه يتركه ويمضي يلحق بالناس" انتهى.

وأورد ابن العديم في بغية الطلب (3388/7) أن أبا ذؤيب الهذلي غزا أرض الروم مع المسلمين، فلما قفلوا أخذه الموت، فأراد ابنه وابن أخيه أن يتخلفا عليه جميعا فمنعهما صاحب الساقة، وقال: ليخلف عليه أحدكما وليعلم أنه مقتول، فاقترعا فطارت القرعة لأبي عبيد، فتخلف عليه ومضى ابنه مع الناس، فكان ابن أخيه يحدث قال: قال لي: احفر ذلك الجرف برمحك، ثم اعضد من الشجرة بسيفك واجررني إلى هذا النهر، فإنك لا تفرغ حتى أفرغ، فاغسلني وكفني بكفني، واجعلني في حفرتك وأهل علي الجرف برمحك، وألق علي الغصون والحجارة، ثم اتبع الناس فإن لهم رهجة تراها في الأفق إذا أمسيت كأنها جهامة، قال: فما أخطأ مما قال شيئا، ولولا نعته لم أهتد لأمر الجيش".

وجاء في بعض المراجع أن أبا ذؤيب قال وهو يجود بنفسه عند ذلك:

أبا عبيـــــــد رفـــــــع الكتـــــــاب ... واقـــــترب الموعـــــود والحســـــاب

وعنـــــد رجلـــــي جمـــــل نحـــــاب ... أحمـــــر في حاركـــــه انصـــــباب

بشارة خير بدفع شر الافرنج عن ثغر رشيد بمصر

جاء في معجم السفر للسلفي (392) سمعت الفتح نصر بن عبد المحسن بن سلامة الرشيدي بمصر يقول: سمعت أمي ضياء بنت الزيتي بثغر رشيد - وكانت قد صامت خمسا وثلاثين سنة لم تفطر فيها إلا الأيام المنهية عن صومها – تقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في المنام وكأنه يمشي على الماء، فقلت لبازل القيم: من ذاك سله؟ فأتاه فسأله، فقال: أنا مُحَمَّد النبي وهؤلاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي جئنا لندفع الضيم عن هذا الثغر، قال نصر: فوالله ما مرت على هذا المنام أيام حتى وصلت الثغر سفن الإفرنج، فرجعوا خائبين خاسرين لم يظفروا بشيء" انتهى.

وليس المقصود هنا أن النبي صلى الله عليه واله وسلم هو بنفسه دفع وإنما وجوده في الرؤيا يشير للنصر والحفظ.

المرابط العابد خلف اليحصبي قرآن وإعداد

جاء في رياض النفوس عنه أنه " كان له صوت حسن بالقرآن، قال ولده : لقد كنت أخرج معه للرباط فينزل بقصر سهل فكان يقوم بنا كل ليلة في شهر رمضان ويجتمع خلفه جماعة فأسمع البكاء والشهيق من كل مكان، ولم يكن يتكلف في قراءته.

وكان يحسن الفروسية مولعا بشراء الخيل، ويخرج إلى الرباط بها للحرس على المسلمين والسياحة على البحر.

وكان ربما خرج من سوسة هو وأبو جعفر أحمد بن سعدون الأربسي وأبو بكر بن ابي عقبة فيقفوا صفا واحدا كأن العدو بين أيديهم ويجرون خيلهم في ذلك الموضع حتى تطلع الشمس رحمهم الله تعالى" انتهى، والقصور هي مواقع وأبراج يجتمع فيها المرابطون على السواحل الأفريقية هناك، وليست بالقصور المشتهرة.

كرامة لأحد المرابطين

روى السلفي في معجم السفر (414) عن رجل من المرابطين في بعض المحارس قال: كنت ذات ليلة جالسا أحرس وأكبر وأذكر الله عز وجل، إذ وقف على المحرس طائر فصاح: سبحان محصل ما في الصدور، سبحان باعث من في القبور، اللهم اغفر لأهل الثغور.

العالم المالكي مُحَّد بن سحنون ومفاجئة العدو أثناء الرباط

نقل المالكي في رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية أن مُحَّد بن سحنون " خرج من القيروان إلى قصر الطوب للعبادة والحرس على المسلمين، قال: فنزلت قِطاع الروم بساحل ذلك البحر، فضربوا على الساحلين وعلى تلك المنازل، فتصايح الناس ولم يكن مع مُحَّد بن سحنون إلا بغل، فخاف إن بعث إلى سوسة في طلب فرس أن ينال الروم من المسلمين بغيتهم، فتقلد بسيف وأخذ رمحا ودرقة، وركب ذلك البغل الذي كان معه واجتمع إليه الناس في جماعة من المرابطين ومن بقرب من القصر من أهل البوادي التي حوله، وتمادى بمن معه إلى الروم فوجدهم قد أشرفوا على نهب الأموال وسبي الحريم، فكبر عليهم هو ومن معه وقد ناشبوهم القتال، فهزمهم الله على يديه، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأبتعهم بالهزيمة حتى أدخلهم البحر هاربين، فحلف مُحَّد بعد ذلك أنه لا يخرج إلى الحرس إلا بفرس " انتهى.

الأجر الجزيل في الرباط الطويل

جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر (85/49) أن القاسم بن شمر أبو سفيان خرج من دمشق سائحا وسكن الجبال مدة فرارا بدينه، فانقطع إلى السواحل والثغور، فرابط فيها نحوا من خمسة وأربعين سنة.

حفظ الله تعالى لمن رابط حافظا لمن وراءه من المسلمين

جاء في بغية الطلب (3553/8) " راغب الخادم: مولى الموفق أبي أحمد بن جعفر المتوكل كان قائدا معروفا جليلا، وكان فاضلا فصيحا حسن المجالسة وله مال وافر وغلمان متوافرون، ولما مات مولاه انتقل إلى ثغر طرسوس وأقام بها، وابتنى بها دورا ومساكن له ولمواليه، وكان حين وصل إلى حلب سير ماله وثقله إلى طرسوس، وتوجه إلى خمارويه بن أحمد ابن طولون فأقام عنده مدة، وفرح أهل الثغر بكثرة غلمانه ومقامه بهم عنده، وتوهم أهل طرسوس أن خمارويه قبض عليه فعمدوا إلى والي طرسوس، وهو ابن عم خمارويه فقبضوا عليه ونهبوه وسجنوه إلى أن أطلق لهم راغب وهم خمارويه بعد ذلك بالقبض عليه فعصمه الله منه، وكان له ولمواليه نكاية في العدو، وآثار حسنه في الجهاد، وقيل إنه لما وصل حلب اجتمع بطفج بن جف لما لقيه بحلب، ووعده بأشياء عن خمارويه، فصعد إلى مصر في سنة تسع وستين ومائتين، ورد راغب خادمه مكنون مع سائر أمواله وسلاحه إلى طرسوس، ومضى إلى خمارويه إلى مصر في خمس غلمان، وكتب طغج إلى مُحَمَّد ابن موسى الأعرج بالقبض على مكنون وما معه، ففعل، ووثب عليه أهل طرسوس ومنعوه من ذلك، وكتبوا إلى خمارويه وقالوا: أطلق لنا راغبا حتى نطلق الأعرج، وأنفذ معه أحمد ابن طغان واليا على الثغور، وعزل عنهم الأعرج. ذكر ذلك ابن أبي الأزهر والقطربلي في تاريخهما الذي اجتمعا على تأليفه.

وذكر أبو مُحَمَّد الحسن بن إبراهيم بن زولاق فيما قرأته في سيرة أبي الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون قال: وفي هذه السنة في صفر منها- يعني سنة ثمان وسبعين ومائتين- مات أبو أحمد الموفق وعقد العهد لابنه أبي العباس، وكان للموفق غلام خادم من جلة غلمانه يعرف براغب، فلما مات مولاه أحزنه موته، فأحب أن يسكن طرسوس، فاستأذن في ذلك، فأذن له، فخرج قاصدا يريد الثغر، وكان خمارويه يومئذ بدمشق فلما بلغ راغب إلى حلب وهم بالدخول إلى طرسوس قيل له: طرسوس من عمل أبي الجيش، وهو بالقرب منك، فلو صرت إليه زائرا وقضيت حقه، وعرفته ما عزمت عليه من المقام بالثغر ما ضرك ذلك، وكان أجل لمحلك وأقوى لك على ما تريده، فبعث بثقله وجميع ما كان معه مع غلام له يعرف بمكنون وأمره أن يتقدمه إلى طرسوس، ورحل هو مخفا إلى دمشق، فلقي أبا الجيش فأحسن أبو الجيش تلقيه وسر بنظره ووصله وأحسن إليه وكان يكثر عنده ويحادثه، وكانت لراغب عارضه وبيان وحسن عبارة وكان قد رأى الخلفاء وعرف كثيرا من أخبارهم، فكان يصل مجلسه بشيء من أخبارهم وسيرهم، فأنس به خمارويه، وكان

يستريح الى حديثه ومذاكرته، فلما رأى راغب ما يخصه به خمارويه من التكرمة والأنس به والاستدعاء إذا تأخر استحيا أن يذكر له الخروج إلى طرسوس، فلما طال مقامه بدمشق ظن مكنون غلامه أن أبا الجيش قد قبض عليه ومنعه من الخروج إلى الثغر، فأذاع ما ظنه عند المطوعة وشكاه إليهم، وأكثر هؤلاء المطوعة من أهل الجبل وخراسان، معهم غلظ الأعجمية وسوء أدب الصوفية فأحفظهم هذا القول وظنوه حقا، فقالوا: تعمد إلى رجل قد خرج إلى سبيل الله محتسبا نفسه لله عز وجل. وفي مقام مثله في الثغر قوة للمسلمين وكبت لأعدائهم من الكافرين، فتقبض عليه وتمنعه من ذلك جرأة على الله فتلففوا وتجمعوا ومشى بعضهم الى بعض وأقبلوا الى واليهم وهو ابن عم خمارويه، فشغبوا عليه، فأدخلهم إليه ليسكن منهم ويعدهم بما يحبون، فقبضوا عليه وقالوا: لا تزال في اعتقالنا أو يطلق صاحبك صاحبنا، فإن قتله قتلناك به، وتسرع سفلهم إلى داره فنبهت وهتكت حريمه ولحقه كل ما يكره، وجاءت الكتب إلى أبي الجيش بذلك فأحضر راغبا وأقرأه الكتب: وقال له: والله ما منعناك ولا حظرنا عليك الخروج ولقد سررنا بقربك وما أوليت وأوليناك إلا جميلا، وقد جنى علينا سوء ظن غلامك ما لم نجنه فإذا شئت فارحل مصاحبا، وقل لأهل طرسوس: يا جهلة ما يومنا فيكم بواحد تتسرعون الى ما نكره مرة بعد أخرى ونغضي عنكم، ويحلم الله عز وجل، ولولا المحافظة على ثغر المسلمين وعز الاسلام لا خشية منكم ولا من كثرتكم، وإلى الله الشكوى، ولولا الخوف من غضبه عز وجل لجازيناكم على أفعالكم، فودعه راغب ورحل الى طرسوس، فلما صح عند أهل طرسوس خبر راغب أطلقوا عن مُحَمَّد بن موسى بن طولون، فلما أطلق قال: أصلح الله بلدكم، ورحل عنهم فسكن بيت المقدس، وكان له دين وفيه خير كثير.

وقرأت في سيرة الاخشيد: تأليف أبي مُحَمَّد بن زولاق قال: وحدثني احمد ابن عبيد الله عن أبيه قال: قال: طغج كنت بدمشق أخلف أبا الجيش فجاءني كتابه يأمرني بالمسير الى طرسوس، وأقبض على راغب وأقتله فسرت الى طرسوس، وكان شتاء عظيما فما أمكن أحد أن يتلقاني، فلقيني راغب وحده في غلمانه، وكان له مائتا غلام قد أشجو العدو، فأنزلني وخدمني وقضى حقي فأمسكت عنه، وحضرت معه غزاة أشجى فيها العدو فقال لي جماعة من أهل طرسوس: بالله إلا صنت هذا الرجل وأحسنت إليه، ففعلت وآثرت رضا الله عز وجل فانصرفت الى دمشق وكتب الى أبي الجيش أعتذر وذكرت أشياء منعتني من القبض على راغب.

قال طغج: فما شعرت وأنا بدمشق حتى وافى أبو الجيش فلقيته وخدمته وجلست معه ليلة للشرب فلما تمكن منه الشراب قال لي: يا طغج شعرت بأنه ما جاء بي الى دمشق سواك، فاضطربت فلما رآني قد تغيرت اقلب الحديث، وانصرفت وأنا خائف منه وعلمت أنه يقتلني كما قتل صافي غلام أبيه بدمشق لأنه سار إليه من مصر وقتله فقتل أبو الجيش تلك الليلة وكفاني الله أمره لأني عملت مع راغب لله فكفيت".

أبو هلال الراغبي وإخفاء العمل

جاء في بغية الطلب (4653/10) " أبو هلال الراغبي الخادم: مولى راغب مولى الموفق بالله، كان من الغزاة المجاهدين في سبيل الله، الموصوفين بالشجاعة والنجدة والشهامة، وكان مقيما بطرسوس بدار راغب مولاه وهي الدار الكبرى.

نقلت من خط أبي عمرو عثمان بن عبد الله إبراهيم الطرسوسي القاضي، من كتاب سير الثغور، الذي ألفه لابن الفرات، قال: وفي هذه الدار- يعني- دار راغب الكبرى خدم وشيوخ من الفرسان المتقدمين، منهم: أبو هلال الراغبي، أدركته أنا وهو ابن قريب من مائة سنة.

قال أبو عمرو: وحدثني أبو الطيب يمن بن عبد الله الريداني-أحد فرسان طرسوس وقوادها-أنهم كانوا في بعض المغازي فوافقوا العدو فظفر أبو هلال الخادم الراغبي بالمرلس أحد فرسان الروم، فأخذه أسيرا فعرفه المرلس نفسه، وقال: أبق علي فأنا المرلس فدفعه الى بعض السواس أو المكاريين، وقال له: امض به إلى الأمير ثمل وعرفه أنك أنت أسرته ليدفع إليك ما جرى الرسم بمثله فيمن أخذ أخيذا، فلما حصل عند ثمل قال له: من أسرك؟ قال: رجل خادم من حاله وعلامته، وجدته على فرس من شيته وآله وسلاح، هو كذا وكذا، قال له ثمل: وما أخذك هذا السائس؟ قال: لا والله، فأذن ثمل للناس في المقام في ذلك المنزل، وكان إذا أقام العسكر في بلاد الروم بمكان نودي: ألا إن الأمير مقيم ليتسع الناس في الذبائح وغيرها من المآكل، ومن عرض له قبل الأمير مهم قصده في مضربه، فقضى وطره، فلما أقام أتاه المسلمون بالتهنية بالفتح وبالظفر بالمرلس، والمرلس جالس بقرب ثمل بحيث يرى الناس ولا يرونه، ويسمع ثمل مناجاته، فكلما دخل رجل للسلام قال له ثمل: أهذا الذي أسرك؟ فيقول: لا حتى جاء أبو هلال الراغبي، فقام المرلس قائما

وسجد لأبي هلال تعظيما، وقال لثمل: أيها الأمير هذا الذي أسرني، فقال أبو هلال: ما أعرف شيئا مما تقول ولا هو أخيذتي فاستحلفه ثمل بحياته، فقال: نعم إلا أنه ليس من المروءة أن يظهر الرجل أحسن أفعاله، وإنما يحسن بالإنسان أن يتحدث عنه غيره بما يأتي من الجميل، قال ثمل: يا أبا هلال لو غيرك أخذ المرلس لم يسعنا معه أرض النصرانية، ولا أرض الإسلام، قال أبو هلال: فأطلق للسائس أن يتكلم، قال: ثمل لا رونق للكذب ولا نفاذ" انتهى.

من حوادث الثغور

جاء في بغية الطلب (4281/9) "سعيد بن بريد: أبو عبد الله التميمي النباجي: قدم العواصم والثغور غازيا، وأقام بطرسوس، وكان من أقران ذي النون المصري، وله كلام حسن في الرقائق والحقائق، وكان كثير العبادة، وساح، حكى عن الفضيل بن عياض وأبي خزيمة العابد.

ثم روى ابن العديم بإسناده عن مُحَمَّد ابن أبي الورد قال: صلى أبو عبد الله النباجي بأهل طرسوس صلاة الغداة، فوقع النفير وصاحوا، فلم يخفف الصلاة، فلما فرغوا قالوا له: أنت جاسوس، قال: وكيف ذاك؟ فقالوا: صاح النفير وأنت في الصلاة لم تخفف، قال: إنما سميت صلاة لأنها اتصال بالله، وما حسبت أن أحدا يكون في الصلاة فيقع في سمعه غير ما يخاطب الله به " انتهى.

والأصل عند وقوع النفير أن يخفف المرء من صلاته ليجيب منادي الجهاد ولكن يبدو أن هذا العابد لم يعلم بوقوعه انشغالا بالصلاة.

عتبة الغلام والشهادة في المصيصة

روى أبو نعيم في الحلية (227/6) عن مخلد بن الحسين، قال: جاءنا عتبة الغلام فقلنا له: ما جاء بك؟ قال: جئت أغزو، قال: قلت: مثلك يغزو؟ قال: إني رأيت في المنام أني آتي المصيصة فأغزو فأستشهد، قال: فنودي يوما في الخيل فنفر الناس وجاء عتبة راجعا من حاجته فلما دخل من باب الجهاد استقبله رجل

فقال: هل لك في فرسي وسلاحي فإني قد اعتللت؟ قال: نعم، قال: فنزل الرجل ودفعه إليه، قال: فمضى مع الناس فلقوا الروم فكان أول رجل استشهد.

الشاعر أبو بكر القرشي المصيصي يرثي الثغور

وذلك بعد غلبة الروم ونقفور عليها، ففي عام ثمان وأربعين وثلاثمائة غلب الروم على عين زربة، وتل موزة، وتل صوغا، وحمام نوفل، وأرقينية، وما بين هذه المدن من القرى والرساتيق، وأكثر شعراء الثغور والمنكوبون المراثي فيما حل بهم، فقال أبو بكر القرشي المصيصي في ذلك:

لا تبكين خليط الدار اذ بانا … ولا المعارج من دعد وأظعانا

وابك الثغور التي أضحت معالمها … دوارسا أقفرت ربعا وقيعانا

أبلغ خليفتنا عنا رسالتنا … لقيت يا صاح ان بلغت رضوانا

خليفة الله لو عاينتنا لجرت … منك الدموع لنا سكبا وتهتانا

جر العدو علينا في عساكره … كأنها قطع في الليل تغشانا

يسبي ويقتل ما يلقاه من أحد … كأنما ألبس الاسلام خذلانا

بعين زربة إذ حطت عساكره … وتل موزا الى أعبار جيحانا

وتل صوغا وما ولاه صبحه … وبالخليج وحوز المرج مسانا

وبالكنيسة والحمام زلزلها … وبالملندين قبل العيد وازانا

وحصن أرقان والأحواق ضعضعها … وبالمثقب والتينات غادانا

وأهل بياس ابتاعوا مدينتهم … من العدو كفى بالبيع خسرانا

وكم حصون إذا عددتها كثرت … يكفيك من باطن المنشور عنوانا

مدائن أضحت بالثغر موحشة … منابر عليت بالبغي صلبانا

ترى الخنازير تسعى في مساجدها … وطالما عمرت فقها وقرآنا

ترى أئمتها صرعى وقد ذبحوا … عند المحاريب إذلالا وإيهانا

ترى المصاحف والأجزاء محرقة … هلا بكيت لها سرا وإعلانا

ترى الرجال كبدن الحج قد نحروا … حول الحصون عليها الطير قطعانا

ترى النساء مع الولدان يجمعهم … أراذل الروم أبكارا وصبيانا

ترى العرائس أقران العلوج معا … عوضن بالسيف أزواجا وأختانا

يقول فيها:

مُحَمَّد يا رسول الله لو نظرت … عيناك أو سمعت أذناك شكوانا

وقد جفانا بنو الاسلام كلهم … فلا مغيث لنا والله مولانا

لأبكين على الاسلام مكتئبا حتى … أوسد في الأجداث أكفانا

والمصدر بغية الطلب (4363/10).

إبراهيم بن أدهم رباط وعبادة وإجمام

روى أبو نعيم في الحلية (372/7) عن أحمد بن فضيل، قال: سمعت أبي يقول: " صعدت مع إبراهيم بن أدهم، حائط عكة، فركب الحائط بين الشرفتين كما يركب الرجل دابته، ثم قال لي: ارقد - شبيها بالمنتهر — فرقدت، فلم يجئني النوم، ثم لم أزل أزحف لأسمع من فيه شيئا، فلم أسمع إلا رن جوفه، كان يدوي كدوي النحل، وكان لا يحرس ليلة الجمعة، قلت: ما لك لا تحرس ليلة الجمعة؟ قال: إن الناس يرغبون في فضل ليلة الجمعة فيحرسون أنفسهم فإذا حرسوا أنفسهم نمنا، وإذا ناموا حرسناهم ".

الإمام عبد الله بن المبارك وشيء من أحواله مع الجهاد والرباط

الإمام عبد الله بن المبارك من العلماء المجاهدين المرابطين القدوات، كان يخرج للجهاد والرباط في الثغور في طرسوس وغيرها، ونذكر هنا شيئا من أحواله وشعره في الجهاد والرباط.

كان عبد الله بن المبارك ينشد:

كـــل عـــيش قـــد أراه نكـــدا　　غير ركن الرمح في ظل الفرس

وقيـــام في ليـــالي الـــدجى　　حارسا للناس في أقصى الحرس

رفـــع الصـــوت بتكبـــير بـــلا　　صخب فيه ولا صوت جرس

وقال في مرابطة عباداد:

سقى الله عبادان غيثا مجللا فإن لها فضلا جديدا وأولا
وثبت من فيها مقيما مرابطا فما إن أرى عنها له متحولا
إذا جئتها لم تلق إلا مكبرا تخلى عن الدنيا وإلا مهللا
فأكرم بمن فيها على الله نازلا وأكرم بعبادان دارا ومنزلا

وروى الخطيب في تاريخ بغداد (316/1) عن ابن المبارك قال: يذم النَّاسك الذي يسكن بغداد:

أيها الناسك الذي لبس الصو ف وأضحى يعد في العباد
الزم الثغر والتعبد به ليس بغداد مسكن الزهاد
إن بغداد للملوك محل ومناخ للقارئ الصياد

وجاء في تحريض ابن المبارك على الرباط بطرسوس في بغية الطلب في تاريخ حلب (203/1) عن المسيّب بن واضح قال: أنشدنا عبد الله بن المبارك رحمه الله:

إنّي أشير على العزّاب إن قبلوا بأن يكون لهم مثوى بطرسوس
الدار واسعة بالأهل رافقة غيظ العدو وأجر غير محسوس
قوم إذا نابهم في الحرب نائبة حلّوا الرباط فلم يلووا على كوس

وقال أيضا:

أما النهار ففرسان أساورة وفي الظلام قيام كالرهابين
حمر العيون إذا لاقوا كأن بهم خبط الجنون وليسوا بالمجانين

وروى ابن العديم (3795/8) عن ابن بسام قال: سمعت زرقان يقول: سمعت ابن المبارك يقول على سور طرسوس:

ومــــن الــــبلاء وللــــبلاء علامـــــة أن لا يـرى لـك عـن هـواك نـزوع
العبـــد عبـــد الـــنفس في شـــهواتها والحــــــر يشــــــبع تارة ويجـــــوع

وروى ابن العديم بإسناده (3331/7) عن الخطاب صاحب عروة بن مروان - الخطاب صاحب عروة بن مروان قال: رأيت الجفان بأرض الروم على رؤوس الشرط فيها الكعك والسويق والتمر فقلت: لأتبعنها حتى أنظر الى من يذهب بها، قال: فجيء بها الى رحل ابن المبارك، فقالوا: بعث بها عبد الملك – أي عبد الملك بن صالح بن علي بن العباس – فسمعته يقول للشرط: انطلقوا لا حاجة لي فيها فردها.

روى ابن العديم في بغية الطلب (1850/4) بإسناده عن سعيد بن رحمة بن نعيم المصيصي قال: خرج عبد الله بن المبارك من المصيصة في شعبان سنة احدى وثمانين فشيعه أبو اسحاق الفزاري، ومخلد بن الحسين، وعلي بن بكار مشاة الى باب الشام يبكون، ثم قدم علينا اسماعيل الجعفري الكوفي فقال لأبي اسحاق: يا أبا اسحاق شهدت عبد الله بن المبارك بهيت وقد خرج عليلا من السفينة فمات بها ليلة الثلاثاء لصبيحة الاربعاء لثلاث عشرة مضت من رمضان، فبكى أبو اسحاق بكاء شديدا، وجزع، وعزاه الناس.

وروى عن الحسن بن الربيع يقول: رأيت ابن المبارك يقاتل بأرض الروم في يوم شديد الحر قد رفع قلنسوته عن رأسه.

وجاء في بغية الطلب (204/1) أن أبا عمرو الطرسوسي روى بإسناده عن ابن المبارك: رأيت النبي صلى الله عليه واله وسلم في المنام واضعا يده على سور طرسوس قال: اللهم احفظني فيها وفي أهلها.

وجاء في ترتيب المدارك (42/3) للقاضي عياض " قال العسولي العابد: كنت مع ابن المبارك في غزاة في ليلة ذات برد ومطر فبكى، فقلت أتبكي من مثل هذا؟ فقال: إنما أبكي على ليال سلفت ليس فيها مثل هذا من الشدة لنؤجر عليها" انتهى.

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق (448/32) عن عبدة بن سليمان: كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم فصادفنا العدو. فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو، فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله ثم آخر فقتله. ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه، فقتله، فازدحم

إليه الناس. فكنت فيمن ازدحم إليه وهو يلثم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فمددته، فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن تشنع علينا؟!

وروى أيضا (449/32) عن مُحَمَّد بن إبراهيم بن أبي سكينة: أملى علي عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وودعته للخروج وأنفذها معي لفضيل بن عياض في سنة سبعين ومئة. وقيل: في سنة سبع وسبعين:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت إنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلقيت الفضيل بن عياض في مسجد الحرام بكتابه، فلما قرأه ذرفت عيناه، ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم.

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق (475/32) عن عمر بن عقبة عن ابن المبارك أنه كان يقول في دعائه "اللهم أني أسألك الشهادة في غير جهد بلية ولا تبديل نية" فمنّ الله على ابن المبارك بإجابة دعوته، فأماته شهيدا غريبا في غير تربته من غير جهد في الشهادة، ولا تبديل في الإرادة.

وروى (475/32) عن الحسن بن عيسى قال لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب، قال: فبكى نصر، فقال له: ما يبكيك؟ قال: اذكر ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا، فقال له: اسكت، فإني سألت الله تبارك وتعالى أن يحييني حياة الأغنياء، وأن يميتني ميتة الفقراء، ثم قال: لقني (أي الشهادة) ولا تعد علي إلا أن اتكلم.

الغازي العابد المرابط عمر بن سعيد بن سنان شيخ ابن حبان

قال ابن حبان في صحيحه (4621) "أخبرنا عمر بن سعيد بن سنان، - وكان قد صام النهار، وقام الليل ثمانين سنة غازيا ومرابطا - أخبرنا أحمد بن أبي بكر، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم الذي لا يفتر من صيام وصلاة حتى يرجع**»".

دعاء موفق

ذكر أبو نعيم في الحلية (401/10) عن مُحَمَّد بن الفرج الودنكاني أنه كان الجهاد والرباط ميسرا له، وكان من دعائه: اللهم اقبضني في أحب المواطن إليك، فخرج إلى طرسوس ثلاث مرات فمات بها سنة أربع وثمانين ومائتين.

حرص المسلمين في أفريقيا على تحصيل الرباط

جاء في البيان المغرب (19/1) " ذكر ولاية عقبة بن نافع أفريقية وغزواته فيها واختطاطه مدينة القيروان:

نسبه هو عقبة بن نافع بن عبد قبس بن لقبط بن عامر بن أمية بن طرف بن الحارث بن فهر ومن فهر بن مالك تفرقت القبائل، وقال ابن أبي الفياض أن عقبة ولد قبل وفاة رسول الله - صلى الله عليه واله وسلم - بسنة واحدة، قال إبراهيم بن القاسم: ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين، فافتتحها ودخلها ووضع السيف في أهلها، فإنني من بها من النصارى، ثم قال «إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون غزا للإسلام إلى آخر الدهر» فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: «نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط» فقال عقبة «إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركه صاحب البحر إلا وقد علم به وإذا كان بينها وبين البحر ما يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون» فلما اتفق رأيهم على ذلك، قال

«قربوها من السبخة، فإن دوابكم الإبل وهي التي تحمل أثقالكم، فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد حتى يفتتح الله لنا منها الأول فالأول وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر والنصارى»" انتهى.

من أحوال الثغور في الأندلس

جاء في المقتبس لابن حيان (147) في حوادث سنة ست وثلاثين ومائتين " فيها ورد كتاب للأمير من عبيد الله بن يحيى من الثغر الأعلى يذكر استغناءه عن العدة التي أمر باحتباسها قِبله من الحرس، واكتفاءه بمائة وثلاثين غلاما، ذكر أنهم من مواليه وغلمانه يرضى بسالتهم ويحمد مذاهبهم ويسكن إليهم ويجتزئ بخدمتهم لما أصبح الثغر بحمد الله من السكون والهدوء ووقم العدو بحروب بارتضاء رأيه وإحماد نظره وقدم مقنبا من قبله من فرسان الخرس على مرابطهم بالماء، وأجرى القطائع على عدته تلك التي اقتصر عليها من الرواتب والنفقات والعلوفات عليهم مما في يده من مال السلطان، وأن يصرف جميع ما يقبضه بالثغر من الجزاء والعشور وجميع الوظائف بعد إقامة سائر النفقات الراتبة إلى فكاك أسراهم وحمل مرجليهم ومرمة حصونهم ومصالح ثغوره وكل ما فيه تقويتهم على عدوهم، وسوغه أن يرتزق في كل شهر لعمالته مما يجتبيه مائتي دينار دراهم، وينهض معروفه للعام إلى ألف دينار مما يتقاضاه من جباية عمله، فكان عمل الأمير عبد الرحمن ذلك بالثغر وأهله من جلائل مناقبه" انتهى، وعبد الرحمن هذا هو عبد الرحمن الأوسط الأموي الحاكم بالأندلس.

وذكر ابن حيان في حوادث سنة سبع وثلاثين ومائتين " وفيها في أيام ولاية عبيد الله بن يحيى للثغر قام بناحيته رجل من المعلمين فادعى النبوة وألحد في القرآن فأحاله عن وجوهه وأوله على غير تأويله، وقام معه خلق كثير وكان ينهى عن قص الشارب والأظفار ويقول " لا تغيير لخلق الله " فأرسل عبيد الله من جاء به، فلما دخل عليه وكاشفه كان أول ما ابتدأه به أن دعاه إلى اتباعه، فاستشار فيه عبيد الله أهل العلم عنده، فأشاروا باستتابته ثلاثة أيام فإن تاب وإلا قتل، ففعل به ذلك، فلم يتب فأسلمه للقتل صلبا، فجعل يقول ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**﴾ فأمضى عبيد الله قتله بالفتوى وكتب إلى الأمير بأمره فأحمد فعله" انتهى.

العالم العابد الزاهد جبلة ورباطه ضد العبيديين

قال القاضي عياض عنه في ترتيب المدارك (375/4) في أمر العبيديين" كان رحمه الله تعالى، شديدا في ذلك. لا يداري فيه أحدا. ولم يكن أحد أكثر مجاهدة منه للروافض، وشيعهم. فنجاه الله تعالى منهم. ولما دخل عبيد الله إفريقية، ونزل رقادة، ترك جبلة سكنى الرباط، ونزل القيروان، فكلم في ذلك، فقال: كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك، فكان إذا أصبح، وصلى الصبح، خرج إلى طرف القيروان من ناحية رقادة، ومعه سيفه، وترسه، وقوسه، وسهامه، وجلس محاذيا لرقادة، نهاره، إلى غروب الشمس، ثم يرجع الى داره، ويقول: احرس عورات المسلمين منهم، فإذا رأيت منهم شيئا، حركت المسلمين عليهم.

وكان ينكر على من خرج من القيروان الى سوسة، أو نحوها من الثغور، ويقول جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك" انتهى.

حصار عكا من أروع الأمثلة في الرباط

قام الصليبيون أثناء حملاتهم الصليبية في القرن السادس الهجري بمحاصرة عكا من أجل دخولها وكان المسلمون مرابطون في المدينة يحمونها، والسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله مرابط ومحاصر للصليبيين هؤلاء، فهم فرضوا طوقا على عكا وهو فارض طوق عليهم ومرابط لهم ويمد المسلمين المحاصرين في المدينة بالمعونة والمؤونة، واستمرت قرابة السنتين، حتى سقطت بأيدي الصليبيين وفي هذا الحصار من الأحوال والحوادث الدروس والعظات والعبر ينبغي لكل متصد للجهاد والرباط قراءتها، ولعلنا نأتي على بعض منها هنا.

جاء في الروضتين لأبي شامة المقدسي (153/4) " فصل في إدخال البطس (نوع من السفن) إلى عكا:

قال القاضي ابن شداد: كان (أي السلطان صلاح الدين) رحمه الله قد أعد ببيروت بطسة وعمرها وأودعها أربع مئة غرارة من القمح، ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزي الفرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة، بحيث ترى من بعد، وجاؤوا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني، وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد – واعتقدوا أنهم منهم – فقالوا (أي المسلمين): أو لم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: لا لم نأخذ البلد بعد، فقالوا: نحن نرد القلوع إلى العسكر، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها، فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد.

وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها، فقصدوها لينذروها، فاشتدت البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد، وكان فرجا عظيما، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش – وهو والي البلد – والمقدم على الأسطول – وهو الحاجب لؤلؤ – يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر يكفي البلد إلى ليلة النصف من شعبان لا غير، فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لخاص ولا عام، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو، وتضعف به قلوب المسلمين.

وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والادام والمير وجميع ما يحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية، ولججت في البحر تتوخى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان، وقد فنيت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم.

وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل، والناس في تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى، يشاهد القتال ويدعو إلى ربه بنصره، وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره، وفي قلبه ما في قلبه، والله يثبته، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب، والله يدفع عنها، والريح تشتد،

والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب، حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى ميناء البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقي الأمطار عن جذب، وامتاروا بما فيها، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كان السلطان قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز بطس كبار، وتعميرها من كل ميرة وغلة، وتسييرها إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بالبلد إعواز الأقوات، فأفكر فيما يتعجل به الغرض، فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامة، فجهز بطسة كبيرة قد ملأها ميرة وغلة كثيرة، وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحي اللحى ممسوخي الحلى، وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها، فملئت بالشحوم واللحوم، وأربع مئة غرارة غلة وأحمال من النشاب والنفط، ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو في البحر، وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوبوا بها نحوها والريح تسوقها والفرنج من مراكبها تقول: ما هذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر.

وظهرت رابع عشر شعبان من ثبج البحر ثلاثة مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدو فخرقتها وقربت منها سفينة فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى وامتلأ الثغر بها وأثرى" انتهى بتصرف.

"قال: واغتنم السلطان هيجان البحر وحضور مراكب الأسطول من مصر، فما زال يقوي عكا بتسيير الغلات والأقوات إليها في المراكب وملأها بالذخائر والأسلحة والكماة، فلما سكن البحر عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدت مراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد وامتنع عليه دخول المدد، فانتدب العوام بالسباحة وحملهم على ذلك من السلطان السماحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور، ونكتب ويكتبون إليهم إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها.

وكان في العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها برجا من خشب وهوادي من قصب، ويدرجها على الطيران من البعد، وكنا نقول: ما لهذا الولع بما لا ينفع؟ حتى جاءت نوبة عكا

فنفعت وشفت الغليل، ونقعت وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال، ولقد عطب عوامون فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مرارا من القوم فاجترأ وأنس بالعوم".

وذكر أيضا رسالة مواساة من القاضي الفاضل أثناء مرابطة صلاح الدين للفرنج على عكا فقال القاضي الفاضل مخاطبا صلاح الدين " يا مولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى فيها يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس، وهذه الغمرات التي تفيض فيها الصدور بمائها بل بنارها، هي نعمة الله عليك وغراسك في الجنة ومجملات محضرك ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا**﴾ وهي مجوزاتك الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليه والها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قوله "لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت" وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع بالغبار وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار" انتهى.

صمود المرابطين في الإسكندرية

أنقل قصة ذلك الصمود من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (109/5) باختصار وتصرف، وذلك لما غزت الفرنج الإسكندرية سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة فقال المقريزي " ثم إن أهل الإسكندرية لما رأوا ما لم يعهدوه أبدا ولا شاهدوه على طول المدى رجفت منهم القلوب، وصار كل واحد من عقله مسلوب، ولما رأوا من الرؤوس الطائرة والخيول الغائرة، فتزاحموا في الأبواب بعضهم على بعض، فصاروا موتى بالطول والعرض، وثبت بعض الناس وقاتل وهو مجتهد حتى قتل من الفرنج ما تيسر له قبل أن يستشهد.... نعود إلى ذكر من قاتل بالجزيرة من المسلمين للفرنج الكافرين، وذلك أن جماعة من رماة قاعة القرافة المتطوعة، لما حوصروا في الرباط الذي عمره لهما الشيخ الصالح أبو عبد الله مُحَمَّد بن سلام خارج باب البحر بالجزيرة بسبب مبيتهم فيه وصلواتهم وذكرهم ليلة خروج طائفتهم ترابط به، وكان بناؤه قبل الوقعة ما يزيد على سنة، قيل: إنه انصرف على عمارته ثمانمائة دينار، فلما تكاثرت الفرنج حول الرباط، صارت رماة المسلمين في

أعلاه يرمون على الفرنج بسهامهم، فقتلوا من الفرنج جماعة، فلما نفدت سهامهم عمدوا إلى شرفات الرباط صاروا يهدموها ويرمون الفرنج بأحجارها إلى أن نفذت حجارة الشراريف منهم، فانقطع رميهم فكسرت الفرنج شبابيك الرباط المذكور وصعدوا إليهم، فلما صارت الفرنج معهم لم يسمع لهم بعد ذلك صوت، أخبر عنهم بذلك عبد الله بن الفقيه أبو بكر قيم مسجد القشيري كان مختفيا بصهريج المذكور، فذبحتهم الفرنج عن آخرهم بخناجرهم، فصارت أدميتهم تجري من ميازيب الرباط المذكور كجري الأمطار حين أباها فيها، وقيل: كان عدد المذبوحين فوق السطح الرباط من المسلمين زيادة على الثلاثين، فطوبى لهم إذ رزقوا الشهادة وختم لهم بالسعادة، فلما رجع من خرج من الإسكندرية فارا من الفرنج من أبواب البر – كما سيأتي ذكر صفة فرارهم – وعاينوا القتلى المطروحين بالأرض داخل البلد وخارجه بالجزيرة، وقصدوا رباط ابن سلام المذكور، فرأوا تحت الميازيب دماء كثرة جامدة، فصعدوا إلى سطحه فوجدوا الرماة ذبحوا، وبالجنة قد فرحوا وربحوا، فحفروا لهم خارج الربط قبرا متسعا ودفنوهم فيه رحمة الله عليهم، فكانوا كما قال الله تعالى في أمثالهم: ﴿**وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ**﴾.

قال المؤلف – غفر الله له ولوالديه وللمسلمين أجمعين –: حدثني الشيخ الصاع أحمد بن النشاء – شيخ رماة قاعة القرافة بالإسكندرية – قال: حدثني مُحَمَّد الخياط بعد قدومه من مدينة قبرص مع من حضروا من أساري الإسكندرية الراجعين إليها منها، قال: كنت مع رماة المسلمين على سطح رباط ابن سلام، حين صعدت الفرنج إلينا فصاروا يذبحون الرماة وأنا أضطرب من الخوف، فتركوني حيا لصغر سني، وأما حسين البياع فإنهم لما قصدوا ذبحه، ضحك لهم فضحكت الفرنج بضحكه، وقالوا: اتركوه لأنه ضحك موضع الخوف، فأسرنا نحن الإثنين، فحزن حسين بعد ذلك وبكى، ولما رأى الشيخ مُحَمَّد بن سلام ما فعل برباطه من بابه وشبابيكه النحاس وكسر قناديله، وحرق سقف إيوانه وقتل رماة المسلمين به، بكى وتألم على ما رأى وشاهد، فسد حينئذ شبابيكه وبابه بالحجارة" انتهى.

العالم الفقيه المرابط مُحَمَّد الضيروطي والتحضيض على الجهاد

وهو من علماء القرن العاشر الهجري جاء عنه في الكواكب السائرة للغزي (85/1) " وكان محققاً بارعاً زاهداً عابداً، كثير البكاء من خشية الله تعالى، وكان يرابط في برج له بناه بثغر دمياط ليلاً ونهاراً، وكان يعظ الناس في الجامع الأزهر بمصر.... وكان قوالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم، وشدد النكير يوماً على السلطان الغوري في ترك الجهاد على الكرسي، فبلغ السلطان ذلك، فبعث إليه، وقال له: ما حملك على أن تذكرني بالنقائص بين العوام؟ فقال: نصرة الدين، فقال: ما عندنا مراكب معدة للجهاد، فقال: عمر لك مراكب أو استأجر، وأغلظ على السلطان، فاصفر لون السلطان، وأمر له بعشرة آلاف دينار، فردها وقال: أنا رجل تاجر لا أحتاج إلى مالك، فقال: عمر بها في البرج، فقال: أنا لا أحتاج إلى أحد يساعدني فيه، ولكن إن كنت محتاجاً إلى شيء تصرفه على الجهاد أقرضك وأصبر عليك، ثم طال بينهما الكلام، فقال الشيخ للسلطان: أما تؤدي شكر ما أنعم الله تعالى به عليك. قال: فبماذا؟ قال: كنت كافراً فمن الله عليك الإسلام، وكنت رقيقاً، فمن الله عليك بالعتق، ثم جعلك أميراً، ثم سلطاناً، ثم عن قريب يميتك ويجعلون أنفك في التراب، ثم يحاسبك على النقير والقطمير، وينادى عليك يوم القيامة من له حق على الغوري، فيا طول تعبك هناك، بكى السلطان " انتهى.

الفقيه المصري مُحَمَّد البنوفري وأثلاث العام

جاء في نيل الابتهاج بتطريز الديباج (600) " المصري الفقيه الصالح الزاهد الورع، من أعيان فقهائها مشهورًا بالدين والخير والورع والزهد، أخذ عن الناصع اللقاني والتاجوري وغيرهما، وتفرد أخيرًا برياسة المذهب مع شهوته بالديانة، كان، على ما قيل، يختم إقراء مختصر خليل في أربعة أشهر ويمشي لرباط اسكندرية أربعة أشهر ويحج في أربعة أشهر، هذا حاله في العام. توفي في حدود سنة ثمان وتسعين وتسعمائة".

أهل صفاقس ومرابطة البنادقة الروم

نقل محمود مقديش في كتابه نزهة الأنظار في عجائب والتواريخ والأخبار (221/2) عندما أراد البنادقة الصليبيون الهجوم على صفاقس واستعداد أهلها لهم ما يلي "لما كان خمسة عشر يوما من جمادى الأولى سنة إحدى ومائتين وألف وافق ذلك أوّل يوم من الحسوم جاء الخبر من قرقنة (اسم جزيرة) أنّ مراكب البلنسيان (البنادقة) قدموا وأنّهم سائرون لنحو صفاقس، فاجتمع أهل البلد قاطبة خاصّتهم وأهل الحلّ والعقد منهم وعامّتهم وقائد البلد يومئذ القائد أبو الثّنا محمود ابن المرحوم القائد / بكّار الجلّولي – أعان الله الجميع على طاعته ووفّق الكلّ لصالح القول والعمل وحماهم من الخلاف والزّلل – فاتّفق الكلّ على كلمة واحدة وعصمهم من التّنازع ولو في شيء يسير ممّا يوجب الفشل، فأحضروا أوّلا أمين المهندسين رئيس البناء أبا عبد الله أسطى محمّد إبن المرحوم أسطى طاهر المنيف، وكانوا ابتدأوا إسقالة (ما يربطه المهندسون من الأخشاب والحبال، ليتوصلوا بها إلى المحال المرتفعة) في مقابلة مرسى المراكب ليمنعوا مراكب العدوّ من القرب للبلد ولم تكمل، فأحضروا جميع ما تحتاجه الإسقالة ممّا يتوقّف عليه القتال، وبات النّاس على ساق الجدّ فما أصبحوا إلاّ وقد أحكموا الإسقالة غاية الإحكام وأحضروا بها ما يتوقّف عليه القتال من مدافع وكور وبارود وعيّنوا بها من يصلح للرّمي، وكذا فعلوا ببرج النّار وهو البرج الذي في ركن البلد الشرقي الجنوبي وكذا ببرج الربض – وهو أمام البرج المتقدّم – وبباب البحر وبالحصار وبكلّ مكان فيه نكاية للعدوّ، ونصبوا خياما على الإسقالة وساحل البلد من شرقها وغربها وعمّروها بحملة القرآن، وتنافس النّاس في الإسقالة لأنّها جاءت في نحر العدوّ وهو متوجّه إليها بالقصد أكثر من غيرها، وعيّن لكلّ مكان من يقوم به من رماة وحرّاس وقرّاء وغير ذلك، ورتّب أهل الخير رجالا لحمل الماء لشرب النّاس ليلا ونهارا، وكثرت صدقات أهل الفضل، وواسى الغني الفقير، ورتّب أهل الفضل بالإسقالة الطّعام لمن يبيت من الغرباء بالإسقالة وغيرها، وصارت الأرض كأنّها مسجد من مساجد الله ﴿**يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ، رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**﴾ فلا تسمع بها إلاّ تلاوة لكتاب الله، أو صلاة على رسول الله صلّى الله عليه وسلم أو تهليلا أو تكبيرا برفع صوت ونشاط وحزم، إظهارا لعزّة الإسلام وإرهابا لأهل الكفر والضّلال، وإذا جنّ الليل ترك النّاس خيامهم فيذهب أهل الجانب الشرقي لأهل الجانب الغربي، وأهل الجانب الغربي لأهل الجانب الشرقي زيادة في الحرس وإيقاظا وتنشيطا، فمنهم الرّاكب ومنهم الرّاجل، ولا نوم لأحد بطول الليل،

بل رباط مستمرّ ليلا ونهارا، فانتظم أمر النّاس والتأم شملهم طلبا لرضاء الله وإظهارا لكلمة الله العليا، وقمعا لكلمة الذين كفروا السفلى، فانتظر الكفّار سكون البحر والرّيح، فلمّا أحسّوا بذلك شرعوا في الحرب، فأنشؤوا أنشولات اثني عشر، وهي مراكب واسعة قصيرة الجوانب، ملؤوها بالرّجال وآلات الحرب من المدافع والبونبات ومهاريسها، ولهم مراكب يسمّونها هويات معدّة لرمي البونبة، فركّبوا مدافعهم ومهاريسهم وما يحتاجونه، وشرعوا في الحرب أوّل يوم من الزّوال إلى الغروب، فوقع الرمي من المسلمين والكافرين فصار الجوّ ليلا مظلما من الدّخان، فلا يسمع إلاّ صوت القوارع والصواعق على وجه الأرض وفي جوّ السّماء، فكثر الرّمي من الجانبين وعجز النّاس عن الإحصاء لأنّه يخرج مع الوجه الواحد عدة وجوه من الجانبين دفعة واحدة لتعدّد أماكن الرّمي من الجانبين، وكلّما فرغ وجه عمّر غيره من غير فتور لأنّ على كل مدفع جماعة، فالبعض للمسح والبعض للتّبريد، والبعض للجرّ، والبعض للوزن لتعيين موضع الرّمي، والبعض لوضع النّار وغير ذلك، فما يفرغ المدفع إلاّ وداروا به كلّ من له عمل استقبله، فأظهر الكفّار غاية طاقتهم ومجهودهم ظنّا أنّ ذلك يجديهم نفعا وحسبوا أنّهم يرهبون المسلمين بذلك، فخيّب الله أمل الكفر وكذّب ظنّهم، فما ازداد المؤمنون إلاّ نشاطا وجدّا واجتهادا، وأنزل الله عليهم النّصر وأفرغ عليهم الصّبر، وجعل المسلمون يتلقّون ما يرميه الكفّار من الكور فيلتقطه الأطفال والمتجالات ويجعلونه في المدافع ويرمون به الكفّار، فسقط عندهم البعض من ذلك، فسقط في أيديهم ورأوا أنّهم قد ضلّوا فكان ما يرمونه وبالا عليهم، وكلّما رموا بونبة وسقطت صحيحة أخذها المسلمون وأفرغوا ما فيها من البارود، وصار المسلمون يرتقبون ما يسقط صحيحا يغتنمونه.

والحاصل لما حاربوهم أوّل يوم ورأوا حربهم إستخفّوا بهم واستهانوا أمرهم، فمات من الكفّار شيء كثير، وعطب منهم شيء كثير، ولم يقتل في هذا اليوم من المسلمين إلاّ ثلاثة: أبو عبد الله محمّد الشّهيد ابن الشّهيد المجاهد في سبيل الله حمّودة السّلاّمي، كان ممّن سبّل نفسه على الجهاد في سبيل الله، انكسر عليه مدفع حديد في برج الرّبض، والثّاني أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن حسين مساعد أصابته كورة في جوفه بالإسقالة فاستشهد من ساعته، وضرب اثنان كلّ واحد بكورة في فخذه ورفع حيّا، ثمّ استشهد بعد أيام أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف المصمودي، كان مارّا بالإسقالة فأصابته الكورة، وأبو عبد الله محمّد بن حمّودة القرمازي، أصابته كورة في برج النّار، وأمّا بعد ذلك فما أصاب أحد من المسلمين شيء إلاّ محمّد الجلباني

أصابته كورة في برج الربض برأسه فاستشهد من ساعته، ولم يوجب قتل من قتل فزعا ولا رعبا بل استبشر المسلمون بذلك، وتلقوا أهلهم بالتّهنئة بنيل درجة الشّهادة، وسارعوا لدفنهم وحملوهم على أعناقهم بل فوق رؤوسهم متبرّكين بحملهم – رحمة الله عليهم واحشرنا يا ربّنا معهم في زمرة الشّهداء والصّالحين –.

ولما رأى الكفّار الذين نزلوا في الأنشولات ما حلّ بهم من المسلمين، وكلّما حاولوا القرب من المسلمين نزل عليهم عذاب الدّنيا ﴿**وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقى**﴾ وضرب رئيسهم الذي يدبّر أمرهم في وجهه، وزال بغضه وانقطعت أطماع الكفّار، وعظم فيهم الرّعب والخوف فبات المسلمون على مصافّهم منتظرين للقتال، فلمّا أصبح الصّبح أمر كبراء الكفّار رجال الأنشولات بالنّزول إليها ليقربوا من المسلمين بعض قرب فامتنعوا من ذلك وتنازعوا وقال كبراؤهم: أما اكتريناكم لهذا الأمر؟ فقالوا لهم: نحن ما حسبنا أن نلقى من صفاقس هذا الحرب، بل حسبنا أنّا من أوّل وهلة نرميهم فيفروا وننزل البلاد، وها نحن بطلت حيلتنا وضعفت قوانا، ومات أكثرنا، وتعطّب البعض منّا ولم نحصل على طائل، فقالوا لهم: أما ترون المسلمين ثابتين على دينهم يقاتلون؟ قالوا: المسلمون متحصّنون ونحن في أجفان ملقاة على وجه الماء، فإن رميناهم لم يصبهم رمينا وإذا رمونا أصابونا، ما لنا بهذا القتال طاقة، فرفقوا بهم ووعدوهم أوعادا خدعوهم بها وزادوهم في العطاء كلّ ذلك خوفا من الفضيحة لا سيّما ومراكب بعض أصناف الكفّار المعاهدين حاضرون يعاينون، فأيس الكفّار من الظّفر بشيء من المسلمين، فجعلوا يتجلّدون ويظهرون التّشجّع بشيء لا يجديهم إلاّ خسارة الدّنيا والدّين وفضيحة العاقبة، وكان عاقبة أمرهم خسرا.

فصبر الكفّار عدّة أيّام حتّى أصلحوا ما انثلم من سفنهم وبرئ جرحاهم وأرسلوا مركبا لمالطة لتجديد زادهم من الماء والطعام إذ لا طمع لهم في النّزول لبرّ الإسلام لأنّ الأرض مشحونة بالمسلمين من كلّ ناحية، فلمّا سكن الرّيح وهدأ الجوّ عادوا لإفسادهم ولكن برمي ظاهر الضعف والفشل فأظهر المسلمون القوّة والنجدة، ولو كان للمسلمين سفن تضاهي سفنهم ما أمهلوهم لحظة واحدة ولعاجلوهم بالأخذ، ثمّ إنهم فرّقوا أنشولاتهم على جهات شتّى ليشغلوا المسلمين، فساق المسلمون لهم مدافع في مقابلة ما تفرّق منها، ومنعوهم ممّا أرادوا فلم يمهلوهم يقربون من البلد، وجعلت الخيول تجول حول البلاد وعلى ساحل البحر من جميع الجهات.

واتّفق في بعض الأيّام أن قدم بعض صنادل من قرقنة فتلقّاهم النّصارى طمعا في أخذهم، فتسارع المسلمون لإنقاذهم بالخيل والرّجال في ساحل البحر، فحماهم الله تعالى ﴿**وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً**﴾ فلامهم كبراؤهم على أخذ الصنادل وهم في وسط البحر والمسلمون في البرّ، فقالوا لهم: رأينا خيولهم تركض في وسط الماء، وذلك لما ألقى الله في قلوبهم من الرّعب وهيبة المسلمين، ولما أيسوا من فائدة تعود عليهم من الأنشولات رجعوا لضرب البونبة من سفنهم الكبار بالليل، فعاجلهم المسلمون برمي المدافع فأفشلوهم وصار رميهم هدرا لوقوع أكثر ما يرمونه خارج البلد، وربما أصاب سور البلد شيء لا يضر، فيسارع النّاس إلى إصلاحه في أقرب من ردّ الطّرف فحمى الله سور المسلمين من أن يناله ما يؤذيه.

ولما أعيتهم الحيل والمسلمون لا يزدادون كلّ يوم إلاّ قوّة ونشاطا قال كبيرهم – لعنه الله – لرؤساء البونبة: إن أصبتم مأذنة المسلمين أو ناظورهم فلكم منّي كذا وكذا، وبذل لهم مالا جزيلا في ذلك، فبذلوا جهدهم في ذلك ولم يحصلوا على طائل، فانقطعت آمالهم ولم ينالوا من المسلمين قلامة ظفر إلاّ صندل سمك تركه صاحبه بعيدا عن البلد لعدم اهتمامه به، وقيل إنّه طلع بالليل يتصيّد به خفية من النّصارى والمسلمين لأنّ المسلمين منعوا اصطياد السّمك خوفا أن ينال الكفّار منهم أحدا بسوء، فلمّا طلع الصندل ليلا أبصره الكفرة فنزلوا ليأخذوه، فلمّا أحسّ بهم نزل في الماء وجعل يسبح حتّى خلص، وأخذ الكفّار الصّندل، ولما رجعوا به لكبرائهم رأوا أن لا فائدة فيه، فرجعوا لمركب النّصارى المهادنين وقالوا لهم: أبلغوا المسلمين إن أحبّوا نرد عليهم صندلهم، فأجابهم المسلمون بأنّا ما تركناه في المكان الذي وجدتموه به إلاّ لعدم الحاجة إليه ونحن في غنية عن ألف منه ولنا منه كثير، وأمّا أنتم فقد صارت في وجوهكم فضيحة خسرتم أموالكم ورجالكم وترجعون لبلادكم بأسطولكم خائبين خاسرين من غير نتيجة، فهذه نتيجتكم أنّكم وجدتم صندل سمك لا قيمة له مهملا أخذتموه بهذا الأسطول وشجعانه فلا بدّ أن تصحبوه وتزخرفوه ليعظم صيتكم بهذه الغنيمة التي عجز عن مثلها أساطيل السّلاطين، أفّ لكم من قوم سفهاء لا عقل لكم ولا همّة.

ولما كانت ليلة النّصف من رجب عادوا لفسادهم ليلا، فلمّا بلغ رميهم قريبا من تسعين بونبة إنكسرت عليهم واحدة فقتلت رؤساء عملهم وعطّبت منهم جماعة فبطل عملهم، وأصبحوا مسافرين فردّهم الله خائبين خاسرين لم ينالوا إلاّ خسارة الدّنيا والدّين، فكان مدّة مقامهم على البلد شهرين.

ولما سافر الكفّار نزل رئيس مركب من الفرنسيس ومعه واحد من البلنسيان أسلم وأخبر بجميع ما حل بالبلنسيان من الموت والعطب وشدّة البلاء وجميع ما أصابهم وما وقع عليهم من أوّل الأمر، وأكثر ما يزيدهم قهرا أنّكم تحاربونهم وترقصون وتلعبون وتستبشرون وأنتم غير مكترثين بحربهم ولا سيما يوم سفرهم فإن المسلمين اتبعوه بالرمي بالكور، وخرج الكفّار وهم مذمومون مدحورون، والمسلمون في فرح وبشرى أن ﴿**رَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً**﴾.

ولما دخلوا مالطة جعلوا يضحكون عليهم ويستهزؤون بهم وقالوا لهم: أين الغنائم والسّبايا التي كنتم توعدون؟

ولما انصرف الكفّار فكّر المسلمون في شأنهم وقالوا: ربّما استعدّوا بأقوى من هذا ورجعوا، فالأولى بنا أن نستعدّ للقائهم وأن نتّخذ أنشولات مثل ما عندهم، ونركب لهم فيها لمقاتلتهم، ونقمع بها أنشولاتهم ونقطع نكايتهم، فأمر السّلطان سيدي حمودة باشا – دام علاه ونصره الله – بإنشاء أربع أنشولات فهيؤوهم للقتال وأرسل الباشا علي القرمانلي، وفّقه الله لصلاح الدّارين عدّة مدافع إعانة للمسلمين، وكذا أرسل مهاريس لرمي البونبة، فازداد البلد قوّة وعدة والمسلمون نشاطا وتأنّسوا بالحرب، وحصلت لهم جرأة قوية على العدوّ" انتهى مختصرا، وقد كان في مالطا فرسان يوحنا الصليبيين فهم ضحكوا على البنادقة لفشلهم.

وقال البحتري:

مقيمـــــون بالثغـــــر المخـــــوف تحضّـــــهم ... علـــى الطعـــن عـــادات الجـــدود الأوائـــل

رسالة من بعض العلماء إلى أحد الولاة في المغرب الإسلامي يحضه على تفقد الثغور

جاء في نشر المثاني من رسالة إلى أحد الولاة في المغرب الإسلامي " وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضا، وذلك أنه لم يتأت في الوقت الآن عمارة الثغور وسيدنا قد غفل عنها، فقد ضعفت اليوم غاية، وقد حضرت بمدينة تطاون أيام مولانا الرشيد رحمه الله فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقاليع، وهذا وهن في الدين وغرر على المسلمين وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة وتكليفهم الحركة وإعطائهم العدة

كسائر الناس، فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من القلعية إلى ماسة، ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ويترك لهم خيلهم ورجالهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه، فهم حماة بيضة الإسلام ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيرة على الإسلام وأهله ولا يولي فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته" انتهى.

وقال بعضهم في الحض على الجهاد والرباط في الاندلس

أو مـا علمـت بأنّـه لا بـدّ مـن	زاد لكـــلّ مســـافر فتـــزوّد
هـذا الجهـاد رئيس أعمـال التقـى	خـذ منـه زادك لارتحالـك تسـعد
هــذا الـرباط بأرض أنـدلس فـرح	منـه لمـا يرضـي إلهـك واغتـدي

وقال ابن حزم:

وألــزم أطـراف الثغـور مجاهـدا	إذا هيعـــة ثارت فـــأول نافـــر
لألقـى حمـامي مقـبلا غـير مـدبر	بســـمر العـــوالي والرقـــاق البـــواتر

وقيل:

لما حللتَ الثغر أصبح عالياً	للـروم مـن ذاك الجِـوَار جُـوَار

من مزالق الشيطان على المتصوفة

روى ابن الاعرابي (786/2) عن سلمة قال: ذكر رجل لمعروف، الثغر والخروج إليه، فقال معروف له: هبك بين الصفين، ولست لله مطيعا أيش ينفعك.

المفترض أن يحث على الجهاد والرباط، حتى للفسقة وأرباب المعاصي، فوجود المعصية لا يمنع من الرباط وأنه ينفع صاحبه عند الله تعالى.

وروى أبو نعيم في الحلية (267/1) عن أحمد بن أبي الحواري، قال: قلت لأبي سليمان: إن عبادا أو أحمر بن سباع قد ذهبوا إلى الثغر فقال لي: «إن الأباق عبيد السوء، والله والله ما فروا إلا منه، فكيف يطلبونه في الثغور».

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتوفاني شهيدا في سبيله مرابطا لأعدائه، وأن ينفع بهذه الرسالة المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله العالمين.

***

الفهرس